مكتبة الأسرة ٢٠٠٦

سلسلة العلوم الاجتماعية

الشيخ مصطفى عبد الرازق ومذكراته

عقل مستنير تحت العمامة

دكتور أحمد زكريا الشلق



الشيخ مصطفى عبد الرازق ومذكراته

عقل مستنير تحت العمامة

مكتبة الأسرة ٢٠٠٦

القراءة للجميع

برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام
د . ناصر الأنصارى

تصميم الغلاف
د . مدحت متولى

الإشراف الطباعى
محمود عبد المجيد

الإشراف الفنى
علـى أبـو الخيـر
ماجدة عبد العليم
صبرى عبد الواحد

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعــلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشبـاب

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الشيخ مصطفى عبد الرازق ومذكراته

عقل مستنير تحت العمامة

دكتور أحمد زكريا الشلق

٢٠٠٦

لوحة الغلاف للفنان وديع مصطفى المهدى
بدون عنوان - إكريليك على سيلوتكس ١٠٢،٥ × ٨١،٥

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

الشلق، احمد زكريا
الشيخ مصطفى عبد الرازق ومذكراته عقل مستنير تحت العمامة/ احمد زكريا الشلق. ـ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.
٢٢٤ ص ؛ ٢٤ سم. ـ (علوم اجتماعية)
تدمك ٠ -٣٢١ -٤١٩-٩٧٧.
١- الإسلام - تراجم
أ. العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٨٥٥ / ٢٠٠٦
I.S.B.N 977-419-321-0
ديوى ٩٢٢،١

توطئة

انطلاقًا من شعار «مكتبة الأسرة، هذا العام: الثقافة لغة السلام، والذى طرحته السيدة الفاضلة سوزان مبارك، انتقت مكتبة الأسرة حوالى ٣٠٠ عنوان، حاولت أن تقترب من الأجواء الفكرية والثقافية والإبداعية لمفهوم قيمة ثقافة السلام ودعم التسامح، وتعميق قيمة المواطنة والانتماء والمشاركة والمسئولية المدنية، ودور مؤسسات المجتمع المدنى، وترسيخ قيمة دور المرأة وتعزيز قيمة التجدد الثقافى، والتفكير النقدى، والحوار، والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى. وأخيرًا إبراز تواصل الإبداع المصرى عبر أجياله المختلفة وتياراته المتنوعة.

إن مكتبة الأسرة من خلال سلاسلها المتنوعة تحاول استيعاب المشهد الثقافى والفكرى والإبداعى فى مصر عامًا بعد عام. وفى هذا العام تطرح أعمالاً جديدة، وتقدم أسماء لم تنشر من قبل فى هذا المشروع الرائد، وتقتحم مجالات فكرية وثقافية وأصوات إبداعية جديدة.

وسوف تدور عناوين مكتبة الأسرة ٢٠٠٦ فى فلك سلاسل الأدب، والفكر، والعلوم الاجتماعية، والعلوم والتكنولوجيا، والفنون، والمئويات التى تحتفى هذا العام مع العالم كله بمرور ستمائة عام على رحيل المفكر العربى الكبير عبدالرحمن بن خلدون، الذى يعد واحدًا من بُناة الحضارة العربية الإسلامية فى أوج عظمتها وازدهارها، ولأن هذه الحضارة كانت الأساس الذى قامت عليه

الحضارة الأوروبية الحديثة، فـابن خلدون يعتبر نموذجًا واضحًا لأهمية حوار الحضارات وطريقة تواصلها.

سيظل هدف مكتبة الأسرة فتح نوافذ جديدة للقارئ المصرى للاطلاع على منابع الثقافة العربية والعالمية وتكوين ثقافته ومعرفته بأيسر السبل، والوقوف أمام ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والثقافى والعلمى والفكرى المستنير، حتى يستطيع القارئ مواجهة العنف والأصولية، والفخر بإسهامات أسلافه العرب فى تشكيل مسيرة الحضارة الإنسانية.

مكتبة الأسرة

تقديم

يعد الشيخ مصطفى عبد الرازق واحدًا من رجال الدين البارزين الذين عرفتهم مصر فى عصرها الحديث، وهو مفكر مرموق ذاع صيته مع بدايات القرن العشرين، اتسم برجاحة العقل والفكر المستنير واطلاعه الموسوعى على شتى المعارف والعلوم، لاسيما علوم الدين والفلسفة والآداب، وتكشف آراؤه وآثاره حول قضايا النهضة وضرورات الإصلاح عن أفقه الرحب فى تناوله لأمور الدين وشئون المجتمع، فى زمن عزَّ فيه إعمال العقل، وانتشرت فيه الخزعبلات، وأضحى المجتمع رهين حالة من التخلف والجمود، اللهم إلا بارقة الأمل فى طليعة الفكر التنويرى التى حمل لواءها - آنذاك - الإمام محمد عبده الذى تتلمذ على يديه شيخنا الجليل.

وُلد مصطفى عبد الرازق لأسرة من الأعيان فى بنى مزار عام ١٨٨٨ فى أعقاب الاحتلال البريطانى لمصر، وكان والده صديقًا للإمام محمد عبده ومشاركًا فى الحياة العامة؛ حيث انخرط فى سلك المجالس شبه النيابية التى عرفتها مصر منذ عهد الخديو إسماعيل، وشارك فى تأسيس حزب الأمة ١٩٠٧ وأصبح وكيلاً له، وكان لطبيعة ذلك الانتماء أثره البالغ على التكوين الفكرى للشيخ مصطفى عبد الرازق فى بداية حياته، وتوجهاته السياسية والاجتماعية فيما بعد. وكعادة أبناء جيله التحق مصطفى بكتَّاب القرية، ثم ارتحل إلى الأزهر فى العاشرة من عمره، فدرس على مشايخ أزهريين أقحاح - بتعبير المؤلف - لم

يتأثر بهم فحسب وإنما صاروا مثله الأعلى، إلى أن جاء عام ١٩٠٣ الذى يمثل نقطة تحول كبيرة فى حياته، حيث بدأ يختلف إلى دروس الإمام محمد عبده بعد أن ثاورته نزعات الشباب وضاق بالطريقة التى يتبعها علماء زمنه لأنها «لا تضىء بصيرة ولا تبعث عزيمة»، ومن هنا بدأت مسيرته فى التتلمذ على يد الإمام، الذى أخذ على عاتقه مهمة توجيهه، ومن ثم تفتح وعيه على البيئة الأزهرية وثقافتها ومحاولات الإمام لإصلاح تلك المؤسسة المتيدة، كما تعرَّف على أفكار بعض تلاميذ الإمام ذوى الثقافة المدنية أمثال لطفى السيد وقاسم أمين.. وغيرهم، إلا أنه آثر بقاءه فى الأزهر حتى أصبح شيخه الأكبر فيما بعد.

وقد ظهر لدى مصطفى عبد الرازق اهتمام مبكر بقضايا الإسلام والعلم ودراسة الفلسفة والآداب، فأخذ يكرس الاتجاه العقلانى فى فهم الإسلام، وأسهم فى تأسيس المدرسة الحديثة للأدب، التى اتجهت إلى نقد المجتمع ودعت لضرورة إصلاحه ونهضته، كما كان أول أستاذ للفلسفة الإسلامية فى الجامعة المصرية، فضلاً عن اهتمامه بتأليف الجمعيات الأدبية والعلمية. وفى عام ١٩٠٩ استقال مصطفى عبد الرازق من مدرسة القضاء الشرعى بعد أن استعرت الحرب على جمعية تضامن العلماء ومحاولات الإصلاح والنهوض بالأزهر، فسافر إلى باريس للدراسة فى السوربون، وقضى بها ثلاث سنوات، كان لها الأثر الكبير فى تغيير مجرى حياته تغييرًا جوهريًا لاسيما ثقافته واتجاهاته الفكرية، والتى نطالع بعضًا منها فى طيات هذا الكتاب الذى يحوى جزءًا من مذكراته.

وضع هذا الكتاب الدكتور أحمد زكريا الشِّلق، وهو باحث رصين فى العلوم الاجتماعية والتاريخية قدم العديد من الإسهامات للمكتبة العربية استحق عنها جائزة الدولة للتفوق فى العلوم الاجتماعية هذا العام ٢٠٠٦. وحرى بمكتبة الأسرة أن تقدم للقارئ هذا الكتاب فى طبعته الأولى عن أحد رموز التنوير فى مصر فى العصر الحديث، ذلك العالم الجليل والمفكر المرموق مصطفى عبد الرازق الذى لم يأخذ حقه من الاهتمام والبحث اللائقين بدوره ومكانته، لاسيما ونحن نتطلع إلى إرساء قواعد الفكر المستنير.

مكتبة الأسرة ٢٠٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى يقينى أن الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٨٨٨ ـ ١٩٤٧) لم ينل حظه من الاهتمام والدرس اللائقين بدوره وآثاره ومكانته فى تاريخ الفكر المصرى الحديث والمعاصر، فكر النهضة والاستنارة، سواء من جانب المؤرخين أو المشتغلين بالفلسفة، أو نقاد الأدب. رغم أنه ترك شهادة على عصره.. عن مصر فى النصف الأول من القرن العشرين، ممثلة فى آثاره وكتاباته، فضلاً عن دوره ونشاطه الذى ارتقى به من مجرد واحد من أبناء الأعيان المصريين إلى أول أستاذ للفلسفة الإسلامية فى الجامعة المصرية. ومن أحد تلاميذ الإمام محمد عبده إلى مثقف ومفكر كبير يشار إليه بالبنان، يؤسس ويكرس الاتجاه العقلانى فى فهم الإسلام، ويساهم فى تأسيس المدرسة الحديثة للأدب فى مصر، تلك التى اتجهت إلى نقد المجتمع ودعت إلى إصلاحه ونهضته.

وما أجدر أن نستعيد آثار الشيخ، وأن ننشر تراثه، وأن نتدارسه، وما هذا الكتاب إلا إسهام متواضع فى هذا الشأن، آمل أن تتلوه إسهامات أخرى تحفل بآثار الشيخ وتجمعه من بطون الدوريات ليكون فى متناول الدارسين والكُتَّاب، وعامة المثقفين المهمومين بصلاح المجتمع ونهضته.

ويضم هذا الكتاب، إلى جانب الدراسة التى حاولت أن تلفت الانتباه إلى دور الأستاذ وأهمية تراثه، ثلاث مجموعات من مذكراته أولها نشرها فى شكل أدبى وباسم مستعار تحت عنوان "صفحات من سفر الحياة" فى صحيفة حزب الأمة "الجريدة" عام ١٩١٤، ثم أعقبها بمجموعتين أخريين نشرهما فى صحيفة حزب الأحرار الدستوريين "السياسة" بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٦ ورغم أنه سجلها كلوحات قلمية أو مقالات قصصية، وبأسلوب سماه يحيى حقى "الأسلوب العلمى فى الأدب" إلا أنها كانت شهادات واعية على عصره، كما أنها تكشف عن رغبة عارمة فى الإصلاح والتجديد، الذى يحافظ على الصالح من تراثنا ويطعمه بالصالح الذى ينبغى استعارته من غيرنا..

وتنبغى الإشارة إلى أن أجزاء هذه المذكرات قد نُشرت عام ١٩٥٧ ضمن كتاب أعده الشيخ على عبد الرازق عنى فيه بنشر جزء من تراث شقيقه بشكل عام، إلا أنه أشار إلى أن مصطفى كان يدون مذكرات يومية يستودع فيها ما يجده جديرًا بأن يسجل من الحوادث والخواطر لسنين طويلة، نشر منها قطعاً فى الصحف، وأنه عنى بحفظها إلى آخر حياته ثم تركها وديعة لأبنائه، وبهذه المناسبة نأمل أن تكون موجودة، وأن تجد سبيلها إلى النشر خدمة للوطن والتراث المؤسس لنهضته وإذكاء لجهود الاستنارة المنشودة..

والله من وراء القصد،،،

د.أحمد زكريا الشلق

القاهرة - فى يوليو ٢٠٠٦

القسم الأول
دراسة
الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٨٨٨-١٩٤٧)
آراؤه الإصلاحية وإسهاماته الفلسفية

- البيئة الاجتماعية والثقافية
- آراؤه في تحديث الثقافة والمجتمع
- آثاره في الفلسفة الإسلامية

الفصل الأول
البيئة الاجتماعية والثقافية

ليس بوسعنا أن نتفهم أفكار كاتب أو مصلح دون أن نتحدث عن بيئته العلمية والاجتماعية التى نشأ فيها، للإلمام بينابيع ثقافته وأصولها، ولفهم أسس تكوينه العلمى والفكرى، وليس من شأننا هنا أن نترجم للشيخ مصطفى عبد الرازق ترجمة شاملة وافية، فقد تغنينا عن ذلك تلك الدراسة التى صدَّر بها شقيقه الشيخ على عبد الرازق كتابه «من آثار مصطفى عبد الرازق» وحسبنا، فى حيز دراستنا هذه، أن نستجمع من خيوط حياته ما اتصل بإبراز العوامل الرئيسية فى تشكيل قسمات فكره.

وُلد مصطفى عام (١٨٨٨) فى أبى جرج ببنى مزار بمحافظة المنيا فى صعيد مصر[1]، وكان ذلك فى بداية عهد الاحتلال البريطانى، على أثر هزيمة الثورة الوطنية (العرابية)، لأب من أعيان المصريين القادرين ماديًا، والذين لعبوا دورًا فى السياسة، هو حسن باشا عبد الرازق، الذى كان عميدًا للأسرة الشهيرة، وكان الأب قد تلقى ثقافة أزهرية، انخرط بعضها فى سلك المجالس شبه النيابية التى عرفتها مصر منذ عهد الخديو إسماعيل، وكان صديقًا للأستاذ الإمام محمد عبده، يرى رأيه فى قضايا السياسة والإصلاح، كما اشترك فى تأليف حزب الأمة عام ١٩٠٧ واُختير وكيلاً له.

وسيكون لانتماء مصطفى لبيئة الأعيان من أرباب البيوتات، ولميلاده فى أعقاب الاحتلال، سيكون لذلك أثره فى تكوينه الفكرى وتوجهاته فيما بعد، خاصة عندما اختار سبيل الإصلاح فى مجال السياسة والمجتمع، كما ستكون لثقافة والده الأزهرية، وصداقته لمحمد عبده، أثرهما كذلك فى اختيار مجالاته ومناهجه، وكانت مصر حينئذٍ منتكسة بالاحتلال مهيضة الجناح تتلمس سبل الخلاص منه فى غير طريق الثورة، ومن هنا تفتح وعى مصطفى على بيئة الأزهر وثقافته، ومحاولات محمد عبده إصلاح هذه المؤسسة العتيدة، فاقترب من بيئة جديدة من المثقفين ثقافة مدنية غير أزهرية من أبناء الأعيان، الذين تربوا فى بيئة صحيفة «الجريدة» وحزب الأمة، من تلاميذ الإمام محمد عبده، مثل لطفى السيد وفتحى زغلول وعبد العزيز فهمى وقاسم أمين وغيرهم، وإن كان شيخنا قد آثر استكمال دراسته بالأزهر والاستمرار فيه، حتى قدر له أن يكون شيخه الأكبر فيما بعد.

التحق مصطفى بكُتاب قريته، كعادة أبناء جيله، فتعلم القراءة والكتابة وحفظ بعضًا من القرآن الكريم، ثم رحل إلى الأزهر فى نحو العاشرة، وفى ظل علاقة والده الحميمة بالأستاذ الإمام، تتلمذ مصطفى عليه فيما بعد، رغم أنه لم يكن فى بداية أمره، ممن يرشحه ظاهر حاله لأن يكون من تلاميذه أو ممن يأنسون إلى تعاليمه، ذلك أنه بدأ فى الأزهر الدراسة على مشايخ أزهريين أقحاح، أحبهم وصاروا مثله الأعلى، وظهرت آثارهم فى توجيه طبيعته، ولكن عام ١٩٠٣ يمثل نقطة تحول فى حياته، عندما بدأ يختلف إلى دروس الأستاذ الإمام محمد عبده فى الرواق العباسى، حيث كان يقرأ "دلائل الإعجاز للجرجانى"، و"أسرار البلاغة" ويلقى دروسه فى تفسير القرآن الكريم[٢].

وبعد أن تجاوز المراحل الأولى والمتوسطة من دراسته، اضطربت بنفسه نزعات الشباب، فلم يسغ ثمار دراسته الأزهرية، كما كان يلقيها علماء زمنه، فثار على طريقتهم، وكتب إلى أستاذه يشكو من أنه قضى ما قضى فى الأزهر فى طلب العلم فلم يجد ثمرة لما بذل سوى «حشد من الصور والخيالات، لا يضىء

البصيرة ولا يبعث العزيمة.. طلبت السبيل إلى الكمال والعلم النافع، فما وجدت الدليل ولا اهتديت إلى السبيل».

وقد أخذ الإمام على عاتقه توجيه تلميذه إلى قراءة كتب عينها له منها «حماسة أبى تمام بشرح التبريزى» ونهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده، فضلاً عن متابعة أعداد مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا، كما لم يكن يفته درس من دروس الإمام أو آثار قلمه شيئاً، وكان له شغف خاص «برسالة التوحيد» حتى لقد حفظ أكثرها، وقدر له فيما بعد أن يترجمها إلى الفرنسية. وكان مما قرأ كذلك خلال هذه المرحلة «تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده» وشطرًا كبيرًا من «دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة»، و«البصائر النصيرية»، «العقائد العضدية» وغيرها.

وكعادة الأزهريين حينئذ، بدأ بدراسة النحو، وفقه المذهب الشافعى، الذى اتخذه مذهباً له، وقدر له فيما بعد أن يعد دراسته العليا عنه فى باريس، ثم أضاف إلى ذلك الحساب والجبر ومبادئ الهندسة والجغرافية، ولم يلبث أن أبدل بالفقه والنحو أصول الفقه وعلوم البلاغة، وأضاف إليهما دراسة المنطق والتوحيد والفلسفة وتفسير القرآن الكريم والحديث، وعلى هامش ذلك كله درس الأدب والعروض.

ومن أشهر شيوخه فى الفقه الشيخ بسيونى عسل وهو من علماء الشافعية الذين عرفوا بالتصوف، والشيخ محمد حسنين البولاقى، ومن أساتذته فى النحو الشيخ محمد شقير والشيخ محمد الغرينى، أما أساتذته فى البلاغة فمنهم الشيخ محمد الحلبى ثم الأستاذ الإمام محمد عبده، وأبرز أساتذته فى أصول الفقه كان الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى، شيخ الجامع الأزهر، والشيخ محمد بخيت، مفتى الديار المصرية، ومن أساتذته فى المنطق والحكمة الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى والشيخ أحمد أبو خطوة.

وقد كان من قرَّاء الأفغانى المهتمين بتراثه، فاقتنى مجموعة مجلة العروة الوثقى بعد أن كلف من ينسخها له، كما وجدت بين أوراقه مخطوطة عنوانها

«الشيخ جمال الدين الأفغانى ودخائل صاحب الجلالة الإمبراطورية السلطان عبد الحميد الثانى لجورج كوتشى المصرى» أغلبها كتب بخط مصطفى نفسه، وهى رسالة مختصرة تضم كثيرًا من أسرار ودخائل حياة الأفغانى، كما وجدت صورة مقال كتبه الأفغانى بالعربية إلى مدير جريدة «الدبيا»، وكذلك نصوص ردود «أرنست رينان» على الأفغانى التى كتبت عام ١٨٨٣ مما يدل على اهتمام مبكر لدى مصطفى بقضية الإسلام والعلم. وقد استمر على اهتمامه بالأفغانى حتى أنه ألقى محاضرة مطولة عنه فى الجامعة المصرية فى ٢٠ مارس ١٩٢٣([٣]).

ومن أساتذة الشيخ مصطفى عبد الرازق، الذين أثروا فى نفسه، بعد وفاة الإمام محمد عبده، الشيخ أحمد أبو خطوة، الذى تعهد تلاميذ الإمام حيناً من الدهر، وربما كان لقراءته لهم كتب من نوع «طوالع الأنوار للبيضاوى»، وهو كتاب يعتبره الأزهريون من كتب الحكمة ومذاهب فلاسفة الإسلام وغيرهم، ربما كان لذلك أثره فى استمرار اهتمام مصطفى بدراسة الفلسفة، كما قرأ عليه وإخوانه، الشيخ أبو خطوة، رسالة الجامى فى الصفات وهى رسالة فى صفات الله تعالى بأسلوب يجمع بين الفلسفة والتصوف.

وقد حصل مصطفى على عالمية الأزهر فى يوليو ١٩٠٨ على نحو ما هو معروف، ليبدأ بعد ذلك حياته العامة وحياة الوظائف، وقبل أن نحيط بذلك على نحو مختصر، نلاحظ اهتمام الشيخ المبكر بتأليف الجمعيات العلمية والأدبية - دون السياسية - والانخراط فيها، فعندما أراد تلاميذ الإمام محمد عبده إنشاء جمعية تجمع شملهم وتهدف إلى النهوض بالأزهر كما كان يريد، أسموها «الجمعية الأزهرية» اختاروا مصطفى رئيسًا لها، وكانوا يجتمعون فى كل أسبوع مرة أو مرتين يتناقشون فى قضايا علمية وإصلاحية، حتى توزع أعضاؤها إلى فريقين، فريق التحق بمدرسة القضاء الشرعى وفريق آثر البقاء فى الأزهر، وكان مصطفى عبد الرازق من الفريق الأخير.

وعندما قامت حركة إصلاح الأزهر عام ١٩٠٧، أحاط جماعة من العلماء بمصطفى، وكان مدرسًا بمدرسة القضاء الشرعى حينئذ وألفوا «جمعية تضامن العلماء» عام ١٩٠٨ للعمل على تحقيق نفس رسالة النهوض بالأزهر، وكان لهذه

الجمعية صدى مدو فى دوائر الحكومة والرأى العام، وبرغم أن مصطفى لم يكن رئيسها، إلا أنه كان بلا شك من أهم عقولها، رغم أن الأزهريين كانوا يطالبون بإلغاء مدرسة القضاء الشرعى، لكن حرباً عنيفة قامت ضد الجمعية وأصبح مصطفى غرضاً لخصومة قوية، وتذكر المصادر أن الخديو غضب منه لانضمامه للجمعية، حيث كان يعتقد أن سبب الحركة الأزهرية هم مدرسو المدرسة من علماء الأزهر، فاستقال مصطفى من المدرسة فى مارس عام ١٩٠٩ . وعلى أثر استقالته قرر أن يسافر إلى باريس على نفقة أسرته لدراسة اللغة الفرنسية وبعض العلوم لمدة عام يحضر خلاله دروس الفلسفة فى السوربون.. وبالفعل سافر فى يونيو من نفس العام، لكنه قضى ثلاث سنوات متتابعات[٤] فعاد فى يوليو عام ١٩١٢، حيث غيرت هذه السنوات مجرى حياته تغييرًا جوهريًا، وبشكل خاص أثرت تأثيرًا كبيرًا فى ثقافته واتجاهاته الفكرية، على نحو ما سنرى.

وخلال عام ١٩٠٨ أيضًا انخرط مصطفى فى «جمعية ترقية اللغة العربية» التى أنشأها لفيف من العلماء والأدباء، وإن كانت هذه الجمعية لم تستمر طويلاً. وخلال الفترة التالية أنشأ الشيخ عبد العزيز جاويش، بالتعاون مع بعض الهيئات التى تعمل على نشر اللغة الفرنسية وبث ثقافتها فى مصر، مدرسة ذات نظام خاص يجعل للأزهريين الحق فى أن يلتحقوا بها لإعدادهم لإتمام الدراسة بفرنسا، واُختير مصطفى عضوًا بمجلس إدارة المدرسة وقد استمرت هذه المدرسة تعمل لنحو عامين..

كانت السنوات الثلاث التى قضاها الشيخ فى باريس (١٩٠٩ ـ ١٩١٢) جد خصيبة ومؤثرة فى ثقافته واتجاهاته تأثيرًا بالغاً، فقد درس علم الاجتماع على الأستاذ إميل دوركايم، كما حضر دروسًا فى الآداب وتاريخها، ثم انتقل عام ١٩١١ إلى مدينة ليون ليدرس أصول الشريعة الإسلامية مع الأستاذ إدوارد لامبير بكلية القانون بها، وإلى جانب ذلك حضر دروس الأستاذ جوبلو فى تاريخ الفلسفة، فضلاً عن استكمال دراسة تاريخ الأدب الفرنسى. وفى كلية الآداب

بليون تولى مصطفى مهمة تدريس اللغة العربية مكان مدرسها الأستاذ فييت الذى ندب للتدريس بالجامعة المصرية.

وقد عاد مصطفى إلى فرنسا مرة أخرى فى أكتوبر ١٩١٢ لإتمام دراسته، وتذكر المصادر أنه خلال إقامته بفرنسا أعد رسالة للتقدم بها لامتحان الدكتوراه فى الآداب موضوعها، «الإمام الشافعى أكبر مشرعى الإسلام» وأنه أصيب بداء الصدر منذ أوائل عام ١٩١٤، ثم قامت الحرب العالمية الأولى فى يوليو من نفس العام، وكان شيخنا يعالج بمستشفى ليون، فجعل المصريين الذين يدرسون بأوروبا يغادرونها إلى بلادهم، وعاد مصطفى هو الآخر إلى مصر فى أواخر عام ١٩١٤ . قبل مناقشة الرسالة وإجازتها(٥).

وامتدادًا لاهتمامه بفكر الإمام محمد عبده نلاحظ أنه اشترك مع صديقه الأستاذ برنار ميشيل فى ترجمة «رسالة التوحيد» إلى الفرنسية، وكان قد أنشأ قبيل ذلك يدون مذكراته وذكرياته عن حياته اليومية، يستودع بها ما مر به من حوادث وخواطر، نشر بعضًا منها فى صحيفة «الجريدة» حين كان يراسلها بتوقيع (طالب مصرى فى أوروبا) ثم جمعت فيما بعد فى كتاب «من آثار مصطفى عبد الرازق» تحت عنوان «صفحات من سفر الحياة»(٦).

وسيتضح أثر دراسته بفرنسا وتجربته مع الثقافة الفرنسية خلال تحليلنا لفكره خلال فترة مراسلته للجريدة (١٩١٤) ثم فى فترة كتابته فى مجلة السفور (١٩١٥ - ١٩١٧) لنرى أثر توجهاته الثقافية الجديدة. لكننا نستشهد هنا بما ذكره شقيقه الشيخ على عبد الرازق عندما تحدث عن التحول الجديد فى طبيعة وفكر مصطفى فذكر أن «أثر هذه المرحلة فى حياته كان كبيرًا جدًا، أكبر مما كنت أتوقع، وأكبر من أن تطيب به نفسى يومذاك، وأذكر أننى نازعته فى بعض ما حسبته يومئذٍ تغيرًا غير جميل.. فكان يحسم الجدل بيننا وكأنه يقول: رويدك حتى ترى وتعرف كما رأيت وعرفت..»(٧).

وكانت صحيفة «الجريدة» عند عودة مصطفى إلى مصر على وشك أن تتوقف عن الصدور بفعل انصراف مموليها من الأعيان عنها، وبسبب إجراءات الحرب

العالمية الأولى من حماية ورقابة وأحكام عرفية، وتوقف دور حزب الأمة كحزب سياسى، وعندما توقفت الجريدة بالفعل نهض شباب الحزب والموالون للجريدة ومديرها أحمد لطفى السيد، يتقدمهم مصطفى، آخذين على عاتقهم الاستمرار فى الترويج لمذاهب الإصلاح، فالتقى جمعهم، الذى كان يضم لفيفاً من الكُتّاب يضم الدكاترة محمد حسين هيكل ومنصور فهمى وطه حسين، والأستاذ محمود عزمى واتفقوا مع عبد الحميد حمدى صاحب مجلة «السفور» على أن يشتركوا فى تحريرها، بعد أن حملوا اسمها وصاروا «جماعة السفور» وأصبحت المجلة لسان حالهم ومظهر نشاطهم، وكانوا يتحدثون فى السياسة دون الكتابة فيها، لذلك اتجهت كتاباتهم وجهة اجتماعية إصلاحية[٨]، فضلاً عن معالجة الأفكار الأوروبية الحديثة فى هذا الاتجاه، وقد صدم اسمها الذوق العام وأثار حفيظة دعاة الإصلاح الدينى الصادقين منهم وغير الصادقين، فحسبوا أن جماعة السفور يدعون إلى الإلحاد فى دين الله!.

وعمومًا ظهر العدد الأول من المجلة فى ٢١ مايو ١٩١٥ والغالب أن عددًا من أعدادها لم يخلُ من مقال لمصطفى عبد الرازق[٩] وقد حملت مقالاته فيها اتجاهاته فى الإصلاح الاجتماعى، وخاصة فى مجال التعليم والمرأة والأدب والنقد وتطور الفنون. وقد كتب مصطفى فى العدد الرابع منها مقالاً حول معنى السفور، يبين توجهات كتاباته فيها، تعرض فيه لما وجِّه إليها من نقد فذكر "أن بعض الفضلاء يقولون بأن اسم السفور يخيل للناس أن هذه الصحيفة ليست إلا صيحة مكررة إلى تمزيق البرقع عن وجه المرأة، ولكنهم يريدون أن يفهم الناس أن السفور معنى أشمل مما قد يتبادر إلى الذهن عند سماع هذه الكلمة.. إن هذه الصحيفة تريد أن تكون مظهر التقدم الفكرى فى هذه البلد، ومضمارًا لكل دعوة حرة صالحة، وإذا كانت جريدتنا تنادى بإصلاح حال المرأة، فهى أيضاً صحيفة اجتماعية نقدية أدبية تنادى بالسفور الشامل فى كل باب من أبواب التقدم والإصلاح»[١٠].

لقد عاد مصطفى إلى مصر فى أواخر عام ١٩١٤ منهيًا عهد طلب العلم وبادئاً حياة الوظيفة، التى سنعرض لها بإيجاز، لما لها من انعكاس على توجهاته

الفكرية ونشاطاته، ولعلنا نتذكر أنه كان قد ندب للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى لعدة أشهر (من أغسطس ١٩٠٨ حتى مارس ١٩٠٩) عقب حصوله على عالمية الأزهر، ثم استقال على نحو ما مر بنا. وجاء تعيينه الجديد فى أكتوبر عام ١٩١٥ موظفاً بالمجلس الأعلى للأزهر، بتوصية من السلطان حسين كامل، الذى كان صديقاً لوالده، حين رئاسته للجمعية الزراعية، كما كان يعرف مصطفى شخصياً بعدما التقى به بفرنسا وأعجب به، وقد كتب عنه مقالا يروى فيه ذكرياته معه عندما كان أميرًا[١١]، حتى لقد قصدته إحدى بنات السلطان، وهى الأميرة بدرية، لترجمة كتاب لها عن الفرنسية، طُبع منه عدد محدود وعنوانه، «طيف خيال ملكى».. ثم ما لبث مصطفى أن ترقى إلى وظيفة سكرتير للمجلس الأعلى للأزهر.

وقد أصبح شيخنا عضوًا عاملاً بالجمعية الخيرية الإسلامية منذ عام ١٩١٦، ثم عضوًا بمجلس إدارتها عام ١٩٢٠ فوكيلاً لها عام ١٩٤١، ثم رئيسًا منذ عام ١٩٤٦ وحتى وفاته.[١٢] وفى عام ١٩١٧ أنشأ رجل سويدى يدعى بروزدر، وكان موظفاً بصندوق الدين بمصر، جمعية من صفوة الشباب المثقف من مصريين وأوروبيين، لإقامة ما سمى حينئذ «بجامعة الشعب» بهدف إلقاء محاضرات عامة ودراسات ليلية بلغات شتى لتثقيف الجمهور ورفع مستواه العلمى، وكان مصطفى من أشهر أعضائها بل كان عضوًا بمجلس إدارتها، وقد ألقى فيها محاضرات كثيرة[١٣]. كما أُختير عضوًا بمجلس إدارة دار الكتب المصرية شطرًا كبيرًا من حياته، وفى عام ١٩٤٠ أُختير عضوًا بمجمع اللغة العربية.

* * *

وقد رأينا أن مصطفى نشأ على اتجاه الإمام محمد عبده وحزب الأمة، ذلك الاتجاه الإصلاحى، وإن لم يكن عضوًا بالحزب، رغم أن والده كان وكيلاً له، ولم تعرف السنوات التى أعقبت تخرجه فى الأزهر منذ عام (١٩٠٨) دورًا سياسياً أو وطنيًا له، سوى تأييده لمطالب الأزهريين الثائرين. لكنه منذ عام ١٩١٨ بدأ كغيره من شباب مصر المثقف يشترك فى موجة وطنية عارمة، أعقبت الحرب العظمى الأولى، تألف على أثرها الوفد الوطنى للمطالبة باستقلال البلاد، وقد أرادت

جماعة السفور أن تشترك ببعض أعضائها فى هيئة الوفد المسافرة إلى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمر السلام، إلا أن سعد زغلول اعترض عليهم باعتبار أنهم ليسوا حزباً سياسياً، ثم وافق على ضم مصطفى عبد الرازق بصفته الشخصية ولمكانة أسرته، لكن الجماعة رفضت كما رفضت الأسرة، فكان أن ألفت جماعة السفور حزباً سياسياً أسمته «الحزب الديمقراطى المصرى» وكان معظم أعضائه من الشباب الذين تعلموا فى فرنسا، وقد بدءوا يمارسون دورًا يتفق وحجم الحزب المحدود، حتى انتهى أمره إلى الانقسام فالتسرب إلى جماعتى سعد زغلول وعدلى يكن خلال فترة انقسام الأمة إلى سعديين وعدليين. (١٤) وقد غضب السلطان أحمد فؤاد على مصطفى بسبب نشاطه فى الحزب الديمقراطى واتجاهاته الاجتماعية والسياسية، فصدر قرار مجلس الوزراء فى سبتمبر ١٩٢٠، بناء على رغبة السلطان، بإبعاد مصطفى عن الأزهر وتعيينه مفتشاً بالمحاكم الشرعية، لحرمانه من الاتصال برجال الأزهر الذين يؤيدون الثورة ولتقييده فى وظيفة تضعف تأثيره. وقد قضى مصطفى فى وظيفته الجديدة بضع سنوات (٢٠ ـ ١٩٢٧) مرت عادية فى حياته، اشترك خلالها أقطاب أسرته فى تأسيس حزب الأحرار الدستوريين فى أكتوبر ١٩٢٢، ولم يكن مصطفى من المندمجين فى النشاط السياسى للحزب، بحكم طبيعته الهادئة، ورغم أنه كان من أعضائه، إلا أنه كان عزوفاً عن التورط فى حركته السياسية، أو فى أحاديث السياسة بمعناها العملى المباشر(١٥).

وكان يكتفى بأن ينشر مقالاته الفكرية والإصلاحية فى صحيفة الحزب (السياسة) بين الحين والآخر منذ عام ١٩٢٣، وقد تناول فى بعضها سيرة الشيخ محمد عبده ووجهته فى الإصلاح الدينى وتحرير الفكر، وصلته بالأفغانى، الذى ألقى محاضرة خاصة عنه ركز فيها على ردوده على الفيلسوف الفرنسى رينان(١٦)، فضلاً عن نشر بعض مذكراته عن رحلاته إلى أوروبا، وكذلك بعض المقالات التى تتصل بالمناسبات الدينية والاجتماعية.، ولكن من الملفت للنظر حقاً أنه عندما نشر شقيقه الأصغر، الشيخ على عبد الرازق، كتابه الشهير «الإسلام وأصول الحكم» عام ١٩٢٥ الذى ذهب فيه إلى أن الخلافة نظام تعارف عليه

المسلمون ولا يوجد فى نصوص الشريعة ما يلزم به، وما أعقب ذلك من أزمة فكرية وسياسية، انتهت بإبعاد الشيخ على عن وظيفته كقاض شرعى بل وفصله من هيئة العلماء.. وبينما كان حزب الأحرار ومثقفوه يقفون ظهيراً للشيخ على يعضدونه ويؤيدونه، نجد أن مصطفى قد ابتعد عن مجال المعركة، مؤثراً التلميح واستخدام سلاح الدعابة والسخرية الرقيقة، على نحو ما سوف نعالج فيما بعد عندما نناقش موقفه من إصلاح الأزهر وقضية الحرية الفكرية، وربما كان لطبيعته المسالمة الهادئة، العزوفة عن الملاحاة والنضال، دخل فى ذلك على كل حال.

وجاء انتقاله إلى الجامعة بمثابة مرحلة تحول مهمة فى حياته، فكان أول مصرى يدرِّس الفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية، وتوالت خلال هذه المرحلة إسهاماته الفكرية فى مجال الفلسفة الإسلامية، حتى لقد أصبح الأستاذ الأول للفكر الفلسفى الإسلامى فى التاريخ المعاصر، على نحو ما يذكر الدكتور بيومى مدكور[١٧]، وعندما خلا كرسى أستاذ الفلسفة بالجامعة، اُختير مصطفى عبد الرازق للمنصب، ثم مُنح اللقب العلمى فى أكتوبر ١٩٣٥، كما مُنح رتبة البكوية بعد ذلك بعامين، وكان منهجه فى التدريس لا يعتمد على التلقين وإنما على إيجاد صلة عقلية بينه وبين طلابه، يشركهم من خلالها فى بحث الموضوعات واستخراجها من مظانها، وفى فهم النصوص وتحرير الآراء، وقد استفاد فى طريقته تلك مما شاهده وتعلمه فى جامعتى باريس وليون، وما عرفه عن بعض الجامعات الأوروبية الأخرى.

وجاءت الخطوة التالية فى حياته عندما دخل الوزارة وزيرًا للأوقاف، فكان أول شيخ أزهرى يتولى الوزارة فى مصر، عندما اُختير كحجر دستورى فى عهد وزارات الائتلاف اللاوفدية فى مرحلتيه (٣٧ - ١٩٤٢) ثم (٤٤ - ١٩٤٦) ولم يقطع توليه للمنصب ثمانى مرات سوى وزارة الوفد(٤٢ - ١٩٤٤) [١٨] وقد منح خلال ذلك لقب الباشوية، لكنه آثر عليه لقب "شيخ" ولم يخلع عمامته ويتخذ اللباس الأوروبى طوال فترة حياته.

وأخيرًا أُختير شيخًا للأزهر فى ديسمبر عام ١٩٤٥، بعد أن أثيرت أزمة بسبب ترشيحه، حيث لم يكن ضمن هيئة كبار العلماء، التى ينص قانون المشيخة على قصر الترشيح على أعضائها، فعدَّل القانون وعرض التعديل على مجلس الشيوخ الذى أقره، وتولى مصطفى المنصب وظل به حتى توفى فى فبراير عام ١٩٤٧[١٩].

* * *

وقبل أن نعرض لآراء الشيخ الإصلاحية نرى لزامًا علينا أن نعرض لأهم مؤلفاته وكتاباته المنشورة، لنتبين آثاره الفكرية، التى تلقى بعضاً من الضوء حول اهتماماته واتجاهاته. وفيما يتعلق بالمؤلفات المكتملة فيأتى فى مقدمتها كتابه عن «البهاء زهير» وفيه تناول دراسة الشاعر المصرى من زاوية تجديده فى الشعر وقد نُشر عام ١٩٣٠، ثم كتاب "تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية" الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٤٤، وسيحظى بعناية خاصة فى دراستنا هذه، وفى عام ١٩٤٥صدرت له ثلاثة كتب هى على التوالى:«الدين والوحى والإسلام»، الذى درس فيه بموضوعية علمية آراء المستشرقين حول المسائل الثلاث، ثم كتاب "الإمام الشافعى" الذى استكشف فيه مذهبًا جديدًا فى الفلسفة الإسلامية، له خطره العظيم كما يقول طه حسين[٢٠]، والكتاب الثالث بعنوان «فيلسوف العرب والمعلم الثانى» ويقصد بفيلسوف العرب الكِندى، أما المعلم الثانى فهو الفارابى، على اعتبار أن أرسطو هو المعلم الأول، وقد ضم هذا الكتاب فصولاً عن المتنبى، وابن الهيثم (بطليموس العرب) وفضلاً عن آراء شيخ الإسلام ابن تيمية.

وفى عام ١٩٤٦ جمع مصطفى عبد الرازق مقالاته ودراساته عن أستاذه الإمام محمد عبده فى كتاب حمل اسمه ركز فيه على الجانب الإصلاحى والفلسفى من حياة الإمام، ثم لم يؤلف بعد ذلك شيئاً، حيث توفى فى العام التالى. كما نود الإشارة إلى أن له دراسة مهمة عن الصوفية والفرق الإسلامية، كانت نص محاضرة ألقاها فى مؤتمر تاريخ الأديان فى لندن عام ١٩٣٢ ونُشرت فيما بعد فى مقدمة كتاب فخر الدين الرازى «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» الذى حققه د. سامى النشار. أما مترجماته فقد سبق أن أشرنا إلى

اشتراكه فى ترجمة رسالة التوحيد لمحمد عبده مع برنار ميشيل (١٩٢٥) ثم ترجمة كتاب طيف ملكى، خواطر تاريخية (١٩٣٠) وقد كتب مقدمة لترجمة كتاب تشارلز آدمز عن «الإسلام والتجديد فى مصر» (١٩٣٥)، كما كتب مقدمة لكتاب إسرائيل ولفنسون عن «موسى بن ميمون حياته ومصنفاته» (١٩٣٦) وهناك الكثير من تراثه ومحاضراته الموجود فى باطن الدوريات، ولم يجمع منه سوى مجموعه نشرها شقيقه على عبد الرازق عام ١٩٥٧ بعنوان «من آثار مصطفى عبد الرازق» وهى تضم كتاباته فى الصحف والمجلات خلال الفترة من (١٩١٤ - ١٩٢٧). فضلاً عن أن له مذكرات كان يدونها لسنوات كثيرة من حياته، تركها وديعة لأبنائه، ولم يقدر لها أن تُنشر كما ذكر على عبد الرازق، وهناك إشارة إلى كتابات له فى المنطق والتصوف والأدب لم تر النور بعد[٢١].

هوامش الفصل الأول

(١) ملف خدمة الشيخ مصطفى عبد الرازق، بدار المحفوظات العمومية بالقلعة برقم ٢٥٧، مسلسل ٥٦٣٤٢ محفظة رقم ٥٤٦٥ / ١٩١/ ١ ويذكر على عبد الرازق فى مقدمته لكتاب «من آثار مصطفى عبد الرازق» دار المعارف بمصر عام ١٩٥٧، أنه وُلد عام ١٨٨٥ بينما ورد فى ملف خدمته أنه ولد عام ١٨٨٨ وأن شهادة ميلاده سجلت باعتباره من سواقط القيد.

(٢) محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الأمام، ج (١)، القاهرة ١٩٣١، ص ٧٥٧ .

(٣) السياسة فى ٢١، ٢٢ مارس ١٩٢٣ حيث يوجد نص محاضرته.

(٤) كان لطفى السيد بصحبته عندما سافر وقد مهد له الإقامة فيها وربما كان له دور فى توجيه دراسته، راجع مقدمة على عبد الرازق لكتاب «من آثار مصطفى عبد الرازق» ص ٤٩ .

(٥) ملف خدمة الشيخ مصطفى، المصدر السابق.

(٦) وقد طُبعت ترجمة رسالة التوحيد فى باريس عام ١٩٢٥، أما رسائل مصطفى ومقالاته فى صحيفة الجريدة فكانت من ٢ مايو حتى ٢٧ أغسطس ١٩١٤، وتضم مذكرات الشيخ حسان الفزارى، وهى شخصية خيالية يلقى الكاتب عليها بعضاً من ظلال شخصيته هو، وكان يوقع بتوقيع: طالب مصرى بأوروبا.

(٧) على عبد الرازق، مقدمته لكتاب من آثار مصطفى،.. ص ٥١ .

(٨) عن جماعة السفور راجع، محمود عزمى: خبايا سياسية، القاهرة ١٩٥٠، ص ٤٠ - ٤١، محمد حسين هيكل: مذكرات فى السياسة المصرية، ج١، القاهرة ١٩٥١، ص٧٥ - ٧٦ .

(٩) السفور مجلة اجتماعية نقدية أدبية أسبوعية وقد كتب مصطفى منذ أول أعدادها فى ٢١ مايو ١٩١٥ وكانت آخر مقالاته بها فى العدد ٣٦ فى ٢٧ ديسمبر ١٩١٧ .

(١٠) السفور فى ١١ يونيو ١٩١٥ مقال (نقد السفور).

(١١) السياسة فى ٦ أغسطس ١٩٢٣ مقال (السلطان حسين كامل بمناسبة ذكرى وفاته).

(١٢) على عبد الرازق، المصدر السابق، ص ٥٨ .

(١٣) مصطفى عبد الرازق: مقدمته لترجمة كتاب تشارلز آدامز «الإسلام والتجديد فى مصر» ترجمة عباس محمود، القاهرة ١٩٣٥ .

(١٤) أحمد زكريا الشِّلق: حزب الأحرار الدستوريين، القاهرة ١٩٨٢، ص ٣٦ .

(١٥) محمد زكى عبد القادر: أقدام على الطريق، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٢٣.

(١٦) راجع السياسة، أعداد ٢١٩ _ ٢٢٤ فى ١١ _ ١٧ يوليو ١٩٢٣م مقالاته الافتتاحية عن محمد عبده وكذلك العددين ١٢٣، ١٢٤ فى ٢١ - ٢٢ مارس ١٩٢٣، نص محاضرته عن الفيلسوف رينان وجمال الدين الأفغانى.

(١٧) إبراهيم بيومى مدكور: مع الأيام، شىء من الذكريات، كتاب الهلال القاهرة أكتوبر ١٩٩٠، ص ١١٧ .

(١٨) يونان لبيب رزق: تاريخ الوزارت المصرية، القاهرة ١٩٧٥، ص ٤٠٧ وما بعدها.

(١٩) إبراهيم بيومى مدكور: المصدر السابق، ص ١١٧ _ ١١٨ وكان المؤلف عضوًا بالشيوخ عندما عرض عليه مشروع القانون وذكر أنه لم يقره «لأننى كنت أرفض التعديلات القانونية المصنوعة التى تدفع إليها غايات خاصة».

(٢٠) راجع تقديم طه حسين لكتاب «من آثار مصطفى عبد الرازق».

(٢١) انظر محمد عبد الغنى حسن: الشيخ الإمام مصطفى عبد الرازق بين الأدب والشعر والنقد، مجلة الثقافة مارس ١٩٨٢ ص ١٤ .

الفصل الثانى

آراؤه فى تحديث الثقافة والمجتمع

قبل أن نستعرض ونناقش آراء الشيخ مصطفى عبد الرازق الإصلاحية، المتصلة بتحديث الثقافة والمجتمع ومؤسساته التعليمية والدينية، ينبغى التأكيد على أهمية انتمائه لمدرسة الإمام محمد عبده فى إصلاح المجتمع الإسلامى، بل إنه يمثل بدرجة كبيرة، فى تقديرنا، أفضل نموذج لامتداد آراء الإمام وتواصلها، من حيث توفيقيتها ودعوتها إلى الاعتدال والتدرج فى قضايا الفكر والإصلاح. فإذا قدرنا أن مدرسة محمد عبده قد خرج منها تياران أساسيان، أحدهما سار فى اتجاه عصرى، يميل إلى الليبرالية أوالتحرر، والآخر سار فى اتجاه سلفى محافظ، فإن مصطفى عبد الرازق قد عمق المجرى الأصلى للنهر وسار به شوطاً كبيرًا حتى أواخر النصف الأول من القرن العشرين، فضلاً عن أنه أسهم بتفرد، فى تجديد دراسة الفكر الفلسفى للإسلام، ليتميز عن غيره من تلاميذ الإمام بهذا المجال.

ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أن مصطفى لم يكن نسخة متكررة من أستاذه برغم التواصل، فإذا كان طبع محمد عبده قد تميز بحدة وجراء عرفت عنه، فإن تلميذه كان يميل بطبعه إلى الرفق واللين والسماحة، التى تكره الغضب وترهب الثورة، وإن كانت همومهما واحدة[٢٢]. ويؤكد المعنى السابق أن مصطفى لم ينضم

إلى جماعات سياسية ذات طابع ثورى أو عملى، وإنما لعب دورًا فكريًا وثقافيًا من خلال حزب أقامه المثقفون المصريون وهو الحزب الديمقراطى، كما انحصرت إسهاماته فيما بعد فى حزب الأحرار الدستوريين، المعتدل بحكم تكوينه وطبيعته، فى معالجة قضايا الفكر والإصلاح على صفحات جريدته. وليس بالضرورة أن يكون المصلح صاحب تيار، متفردًا، أو حتى رائدًا، فقد يكون دوره مؤثرًا وقويًا إذا كان ممثلاً صادقًا وأمينًا لتيار فكرى، مكرسًا حياته له، دائبًا على نشره وقادرًا على تعميقه وجعله متواصلاً، وكان مصطفى عبد الرازق بحق من هذا الطراز من المصلحين.

وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالاعتبار هى أن مصطفى، رغم إرهاصات قلقه المبكر، واغترابه بروحه وفكره عن الوسط الذى نشأ فيه وتعلم، فإنه لم يكن صاحب رأى أو أنشأ شيئاً من كتاباته ومؤلفاته، إلا بعد زيارته الأولى لأوروبا (١٩٠٩ ـ ١٩١٢) ولهذا الأمر دلالته على كل حال، وكان أوروبا، كنموذج حضارى طاغ ومؤثر، قد فجر لديه أزمة مواجهة الذات والمجتمع، كضرورة أولية لتحديث وتمدين مجتمعه الإسلامى، وكانت نقطة البداية هى تعرية العيوب ونقدها، وتصوير النموذج المغاير المتصل بالآخر (أوروبا). والدعوة إلى إقامة الجسور بين القديم والجديد على نحو غير مألوف، ولعلنا نحاول التعرف على الجديد الذى قدمه مصطفى من خلال اهتمامه بعدة قضايا معينة تأتى فى مقدمتها قضية نهضة المجتمع الإسلامى وعلاقة ذلك بالنموذج الحضارى للغرب.

لقد ارتحل مصطفى عبد الرازق إلى فرنسا للدراسة والتعلم، على نحو ما مر بنا، فكانت أوروبا هى قبلة البعثات التعليمية سواء كانت حكومية أو أهلية، وخاصة لأبناء الأعيان، وحتى الذين حصلوا على عالمية الأزهر، منذ آمن محمد على بضرورة الاستفادة من علوم الغرب وحضارته خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر، وأقام جسورًا انتقلت خلالها آثار المدنية الأوروبية إلى مصر. وقد سافر مصطفى إلى فرنسا فى إطار الوعى بأهمية هذه التجربة، وكتب هناك بعضاً من مذكراته ثم نشرها على لسان فتى مغترب (باسم مستعار)

مدفوعًا إلى ذلك برغبة عارمة فى الإصلاح، وقد ذكر فيها أنه ذهب «إلى أوروبا ثقة بأن الغرب خطا بالعلم خطوة كبيرة، وأننا أصبحنا عيالاً عليه فى نهضتنا، فلا غنى لنا عما عند القوم من مدنية وعرفان»(٢٣).

ولم تمنعه أزهريته الصرفة من حضور محاضرات المستشرقين فى الجامعة المصرية، وقد كتب مرة عن محاضرة حضرها للأستاذ كليمان، أستاذ الآداب الفرنسية بها، وكانت عمامته الوحيدة بين الحاضرين، ومرة أخرى ردد شكوى المستشرقين من قلة ما يعرفه الطلاب المصريون من آداب لغتهم العربية وقد أرجع ذلك إلى ضعف مستوى التأليف فيها، وعيوب ترتيبها وأساليبها وسقم بيانها(٢٤). لقد كان مصطفى يؤمن إيماناً راسخاً بضرورة السفر للاستفادة من نهضة الغرب، وقد كتب مرحبًا برحلة طه حسين إلى فرنسا ورأى فيها «خيرًا كبيرًا لنهضتنا الفكرية الحديثة.. فللأسفار فائدتها فى تكميل المعارف وتزكية الفطر.. ولعل أحوج الناس إلى الانتفاع من الأسفار فى إنضاج مواهبهم الكامنة أولئك الأفراد المتفوقون بفطرهم، الذين تعجز الأوساط التى نشأوا فيها عن أن تسير بهم إلى ما استعدوا له من الكمال.. سافر طه وعكف على الاستفادة من علم القوم ومن عشرتهم..»(٢٥).

ولقد أعجب مصطفى بالنهضة العلمية الحديثة التى بلغتها مصر فى عهد محمد على إعجابًا شديدًا «حين جعل يختار من المتعلمين فى المعاهد الدينية من يستطيع تحصيل العلوم الحديثة والاستفادة من الرقى الفكرى فى بلاد الغرب، فيوفدهم إلى أوروبا» وقد أبدى سعادته عندما رأى تزايد أعداد الطلاب المصريين الذين يدرسون فى أوروبا، وأشاد أكثر«بإقدام فتيان من خريجى الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى ودار العلوم على السفر إلى أوروبا شوقًا إلى الكمال العلمى، من غير سابق تأهب للحياة والدراسة فى تلك البلاد، ومن غير بسطة فى الرزق ولا مورد.. أولئك الشيوخ المجاهدون فى سبيل العلم يستحقون عطفاً وتشجيعًا»(٢٦).

كانت أوروبا ونهضتها العلمية مثار اهتمامه وإعجابه ومن هنا نادى فى هذه المرحلة المبكرة من حياته، بضرورة الاستفادة من علومها، ثم انتقل إلى الحديث

عن نهضة مصر، وضرورة استفادتها من المدنية الغربية، «فلا غنى لنا فى الكمال المدنى الذى ننشده عن الاستفادة من الأمم التى سبقتنا فى ميدان الرقى، وأن الشرق والغرب هما شطرا الإنسانية، فمن سعى بينهما بالفرقة كان عاقاً، جانياً على الإنسانية.. إنما نحن مصلحون نمهد للمودة والقربى بين شعوب البشر كلها». وقد رأى كذلك أن شعوب الشرق تتصل بالفكر الغربى، الذى يقتحم فجاج الأرض بمدافع الجنود وبضاعة التجار وكتب العلماء[٢٧].

انظر إلى مصطفى وهو يكتب عن باريس بلغة عاشق متيَّم، وكأنما صاغ هذا الإعجاب وجدانه صياغة جديدة، فأنطقه بإحساس شاعر حين يقول "ليست باريس صنع شعب من الشعوب، ولا عمل عصر من العصور، ولكنها جماع ما استصفاه الدهر من نفائس المدنيات البائدة، وما تمخض عنه ذوق البشر وعقلهم وعملهم من آيات الفن والعلم والجمال، باريس جنة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، فيها للأرواح غذاء وللأبدان غذاء، وفيها لكل داء فى الحياة دواء، فيها كل ما ينزع إليه الإنسان من جد ولهو، ونشوة وصحو، ولذة وطرب، وعلم وأدب، وحرية فى دائرة النظام لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود، باريس عاصمة الدنيا، ولو أن للآخرة عاصمة لكانت باريس[٢٨].

ولعلنا نتساءل: إذا كان شيخنا مؤمناً ومعجبًا بتفوق أوروبا ورقيها فى العلوم المدنية، فما الذى يمكن أن نستفيده من المجتمع الأوروبى ذاته فى نواحى الحضارة الأخرى وفى مظاهر السلوك؟ وهنا نلاحظ أنه لم يترك مناسبة إلا ويعبر عن ناحية من تلك النواحى، فقد بهرته بعض الجوانب التى رآها إيجابية فى الأسرة الأوروبية، وكانت من المسائل التى يبتعد عن الخوض فيها أنداده، فلم يستنكف أن يبدى إعجابه بما رآه فى الأسرة الأوروبية من الحياة والنظام والصراحة ومظاهر السعادة «ولقد شعرت من غير حاجة إلى فضل تنبه به لحال المرأة هناك من الأثر العظيم فى ترقية معيشة الأسرة». كما أعجب بدور الصحافة الفرنسية ورقيها فى تأدية رسالتها، وجعل يقارن بين صحفنا وصحيفة الطان، ويجد فى ذلك «فرقًا متناسبًا مع ما بين فرنسا ومصر من التفاوت

العظيم فى الرقى العلمى والاجتماعى، ويخيل إلى أننى أصبحت ألمح هذا التفاوت فى كل شىء، فى حديث الناس وحركاتهم، وفى كل وجه من وجوه الحياة، بل فى هذه الطبيعة التى نالتها نفحة من بركة المدنية والرقى[٢٩].

وحين زار مصطفى لندن بهرته صورة الحرية عندما رأى حديقة الهايدبارك الشهيرة، ولفت نظره أكثر منابر دعاة الأديان، ولاحظ أنه لا يوجد منبر للدعوة للإسلام وأنه حدث نفسه بأن يتولى ذلك بنفسه، لولا أن تذكر أنه ليس من اللائق أن تكون هيئة كبار العلماء منصرفة إلى تكفير المسلمين فى مصر (يقصد فى قضية شقيقه على عبد الرازق) فيخرج لها فى لندن من يدعو الكفار إلى الإسلام!![٣٠].

لكنه كان يرفض تقليد الغرب فى مظاهر السلوك الاجتماعى تقليدًا أعمى، ففى حديث له عن حفلة خيرية وجد فيها مكاناً خاصاً للسيدات المصريات يرقصن فيه معاً تساءل باستنكار: لست أدرى كيف رضيت سيداتنا بهذا؟ أفهم أن ترى السيدة المصرية أن الرقص ليس له مساغ من عادات قومنا ولا آدابهم، وأنه ليس ضربة لازب لنهضة المرأة الجديدة، أوليس عنصرًا من عناصر الرقى الأولى التى يبدأ بها، فتعف عنه السيدة المصرية كما يعف عنه بعض الناس فى بلاد الغرب نفسها، وعندما رأى ظاهرة انتشار لبس البرانيط بين الفتيان تساءل فى دهشة: «ما بال فتياننا يشبون طفرة إلى محاكاة الفرنجة؟» وقد حز فى نفسه رؤية طلاب دار العلوم يتخلون عن لبس العمامة" فقد كانوا زينة المعممين رشاقة ونظافة، يتجلى فى ملابسهم نوع من التأنق هو مظهر من مظاهر الذوق الشرقى الجميل، الذى يريد أن يتلاشى فى أذواق غربية فلا يبقى لنا منها إلا ما هو خال من الذوق الحسن[٣١]. ومن المعروف أنه لم يخلع عمامته، وظل يعتز بلقب شيخ طوال حياته.

كان يؤمن بأن لكل مجتمع طبيعته الخاصة، وأنه إذا كان لمجتمعنا أن يأخذ عن الأوروبيين عملاً بسنة التطور، فإن عليه حينئذ ألا يأخذ بالمسببات دون الأسباب.. وقد كتب معلقاً على تقليد المصريات للأوروبيات فى نوع جديد من

المشى، فذكر "أنه إذا كان ثمة سبب أو آخر لمنشأ تلك البدعة فى أوروبا فإن هذه الأسباب لا وجود لها فى مصر.. ومن عجب أن تأتينا المسببات بلا أسبابها.. مهلاً بنات النيل فما كل جميل عند القوم يكون عندنا جميلاً" لقد كان يؤمن أن بإمكاننا مزاحمة الغرب وأن نكون أنداداً له أقوياء، ولم يخف سعادته عندما تحدث له أحد الأطباء الفرنسيين بأنه سمع الفيلسوف «برجسن» يشيد بأحد تلاميذه المصريين، وهو الدكتور منصور فهمى، فعلق «شعرت يومئذ بشىء من الفخر لمصر الناهضة التى يشهد لفيلسوفها الشاب، إمام فلاسفة العصر»[٣٢].

لقد كانت نظرية مصطفى عبد الرازق فى الأخذ عن الغرب تتمثل فى ضرورة تعلم العلوم المدنية على إطلاقها، أما ما يتعلق بمظاهر السلوك الاجتماعى ونشاطه، فهو يدعو إلى أخذ ما يناسب طبيعة المجتمع الإسلامى، وبما لا يؤثر على خصوصيته وتميزه، كما لم يخف إعجابه بالحرية الفكرية، وكان مؤمناً بقدرة الشرق الإسلامى على أن ينهض ليصبح نداً قوياً للغرب الأوروبى.

* * *

ولما كان الأزهر هو بيته، الذى تفتح وعيه فيه وتلقى ثقافته الأولى عن شيوخه وعلمائه، فإن قضية إصلاحه، كمؤسسة تعليمية وفكرية، ستكون مجال اهتمامه الرئيسى، حيث شغلت حيزاً كبيراً من فكره وإسهامه، بنفس القدر الذى شغلته قضية الفهم العقلانى للدين وحرية الفكر، وشيخنا إذ يدعو لإصلاح الأزهر، فإنما يدعو لذلك من داخله وبأسلوب خبير به وبأحواله، فلم يخرج عليه أو ينشق عنه، وإنما ارتحل ورأى ودرس ووعى، ثم عاد إلى بيته، الذى قدر له، فيما بعد، أن يكون شيخه الأكبر، ومن هنا تكتسب آراؤه أهميتها، ويكتسب نقده مغزاه وقيمته.

بدأ مصطفى برصد الخلل فى البناء الثقافى لمصر الحديثة بسبب ازدواجية مؤسسات التعليم، فأنشأ يتحدث عن تجربة محمد على المتعلقة بتأسيس مدارس التعليم المدنى (النظامية) بجانب المعاهد الدينية، ودافع عما وجه إليه من نقد تمثل فى أنه أخل بوحدة التعليم، فجعله دينياً وغير دينى، وأنه كان ينبغى عليه أن

يصلح المدارس الدينيـة لتـحـقق أغـراض المدارس الجـديدة، فـيكون الأطبـاء والمهندسون ورجال القانون والصنائع وقواد الجيش وأمراء البحار شيوخًا كأهل الدين. فعلق مصطفى على ذلك بقوله «إن المصلح الأمى كان أبصر بمواقع الرشد من أولئك الناقدين، فإن إصلاح الأنماط التعليمية وتهذيب النظم فى مدارس الدين، من غير إخراج لها عن موضوعها قد أعجز المرحوم الشيخ محمد عبده بعد أن قضى حياته الغالية فيه، وما فتئ حتى اليوم مطلبًا عسيرًا.. ولو أن نهضة محمد على سارت فى سبيلها على النحو الذى بدأت به لكنا اليوم نزاحم الغرب بالمناكب فى الرقى العلمى، لكن عوامل كثيرة شوشت حركات رقينا المنتظم، وانتهى الأمر بنا إلى أن المدارس الحكومية تعد للحكومة ما يلزم من العمال وإلى أن المعاهد الدينية تخرج من تحتاج إليهم فى وظائف الدين. وأهملت العناية بتربية الروح العلمية فى الأمة وترقية المستوى العقلى[٣٣].

وقد أوضح الشيخ ما نتج عن ذلك من إيجاد عنصرين مكونين للطبقة العلمية فى مصر، هما طبقة الأفندية وطبقة الشيوخ، ينظر كل فريق إلى صاحبه نظرة سخط لا تغضى عن عيب ولا ترى حسناً، وأصبح ذلك داء عضالاً يصل شره إلى نهضتنا العلمية نفسها. وأضاف أنه "لو أمكن اعتبار الأزهريين رجال كنيسة إسلامية، فوقف دورهم فى الحياة الاجتماعية عند حدود المظاهر الدينية، وأمكن اعتبار المدرسيين علماء دنيا، لا يدخلون فى الشئون الدينية بيد ولا رجل، لو أمكن هذا، لهان الخطب.. لكن أبناء المدارس يأبون إلا أن يحملوا، مع راية العلم الدنيوى، لواء الدين ليكونوا زعماء الدنيا والآخرة.. أما رجال المعاهد الدينية فهم أيضاً لا يقنعون بأن يكونوا حملة القرآن ورواة السنن بل يريدون أن يكونوا هم العلماء من غير قيد ولا حد، والذى يسترعى نظرى بوجه خاص هو أمر الانقسام الأخلاقى الواضح فى فتياننا من أثر التربية المدرسية والتربية الأزهرية، أرجو أن يأتى يوم يخلص فيه شبابنا العلمى من حدة الأفندية وضعف الشيوخ»[٣٤].

وجعل مصطفى يحلل الأثر الذى نجم عن ازدواجية التعليم، وما حدث له من قصور وتأخر، فرأى أن «العلم القديم» أو علم الأزهريين ومن إليهم من أهل

العلوم الدينية، كان فى نجوة من حركة الرقى العالمى، يطوف فى دائرة ضيقة.. فالكتب التى كانوا يتدارسونها فى عهد محمد على هى الكتب التى لا يزالون عليها عاكفين لعهد السلطان حسين، وطريقهم فى الدرس لم يتبدل، ولست ترى فرقاً بين ما يؤلفه جيل اليوم منهم وما ألفه آباؤهم من قبل.. ولم يقتصر نقده على طريقة التعليم وأساليبه عند الأزهريين، بل امتد لما أسماه «المدرسة الجديدة» التى بدأت حياتها بالتغريب، ثم ارتفعت درجة فأخذت فى التصنيف على أنماط جديدة، ووجد لدينا مؤلفات أعارها الغرب التفاتاً. وحدث من الحوادث الاجتماعية والسياسية ما عاق سيرنا إلى الرقى ونهوضنا العلمى.. ولقد أحيا آمالنا المرحوم قاسم أمين وفتحى زغلول بما كان لتصانيفهما من الحياة العلمية والشخصية الممتازة، فلما توفيا لم يبق إلا الجيل الناشئ نرجوه ونرقبه، وقد بدأ يخطو خطواته الأولى فى سبيل الإنتاج العلمى. رأينا كثيرًا من الرسائل التى كتبها شبابنا الدكاترة فى الحقوق والأدب فاستبشرنا بها..»(٣٥).

هكذا رأى شيخنا أن المدرسة الجديدة أكثر تقدمًا ورقيًا، بخلاف المدرسة القديمة التى أعيا أستاذه (الإمام محمد عبده) إصلاحها، والتى لم تتحرك قيد خطوة، ومن هنا راح يأخذ على عاتقه إتمام الرسالة، لقد بدا ساخطًا حانقًا على دروس الأزهر وطريقة التعليم فيه، التى تحشو الأدمغة بشروح التلخيص وحواشيه وتقريراته، والتى أصبحت خلوًا من ذوق البيان، بعيدة عن فهم أسرار البلاغة، لقد كان الشيخ يشعر أنها تجنى على عقله وذوقه، ولا تكوِّن ملكة ولا تهذِّب ذوقًا(٣٦).

وكان أكثر ما يحزنه طريقة تأليف الكتب فى الأزهر، فضلاً عن طريقة تدريسها، ومن هنا انتقد بشدة عدم حب المطالعة عند القائمين بالتدريس «فنحن أقل الأمم قراءة واطلاعا يستوى فى ذلك جاهلنا وعالمنا.. وإن من علمائنا من يصاب بنوع خاص من المرض يجعله يصبر على درس كتاب واحد ممل ثلاثين مرة، فهذا أحد شيوخ الأزهر ظل نحو ثلاثين عاماً يدرِّس شرح الكفراوى على الأجرومية.. وواجبنا أن نعمل على ترغيب الناس فى الاطلاع ونزيل كل ما من

شـأنه أن يجعل المطالعة مملة. ففى تأليف كتبنا وفى ترتيبها وأساليبها عيوب تبعث إلى نفس قارئها فتوراً وتضعف من نشاطه..»[٣٧].

لقد كان فهم الشيخ مصطفى للدين فهماً مستنيراً، عقلياً، يتعجب من إقحام أشياء على الدين ليست فيه، ثم يلاحظ أن كل ما يتصل بالدين من الشئون الاجتماعية يبطئ عن متابعة الحركة السارية فى أجزاء العمران، وتعجب من أن هذه الشئون وإن لم تكن بذاتها دينًا، فإن اتصالها بالدين على أى وجه يكاد يجعلها مقدسة لا تقبل تغييرًا إلا بوحى السماء، وراح يضرب الأمثلة على ذلك ببيوت الدين التى نراها ذات سحنة متميزة عن سائر الهياكل والمبانى ولا يتغير شكلها فيما يتغير من أشكال البناء، ونرى ثياب المنتسبين إلى الدين كثياب سائر الناس تتبع ما يتجدد من الأنماط وتسير مع ما يكتشفه الذوق الإنسانى من أسرار الجمال أو ما ينتبه إليه بهداية العلم والتجربة من دقائق الحاجات الصحية والمعونة على النشاط، كأن هذه الأشياء التى لا حرفة دينية لها فى الواقع، أصبحت من شعائر الأديان، فمن مسها أهاج سخط السماء..»[٣٨].

ولم يكن مصطفى غافلاً عن طبيعة التطور وضرورته، أو متجاهلاً لخصوصية الذات وخطورة الاندفاع نحو الجديد فى غير ترو أو تبصر، فها هو يعبر عن ذلك بنص غاية فى الوعى والوضوح إذ يقول: قد يكون من خير الأمم لأول نزوعها إلى الرقى فى الميعة الأولى أن يتجاذب حماستها للتجديد بطء من جانب القديم يحفظها من خطر التقحم، ولكن إسراف بعض مرافق العمران فى القعود عن مسايرة الناهض من شئون الحياة يضر بتلك المرافق ضررًا يصل إلى الحياة الاجتماعية كلها..»[٣٩]. فهو بذلك يؤمن بالتطور ويتحمس له، لكنه التطور المتدرج المحسوب، فى غير اندفاع وإنما فى أناة ورفق.

وقد انتقل مصطفى عبد الرازق إلى مقاومة ما دخل باسم الدين من خزعبلات فى سلوك المسلمين، والدين من ذلك براء، فذكر أن بعض الفقهاء يقول فى كتبنا الدراسية: إن المرء إذا لم يسم فى أول طعامه أكل الشيطان من طعامه فنقص، فإذا ذكر اسم الله بعد ذلك قاء الشيطان ما أكله. وروى فى

مناسبة أخرى أن أحد أصدقائه الأطباء قدم لمريضته مبصقة تسعل فيها فتجاهلتها ولفظت بصاقها على الأرض، فلما لامها بلطف على الاحتلال بأبسط قواعد الصحة والأدب انبرى زوجها يصيح به ألست تعلم أن الله يقول «ولا على المريض حرج» فعلق: معاذ الله أن يكون الدين الذى جعل الطهارة من الإيمان مسوغاً للناس أن ينشروا فى الأرض الجراثيم(٤٠).

وقد كان يتعجب من تزاحم المجاورين فى الأزهر ليقبّلوا يد أستاذهم فى مفتتح الدرس ومنتهاه، وأوضح ما فى هذه العادة من مضار صحية ونفسية من أولئك الذين يمدون أيديهم طويلة إلى الأفواه لينشروا جراثيم الأمراض ويبذروا معها بذور الذلة فى أنفس طيبة ساذجة»(٤١).

لقد كان الشيخ مؤمنًا إيمانًا راسخًا بسنة التطور الذى لا يتعارض مع جوهر الدين، وفهمه فهمًا عقليًا، وقد تعجب مرة من تحسر رجال الآثار لإضاءة جامع المؤيد بالكهرباء، لأنهم يرون من حسن الانسجام أن تشعل جوانبه الفتائل، لكن تيار الزمن لا ينظر إلى أمانى عشاق الآثار.. وتذكر الضجة الدينية التى أصموا بها الآذان يوم أريد جعل الحنفيات فى المساجد مكان الميضات، لقد ذهبت الضجة، وذهبت الميضأة، وألفنا الأسلوب الجديد فى أماكن الطهارة»(٤٢).

ولم يفته انتقاد أسلوب الوعظ فوق المنابر والموضوعات التى يتعرض لها الوعاظ، فيروى على لسان الشيخ حسان الفزارى أنه ألقى خطبة الجمعة وجعل يحدث الناس خلالها فى أوامر الزواج ليبين لهم أن تعدد الزوجات يقلع الحب من أساسه، لأن الحب موحد لا يقبل الشرك، وأنه إذا ذهب الحب فعلى السعادة العفاء، وأضاف أنه لم يكد ينطق بذلك حتى وقف له المأذون والفقهاء وصاحوا هذا هو علم آخر الزمن، لم يبق إلا أن نسمع من فوق منابر الوعظ الدينى الكلام عن النسوان والحب، وماذا جرى من خطب الشيخ البولاقى والشيخ السقا التى تذكرنا بالموت وتحبب إلينا الفقر؟. وفى مناسبة أخرى أبدى الشيخ مصطفى دهشته وتعجبه من فتى نهض يخطب بعد صلاة العيد، وكان يدب دبيب الشيوخ ويتهدج صوته تهدج أصواتهم، فوعظ ما وعظ، ثم ذكر الموت والأموات فسالت

عبرته وأتم خطبة العيد باكيًا. فعلق شيخنا: كذلك نحن نبكى فى بيوت الله ونبكى فى بيوتنا. ويااليت شعرى متى نبسم للحياة وتبسم لنا؟»[٤٣].

وقد استعاذ بالله مما يحدث فى حلقات الذكر، ورآها دخيلة على دين الفطرة، فكتب عن «تلك الهزات المضطربة، وذلك الهدير تفيض به الحناجر، وددت لو أن أولئك المساكين إذا لم يستفيدوا من هذا العبث لأرواحهم جعلوا منه لأجسامهم. فنظموا حركاته على وجه يمرن عضلاتهم العاملة حتى يصير نوعًا من الألعاب الرياضية المفيدة.. إنهم حرصوا على حركات تقليدية تشوه جمال الخلقة الإنسانية ونظامها وتشوش التناسب فى النمو بين أعضاء البدن..»[٤٤].

* * *

أما بالنسبة لموقفه من قضية الخلافة ونظام الحكم فى الإسلام، التى أثارها شقيقه الشيخ على عبد الرازق فى كتابه الخطير «الإسلام وأصول الحكم» فى إبريل ١٩٢٥، والذى حاول فيه أن يثبت أن الخلافة ليست أصلاً من أصول الحكم فى الإسلام، وأنها ليست ضرورية، وقد نتج عن هذا الكتاب أزمة فكرية وسياسية معروفة، حوكم على أثرها الشيخ على أمام هيئة من كبار العلماء، بإدارة المعاهد الدينية، والتى حكمت بإخراجه من زمرة العلماء وفصله من وظيفته فى أغسطس من نفس العام، وكان الكتاب قد ظهر فى وقت كان العلماء فى مصر ينادون بعقد مؤتمر دينى إسلامى لبحث قضية الخلافة والترشيح لها (فى مارس ١٩٢٥) بعد أن ألغاها الكماليون فى تركيا (فى مارس ١٩٢٤)، بل وتشكل فى مصر مؤتمر دائم هو «المؤتمر الإسلامى العام للخلافة» وكان يصدر مجلة عنوانها "الخلافة الإسلامية" فماذا كان موقف الشيخ مصطفى عبد الرازق من محاكمة شقيقه، ومن مسألة الخلافة ومؤتمرها؟

فيما يتعلق بمسألة محاكمة شقيقه نلاحظ أن مصطفى لم يكتب عنها بشكل مباشر وصريح مدافعًا عن موقف أخيه، بل لجأ كعادته إلى سلاح السخرية المرة، يبث أشجانه وآراءه، فنشر فى صحيفة السياسة بعضًا من مذكراته[٤٥] روى خلالها أن صديقًا اقترح عليه أن يذهبا من باريس إلى لندن بالطائرة، فأجابه

مصطفى متهكمًا: وهل يناسب وصف العالمية أن نرقى بطائرة إلى الأفق الأعلى فنزاحم الملائكة بالمناكب عند أبواب السماء أو نتشبه بالجن فى استراق السمع؟ فقال صديقه: نستفتى شيخ الجامع الأزهر أو مفتى مصر، فيعلق مصطفى بأنهما وإخوانهما لم يردوا تحية الإسلام فى إدارة المعاهد الدينية وقالوا لمن ألقى إليهم السلام لست مؤمنًا، فهل تطمع فى الرد على استفسار يرسل لحضرات أصحاب الفضيلة من باريس؟[٤٦].

وأضاف مصطفى «ثم قضينا أن نذهب إلى لندن بطريق البر والبحر، وتركنا سبيل الجو لمن لا يدخلون فى حكم المادة (١٠١) من القانون نمرة ١٠ للأزهر والمعاهدة الدينية..»[٤٧].

بل أكثر من هذا اعتبر مصطفى أن المحاكمة فتنة ستهدم حرية مصر وتقدمها.. فها هو يكتب وهو فى طريق عودته إلى مصر «دنونا من مصر تفيض جوانحنا رحمة وحنينًا، كما تدنو من عزيز موجع، تسمع أنينه مكظومًا، وترى قروحه تمج دمًا، وهل تبتلى أمة فى بداية عهدها بالحرية والتقدم بشر من فتن تريد أن تهدم كل حرية فيها وكل تقدم[٤٨]؟» لقد كان واضحًا أن شيخنا ينتصر لما يعتقده حرية فى الرأى والاجتهاد، ويرفض مبدأ التكفير والرمى بالإلحاد من جانب هيئة كبار العلماء.

لقد كتب مصطفى فى مناسبة أخرى «رضينا بدين هيئة كبار العلماء، الذى إن جمد مرة استرخى مرارًا، ثم هو لم يبلغ بعد أن يقذف رصاصًا ويرمى أحجارًا... سنترك هيئة كبار العلماء تبحث فى أنحاء الأرض عن مسلم تكفره... إلخ»[٤٩].

أما بالنسبة لمسألة الخلافة ومؤتمرها، فكان مفتى مصر حينئذ وهو الشيخ محمد بخيت يضع كتابًا فى الرد على كتاب على عبد الرازق، يتناول فيه إثبات وجود الخلافة كأساس لنظام الحكم فى الإسلام، فى الوقت الذى كان مؤتمر الخلافة «الدائم» يواصل عقد جلساته بمصر، بهدف مبايعة أحد الملوك والأمراء لخلافة المسلمين، وقد أثارت هذه التطورات مصطفى عبد الرازق فكتب بسخريته المعهودة يذكر أن «جو مصر مكهرب بالمؤتمرات.. فهذا هو مؤتمر

الخلافة يريد أن يبايع إمامًا ينوب عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى إقامة الدين وسياسة الدنيا به.. وأن كتاب الشيخ بخيت المنتظر سوف يحل الله به الإشكال ويكفى المؤمنين القتال.. ومن أجدر من الشيخ يرفع عن الخلافة كل أسباب الخلاف ويوفق بين جميع الأصناف..»(٥٠)، وعندما نشرت الصحف أن رجلاً حاول الانتحار لأنه لم يجد عملاً، كتب مصطفى بأنه "كانت للرجل مندوحة للخلاص من هم الفقر والعطلة، أن يأوى إلى مؤتمر الخلافة، فإن فيه للعاطلين مرتعاً يدر السمن والعسل ولا يجشم عناء فيما يتطلب من عمل»(٥١).

وعندما أصدر علماء «الرياسة الإسلامية العليا» كتابًا منشورًا بشأن لبس البرنيطة متضمنًا نصوص المذاهب الأربعة فى تكفير من لبس القبعة، علق مصطفى عبد الرازق على ذلك بقوله "إننا نذكر بكل خشوع لمقام الرياسة الإسلامية العليا أنه منذ نيف وعشرين سنة أفتت رياسة إسلامية عُليا فى مصر بجواز لبس البرنيطة، وألف أساطين علماء الأزهر لذلك العهد كتابًا معروفًا يتضمن نصوص المذاهب الأربعة فى حل لبس القبعة(٥٢).

ومما أثار دهشة مصطفى أكثر من فتوى هؤلاء العلماء «قد ألحت فى الكلام على مسألة تغيير الشيب إلحاحًا، حتى لتوهم قارئها أن الغرض الأهم هو إيجاب صبغ الشعر الأبيض، لا تحريم البرنيطة، فقررت الفتوى أن التشبه بالكفار كفر وأن اليهود لا يصبغون شيبهم، وأن من يغير شيبه متشبه باليهود، فاستقام لهم أن من لا يغير شيبه فهو كافر، وقد تحدث الناس أن بعض الشركات الغنية التى تتجر بصبغات الشعور تحتال لترويج بضاعتها بحيل مختلفة، وتحدثوا أن شركة لبن (نسلة) أذاعت منذ سنين فى أقطار الأرض فتوى صدرت لها خصيصاً من الرياسة الدينية العليا للترغيب فى تجارتها.. فإذا صح أن بين هذه الأحاديث صلة وأنها ترجع إلى أصل غير مكذوب، فطوبى لصبغة الشعر ويا أسفى على الشيب فى الإسلام!.»(٥٣).

لم يكتب مصطفى فى قضية الخلافة ونظام الحكم فى الإسلام بشكل مباشر، وكانت قضية الساعة منذ عام ١٩٢٤ بعد أن ألغاها الكماليون، وانعقدت

مؤتمراتها، وألف شقيقه كتابه الشهير عنها، وكانت حديث المثقفين والسياسيين والرأى العام جميعًا لكننا نستطيع أن نستشف رأيه بشأنها من تعليق هنا أو هناك، فقد استرعى نظره أن شيخ الجامع الأزهر - وكان حينئذ الشيخ محمد أبو الفضل - وكذلك المفتى قد أعلنا فى المسلمين أنهما "الرياسة الدينية العليا" فكتب: كنا نعرف أن الرياسة الدينية العليا نصف الخلافة، إذ الخلافة هى الرياسة العُليا فى الدين والدنيا، وكنا نعرف أن الخلافة وحدة غير مجزأة، سينعقد لها مؤتمر ينظر فيمن يكون الخليفة للمسلمين يتولى زعامة الدنيا والدين، فهل جد للسادة العلماء مطمع فى اقتسام الأسلاب، جعلهم يرون أن تكون الخلافة جزءين، فاستأثروا لأنفسهم بالرياسة الدينية العليا وتركوا للمؤتمر خلافة الدنيا؟»(٥٤).

وعندما التقت صحفية بريطانية هى (الليدى دراموند هاى) بفضيلة المفتى، واعتقدت أنه فى مصر «أشبة ببابا محلى تسير كلمته ورغباته على المؤمنين وقراراته لا تقبل مناقشة» علق الشيخ مصطفى عبد الرازق على ذلك بقوله «وليس المفتى الأكبر يا سيدتى شبيهًا بساكن الفاتيكان.. فهو موظف تابع لميزانية وزارة الحقانية، يتقاضى كسائر الموظفين راتبًا شهريًا، وكل عمله أن يجيب من يسأله عن حكم فقهى كما يجيب أى فقيه يسأل عن حكم يعرفه» وعلى ذلك رأى مصطفى ألا ضرورة لهذه الوظيفة، بل إن إلغاءها يوفر لميزانية الدولة مالاً من غير أن يضيع على الأمة نفعاً فى دينها أو دنياها، ويمكن أن يستخدم ذلك الوفر فى إنشاء ما تقتضى حالة المحكمة العليا الشرعية إنشاءه «من الوظائف ضماناً لسير العدل من غير إبطاء»(٥٥).

لعلنا لا نجانب الصواب إذا استنتجنا مما سبق أن مصطفى لم يكن يؤمن بضرورة الخلافة كأساس لنظام الحكم فى الإسلام، وأن الدعوة إليها إنما هى لأسباب سياسية أكثر منها دينية، ومن هنا كانت سخريته المريرة من مؤتمرها، ومن ثم كان يعتقد أن يترك الحكم فى الأمور الدنيوية للحكام والأمراء، بينما

يختص العلماء بشئون الدين والفتوى فيها، وأنهم بذلك لا يشكلون «إكليروسا» دينيًا وأن رئاستهم لا تمثل فى سلطتها وقراراتها سلطة بابوية على كل حال.

* * *

لقد كان فهم مصطفى عبد الرازق للدين فهمًا عقلانيًا متطورًا ومستنيرًا ينكر الجمود العقلى والجمود الدينى على حد سواء «فشر ما حارب به الجمود أهل النظر فى الفكر المستقل فى جميع الأزمان هو الرمى بالإلحاد. فالدين ليس غلاً للقلوب ولا قيدًا للأفكار.. وإن من أسمى فضائل الدين الجدال بالحكمة والموعظة الحسنة والبعد عن التكفير والتفسيق ورفث القول، خصوصاً فى مقام البحث والنظر.

وقد كتب: إن الذين يخدمون الحرية الفكرية هم خدَّام الحق وأنصاره، فإن العقول المستعبدة لا تسمو إلى جلال الحقيقة وجمالها.. وإن الذين يفكون العقول من أغلالها إنما يمهدون لها السبيل إلى الحق، والدين من أسمى الحقائق فى هذا الوجود.»[٥٦].

لم يكن مصطفى عبد الرازق يرى تعارضًا بين الدين والعقل، فالكل مهم دوره فى إسعاد الإنسان، وكان ضد الفهم الشكلى للدين وما يثيره من جدل عقيم وخلاف بين العلماء نتيجة عدم التماسهم للمعنى والجوهر، مما يسمى فكرهم بالسطحية والسذاجة فينسجون الأساطير والخرافات حول الدين ويجعلونها أصلاً من أصوله، مما يضر بحقائق الدين ضررًا بليغًا. إن شيخنا لا يعزل الدين عن التطور الاجتماعى، حيث إن له رسالته فى تنظيم حياة المجتمع ومسايرة تقدمه، مما يبعده عن التخلف، وكان يرى أن الدين ترك للناس أمر تنظيم حياتهم وفقاً لتعاليمه الأساسية، كما ترك باب الاجتهاد مفتوحًا أمام أصحاب النظر والرأى، إن الإسلام فى رأيه «جمع بين الدين والشريعة أما الدين فقد استوفاه الله كله فى كتابه الكريم، ولم يكل الناس إلى عقولهم فى شىء منه، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر الاجتهادى تفاصيلها»[٥٧]. كما كان الشيخ

معنيًا بإقامة التعليم الدينى على أسس علمية متطورة، وفى أثناء مشيخته للأزهر حقق بعض ما يريد من ذلك الإصلاح، فأدخل اللغات الأجنبية إلى الأزهر، وأرسل البعثات الأزهرية إلى الخارج، وكانت أعماله تحقيقًا لرسالة أستاذه الإمام محمد عبده[٥٨].

هوامش الفصل الثانى

(٢٢) يحيى حقى: فجر القصة المصرية، المؤلفات الكاملة (٢)، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٥، ص ١٨٠ وله دراسة قيمة عن مذكرات الشيخ الفزارى لمصطفى عبد الرازق حيث يعتبرها لوحات قلمية ساهمت فى بذر بذور القصة القصيرة فى مصر، راجع ص ١٨١ .

(٢٣) الجريدة فى ٢ مايو نقلاً عن (مذكرات الشيخ حسان الفزارى) وهو الاسم الذى استعاره.

(٢٤) من آثار مصطفى عبد الرازق، ص ١٩٩، ص ٢٠٢ .

(٢٥) المصدر السابق، ص ١٨٨ .

(٢٦) المصدر السابق، ص ٤٠٠ . ٤٠١ .

(٢٧) من خطبة مصطفى عبد الرازق فى حفل الرابطة الشرقية، السياسة ٢٠ مارس ١٩٢٥ .

(٢٨) السياسة ٢٦ أغسطس ١٩٢٤ .

(٢٩) من آثار مصطفى، ص ٣٢٠، ٤٣٦ .

(٣٠) السياسة ١١ أكتوبر ١٩٢٥ .

(٣١) السياسة ٧، ١٤ فبراير، ٧ مارس ١٩٢٥ .

(٣٢) من آثار مصطفى عبد الرازق، ص ٤٢٢، ٤٣٦ . ٤٣٧ .

(٣٣) السفور فى ١٦ يوليو ١٩١٥ .

(٣٤) من آثار مصطفى، ص ٩١ _ ٩٣ .

(٣٥) السفور فى ٧ يناير ١٩١٦ .

(٣٦) من آثار مصطفى، ص ٨٢-٨٣، ٩٤، ١١١- ١١٣ .

(٣٧) السفور فى ١٠ ديسمبر ١٩١٥ .

(٣٨) السفور فى ٢٣ يونيو ١٩١٦ .

(٣٩) نفس المصدر.

(٤٠) من آثار مصطفى ص ٤٠٣، ٤٠٨- ٤٠٩ .

(٤١) المصدر السابق، ص ١١٣ .

(٤٢) السياسة فى ٧ فبراير ١٩٢٦ .

(٤٣) من آثار مصطفى، ص ١٠٣، ٢٥٩ .

(٤٤) المصدر السابق ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٤٥) السياسة ٢٨ سبتمبر ١٩٢٥، من آثار مصطفى ص ٤٣٠ .

(٤٦) وكان الشيخ على قد ألقى السلام على أعضاء هيئة كبار العلماء عندما دخل قاعة المحاكمة فلم يجبه أحد منهم، انظر وصف جلسة المحاكمة بنصه فى «السياسة»١٣ أغسطس ١٩٢٥ .

(٤٧) وتنص مادة هذا القانون الصادر فى ١٣ مايو عام ١٩١١ على أنه إذا وقع من أحد العلماء . أياً كانت وظيفته أو مهنته ـ ما لا يناسب وصف العالمية، يحكم عليه شيخ الأزهر بإجماع تسعة عشر عالماً من هيئة كبار العلماء.. بإخراجه من زمرة العلماء، ولا يقبل الطعن فى هذا الحكم ويترتب عليه محو اسم المحكوم عليه من سجلات الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى وطرده من وظيفته وقطع مرتباته فى أية جهة كانت وعدم أهليته للقيام بأية وظيفة عمومية دينية كانت أو غير دينية "راجع كتاب أحمد محمد حسين وآخر (جمع وترتيب): مجموعة القوانين واللوائح المعمول بها فى مصر، الجزء الأول، القاهرة يونيو ١٩٢٦، ص ٥٧ .

(٤٨) من آثار مصطفى ص ٤٤٩ .

(٤٩) المصدر السابق، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ .

(٥٠) المصدر السابق، ص ٤٤٦ .

(٥١) المصدر السابق ص ٤٦٧ .

(٥٢) يقصد الفتوى الترنسفالية، التى أفتى فيها الإمام محمد عبده عام ١٩٠٤ م بجواز لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج عن الإسلام والدخول فى دين غيره فلا يعد مكفراً، وإذا كان اللبس لحاجة من حجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أوتيسير مصلحة لم يكره كذلك "راجع محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج ١، ص ٦٧٦ وما بعدها .

(٥٣) من آثار مصطفى ص ٤٧٤ _ ٤٧٦، السياسة ٣٠ مارس ١٩٢٦ .

(٥٤) نفس المصدر.

(٥٥) المصدر السابق، ص ٤٨٧ _ ٤٨٨، السياسة ٧ يوليو ١٩٢٦ .

(٥٦) المصدر السابق، ص ٥٠١ _ ٥٠٢، السياسة ٢٠ مارس ١٩٢٧ .

(٥٧) مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٩، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٥٨) على عبد الفتاح: المفكر الإسلامى المعاصر مصطفى عبد الرازق، دار المعارف بمصر ١٩٨٥، ص ٧٧ .

الفصل الثالث
آثاره فى الفلسفة الإسلامية

ثمة جانب مهم فى فكر ونشاط الشيخ مصطفى عبد الرازق يقتضينا أن نفرد له فصلة خاصة من هذه الدراسة، وهذا الجانب يتمثل فى إسهاماته فى مجال تدريس ودراسة الفلسفة الإسلامية، وإذا كان قد حظى بدراسة المتخصصين، فإننا لا نرى بأساً من الإلمام به على ضوء دراستنا لفكر الشيخ وآرائه، وفى إطار التأريخ لأحد جوانب الفكر المصرى الحديث. لقد شغل هذا الجانب حيزًا كبيرًا فى فكر مصطفى واهتماماته، وكانت إسهاماته فيه رائدة بالنسبة لعصره. بل لعله تفرد بهذا المجال من تلاميذ الإمام محمد عبده، وربما كان لذلك صلة وثيقة باهتمام مصطفى بالجانب العقلى فى النهضة التى أنشأها الإمام، والتى يرى أحد نقاده[٥٩] أنه اهتم به أكثر من عنايته بالجانب الدينى، بينما اهتم رشيد رضا وجماعة المنار بالإصلاح الدينى، وأن هذا الاهتمام بالجانب العقلى الذى أظهره مصطفى هو الذى ربطه بالمحدثين، الذين جعلوا غرضهم الأول حرية الفكر، واستقلال الرأى فى البحث العلمى.

سافر مصطفى إلى فرنسا لدراسة الفلسفة الإسلامية، بعد أن نال عالمية الأزهر، وشرع، كما رأينا، يعد رسالته عن الإمام الشافعى، وإن لم يقدر له إتمامها ومناقشتها، وكان مصطفى على شغف شديد بدراسة الشافعى، لأنه كان

يذهب مذهبه فى الفقه، ويذكر طه حسين أن ذلك قد أثر فى حياته العقلية وفى نهجه الفلسفى تأثيرًا شديدًا، فدراسته للشافعى ألقت فى روعه رأيًا خصبًا، فقد رأى أن الشافعى يفلسف فى أصول الفقه وما يتصل به من المشكلات المختلفة فى الدين واللغة واستنباط الأحكام من النصوص، فارتقى برأيه هذا إلى أن من سبق الشافعى من المفكرين المسلمين الذين لم يجادلوا فى أصول الفقه وحدها، بل جادلوا فى مسائل الدين أيضًا قبل أن يعرفوا الفلسفة اليونانية، بل قبل أن يحسنوا العلم باللاهوت عند المسيحيين واليهود. ومعنى ذلك أن المسلمين قد أنشأوا فلسفتهم الأولى من عند أنفسهم، وكانت فلسفة يسيرة سمحة كالإسلام نفسه، ثم لقيت الفلسفة اليونانية بعد ذلك فأدركها ما فى هذه الفلسفة من العسر والتعقيد.. لقد استكشف مصطفى بذلك مذهبًا جديدًا فى الفلسفة الإسلامية له خطره العظيم[٦٠] وقد نشر فيما بعد نتائج دراسته عن الإمام الشافعى فى كتاب يحمل نفس الاسم عام ١٩٤٥، كما ضمن بعضها فى كتابه الشهير « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية" حيث عرض لمذهبه وأفكاره الفقهية واعتبره أول من وضع مصنفًا فى العلوم الدينية على منهج علمى، كما اعتبره واضع علم الأصول[٦١].

لقد انشغل شيخنا بالفلسفة وعلاقتها بالدين منذ انفتح وعيه على روافد الثقافة الحديثة؛ فعندما قدم عرضًا نقديًا ممتازًا لكتاب (الواجب) لجيل سيمون (الذى ترجمه طه حسين ومحمد رمضان) أثنى مصطفى على المترجمين رغبتهما فى أن يزيلا ما علق بأوهام الناس من سوء الظن بالفلسفة وأن يجعلاها صناعة عملية تشترك كلها فى تناول مباحثها والانتفاع بها؛ وأنه - أى مصطفى - لم يكن من رأيهما فى القول بأن حق الفلسفة أن تتخذ نصيرًا للدين ووسيلة إلى تأييده؛ فإن ذلك ضار بالدين والفلسفة جميعًا، أما ضرره بالدين فلأنه يعرض عقائده؛ وهى عواطف قدسية تتأثر بها النفس؛ كما تتأثر بلهجة الجدال لمناقشات العقل ومناقضاته. أما ضرره بالفلسفة فلأنه يحدد لمقدماتها نتائج تقليدية ويجعل بحثها عن الحقائق موجهًا إلى تأييد الدين فتأخذ شكلاً مقدسًا لا يتناسب مع

حرية البحث والنقد، ويرى مصطفى أن أقصى أمانى الدين والفلسفة أن يتعاونا على إسعاد الإنسان؛ لا أن يتلاقيا فى ميدان واحد وجهًا لوجه.. فللعقول حريتها فى الفهم وللقلوب حريتها فى الإيمان وما كانت الفلسفة لتعادى الدين؛ ولكنها أيضاً لا تخدمه(٦٢).

ورغم اختلاف نظرة مصطفى عن نظرة مؤلف الكتاب بهذا الشأن إلا أنه بعقليته المتفتحة يرى أن حركتنا العلمية ينبغى أن يتسع لها المجال فتتناول جميع المذاهب الفلسفية بالدرس والمقارنة؛ حتى إذا سلكت منها منهجًا سلكته عن بصيرة لا يضيق بها اختيار(٦٣).

وفى كتابه «فيلسوف العرب والمعلم الثانى» الذى ضمنه دراسته عن الكندى الذى نعته بفيلسوف العرب؛ كما ضمنه دراسته عن الفارابى؛ الذى لقب بالمعلم الثانى، على اعتبار أن أرسطو هو المعلم الأول، لم يخصص الكتاب لدراستهما فقط وإنما خصص فصولاً أخرى لدراسة المتنبى الشاعر الحكيم، ودراسة بطليموس العرب، عالم الرياضيات والفلك ابن الهيثم، فضلاً عن دراسته لآراء شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومن الملاحظ أن مصطفى عبد الرازق وهو يعرض أفكار هؤلاء الفلاسفة لم يعزلهم عن بيئاتهم السياسية والاجتماعية، وإنما برهن على أنهم لم يعيشوا فى أبراج عاجية منعزلة عن تطورات عصرهم، فهو عندما يتحدث عن حكمة المتنبى فإنه يربطها بآراء الفارابى وفلسفته، بل يرى أن شعر المتنبى كان من أسباب عناية الكُتَّاب والشعراء بالدراسات الفلسفية، وعندما كتب عن ابن تيمية عرض لتقييمه لمنطق اليونان وفلسفتهم، ورأى أن كتبه مملوءة بالرد على مذاهبهم، من جهة مخالفتها للدين وللعقل، بل إن مصطفى يبين لنا أن العلوم الفلسفية إذا كان لها أثرها فى تفكير شيخ الإسلام ابن تيمية، فإن تفكيره أحياناً لا يستوفى فى التمحيص الفلسفى(٦٤).

لقد لاحظ مصطفى عبد الرازق بحق أن التوحيد والتصوف بابان من أبواب الحياة العقلية فى الإسلام، ولهما صلة بالبحث الفلسفى الخالص. وقد أخذت

المدارس الكلامية والصوفية عن الفلسفة ما أخذت، وذهب إلى أبعد من ذلك ورأى أن علم أصول الفقه ضرب من مناهج البحث فى التشريع الإسلامى، وقد أثرت فى تكوينه عوامل مختلفة منها منطق أرسطو خاصة والفلسفة عامة، فبدت صورة الحياة العقلية فى الإسلام على يديه جلية واضحة، واتسع فيها مجال البحث والدرس، ففتح بهذا أبوابًا فسيحة كان من ثمارها تلك الدراسات المتصلة فى الكلام والتصوف والفلسفة(٦٥).

لقد أراد مصطفى أن يؤرخ لنشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، وقد اقتضى منه ذلك أولاً أن يفند كتابات المستشرقين بهذا الخصوص، وأن يدحضها، قبل أن يقدم لنا نظريته حول نشأة هذا الفكر ويستكشف _ على حد تعبيره _ جراثيمه الأولى. فعرض مصطفى لكتابات تنمان وكوزان ورينان على وجه الخصوص، والتى تنكر أصالة الفكر الفلسفى فى الإسلام، ورأى أنها مجرد ترديد وشرح لفلسفة أرسطو وتطبيق لمذهبه على قواعد دينهم تطبيقاً أعمى، وكانوا يعتقدون - خطأ - بأن القرآن الكريم إنما يعوق النظر الحر، ويتحدثون عن سيطرة حزب أهل السنة، ويرونه متمسكاً بحرفية النصوص، بل أكثر من هذا أنكروا وجود فلسفة عند الجنس السامى، الذى منه العرب، واعتبروا الفلسفة عند الساميين مجرد اقتباس وتقليد.

وقد رد مصطفى عبد الرازق على هذه الآراء وبيَّن ما فيها من أخطاء علمية ومنهجية تستند إلى التعصب الجنسى والدينى، فضلاً عما فيها من اضطراب، وأثبت أن العلم الحديث قد أثبت فساد تفوق الأجناس.. واعتبرها نوعًا من الشطط، لا يتفق مع العقلية العلمية التى يدعيها الغرب. وكان منطق مصطفى هادئًا وعلميًا رصينًا حين أضاف "إن الناظر فيما بذله الغربيون من جهود فى دراسة الفلسفة الإسلامية وتاريخها لا يسعه إلا الإعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم، وإن كنا قد ألمعنا إلى نزوات من الضعف الإنسانى تشوب أحياناً جهودهم فى خدمة العلم، فإننا نرجو أن يكون فى تيقظ عواطف الخير فى البشر وانسياقها إلى دعوة السلم العام والنزاهة الخالصة

والإنصاف والتسامح مدعاة للتعاون بين الناس جميعًا على خدمة العلم باعتباره نوراً لا ينبغي أن يخالط صفاءه كدر»[٦٦].

انتقل مصطفى بعد ذلك لاسترداد حقائق التاريخ، باحثاً عن أسس وأصول التفكير الفلسفى عند المسلمين ليبلور نظريته، فجعل يستكشف الجراثيم الأولى للنظر العقلى فى الإسلام، فى سلامتها وصفائها، ثم ساير خطاها فى أدوارها المختلفة قبل أن تدخل فى نطاق البحث العلمى، بعد أن صارت تفكيرًا فلسفيًا، فدرس الفكر العربى واتجاهاته حين ظهر الإسلام، وعرض للديانات التى كانت سائدة فى العرب حال ظهوره، حين كان منهم يهود ونصارى وصابئة ومجوس ومشركون، وشرح مصطفى هذه الديانات والمذاهب وعلق عليها بقوله: «كل ذلك يدل على أن العرب عند ظهور الإسلام كانوا يتشبثون بأنواع من النظر العقلى يشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلمية، لاتصالها بما وراء الطبيعة من الألوهية وقدم العالم أو حدوثه، والأرواح والملائكة والجن والبعث ونحو ذلك»[٦٧].

ثم انتقل مصطفى إلى دراسة أحوال العرب بعد الإسلام، مؤكدًا أن الإسلام دين وشريعة "أما الدين فقد استوفاه الله فى كتابه الكريم ولم يكل الناس إلى عقولهم فى شىء منه، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها، ثم ترك للنظر الاجتهادى تفصيلها "لذا فإن القرآن لم يشجع المسلمين على الجدل فى الأمور الاعتقادية إلا عند الحاجة، ودعا إلى الأخذ فى هذا الجدل برفق، كما أن القرآن قد ذكر الحكمة وأثنى عليها وشجع على نموها، واعتبر مصطفى أن الحكمة هنا هى العلم النافع والفقه فى شئون الحياة بتعرف الحق فيها وإمضائه، ذلك أن القرآن قد شجع على الحكمة العملية المتصلة بحياة الإنسان، ولقد كان لهذا التوجيه القرآنى أثره العظيم فى توجيه النظر العقلى عند المسلمين فى عهدهم الأول، وتوقف أهل السلف عن الجدل فى العقائد كمباحث القدر والاستطاعة وغيرها[٦٨].

وخلص مصطفى من ذلك كله إلى أن النظر العقلى فى الإسلام كان من المسائل الشرعية العملية، فقد نشأ فى الإسلام مؤيدًا من الدين، وقد ورد فى

الكتاب والسنة الثناء على الحكمة والحكم والتنويه بفضلهما، فمهد ذلك لانتعاش النظر العقلى فى الشئون العملية.. ووجدت الحاجة إلى هذا النظر فى استنباط الأحكام للوقائع المتجددة التى لم يكن من الممكن أن تحيط بها النصوص الشرعية(٦٩).

وهكذا انتهى مصطفى عبد الرازق إلى أن الاجتهاد بالرأى فى الأحكام الشرعية يمثل بداية النظر العقلى عند المسلمين، وأنه نما وترعرع فى رعاية القرآن وبسبب من الدين، ونشأت فيه المذاهب الفقهية وأينع فى جنباته علم فلسفى هو علم أصول الفقه، ونبت فى تربته التصوف، وذلك من قبل أن تلعب الفلسفة اليونانية دورها فى توجيه النظر العقلى عند المسلمين إلى البت فيما وراء الطبيعة والإلهيَّات، وعلى ذلك فالعقل عند المسلمين يعد أصلاً من أصول التشريع فيما لم ينزل به تنزيل(٧٠).

وقد عرفنا أنه كان يعتبر الإمام الشافعى فيلسوفًا إسلاميًا لأنه حاول أن يجعل أصول الاستنباط الفقهى وقواعده علمًا ممتازًا، وأنه أراد أن يجعل الفقه تطبيقاً لقواعد هذا العلم، بل اعتبر مصطفى أن علم أصول الفقه يصطبغ بفلسفة ليس إلى إنكارها سبيل، وهو يدخل علم الكلام والتصوف فى إطار الفلسفة الإسلامية بمعناها العام، ولم يسبقه _ فيما نعلم _ أحد إلى هذا الرأى(٧١).

ومع ذلك فإن هناك من المؤلفين الإسلاميين من لا يعدون هذين العلمين من العلوم الفلسفية فى حقيقة أمرهما، ويرونهما قريبى الشبه بهذه العلوم، ويرون أن الفلسفة طغت عليهما وصبغتهما بصبغتها.. والذين ردوا الفلسفة الإسلامية إلى اليونان قالوا إن الفلسفة الحقيقية تلتمس فى مذاهب المتكلمين باعتبارها الفلسفة العربية الحقيقية.. أما التصوف فقد استبانت صلته بالفلسفة منذ القرن الثالث الهجرى حين نشأ التصوف النظرى الإشراقى على يدى كل من ذى النون والبسطامى والحلاج، وسرعان ما ظهرت فى التصوف نظريات فلسفية فى الوجود وفى المعرفة، وبدا بوضوح أثر الفلسفة الدخيلة فى صوفية المسلمين(٧٢).

لم يغفل مصطفى عن أثر العوامل الخارجية فى الفلسفة الإسلامية ولم يتجاهلها، وإنما حدد تأثيرها تحديدًا علميًا واضحًا، وحصره فى نطاق نماذج الحضارات وتأثرها ببعضها، ومع إثباته بالقرائن التاريخية والنصوص أن للفلسفة الإسلامية كيانها الخاص، الذى يميزها عن مذهب أرسطو ومفسريه، فإنه أقر أن فى هذه الفلسفة عناصر يونانية وهندية وفارسية «ثم إن فيها ثمرات من عبقرية أهلها، ظهرت فى تأليف نسق فلسفى على مذهب أرسطو، مع ما فى هذا المذهب من نقص، باختيار آراء من مذاهب أخرى، وبالتخريج والابتكار، كما ظهرت أيضاً فى أبحاثهم فى الصلة بين الدين والفلسفة..»[٧٣].

لقد كان مصطفى يرى أن هذه العوامل الأجنبية التى أثرت فى الفكر الإسلامى وتطوره «مهما يكن من شأنها، فإنها عوامل طارئة، صادفته، شىء قائم بنفسه، فاتصلت به ولم تخلقه من عدم، وكان بينهما تمازج أوتدافع، لكنها على كل حال لم تمح جوهره محوًا»[٧٤]. وتلك على كل حال سمة أصيلة فى الفكر الإسلامى، الذى يتفاعل بوعى مع العناصر الحضارية الأخرى، فيستمد منها قدرة على النمو والازدهار ويفيد من الجوانب الإيجابية فيها، محتفظاً بذاتيته وخصوصيته.

لقد نجح مصطفى فى دحض مازعمه المستشرقون، وعلى رأسهم رينان، من أن الفلسفة الإسلامية لم تكن إسلامية ولا عربية بأى معنى جوهرى، كما نجح فى تأكيد المركز الرفيع الذى احتله العقل فى الإسلام، وأثبت ذلك بتحليل علمى لمكانة الرأى فى الفقه الإسلامى، ومع التوسع فى معناه بقدر المستطاع دون تحوير أو تشويه، مستشهدًا فى ذلك بالمفكرين المسلمين منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم، وبالنبى نفسه، الذى استعان بالرأى وسمح لصحابته بأن يتذرعوا به. وكان مصطفى يعالج المصادر التاريخية بدراية كبيرة، ويعتمد مفهوم التطور التاريخى مما يدل على تأثير دراسته الأوروبية فيه، وإن كان هذا التأثير بقى منضبطاً بإحساسه بماهية الإسلام بالفعل وما كان عليه من قبل[٧٥].

لقد نجح شيخنا فى نشر أفكاره وآرائه فى الفلسفة الإسلامية، سواء من خلال كتابته فى الصحف والمجلات أو إلقاء المحاضرات العامة أو التدريس داخل

الجامعة، حتى يذكر عنه أنه عندما كان يدرس فى فرنسا قبيل الحرب العالمية الأولى، أُختير لإلقاء محاضرات عن الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة ليون، خلفاً لأستاذها الذى كان منتدبًا آنذاك للتدريس بالجامعة المصرية[٧٦]. ثم قدر له، كما أشرنا، أن يكون أول أستاذ مصرى مسلم يدرس الفلسفة الإسلامية لأكثر من عشر سنوات بالجامعة المصرية (٢٧ ـ ١٩٣٨)، وأنه عندما استوزر، لم تنقطع صلته بطلابه من دارسى الفلسفة، حتى لقد انتخب رئيساً فخرياً للجمعية الفلسفية المصرية[٧٧].

ولمسألة اشتراكه مع برنار ميشيل فى ترجمة رسالة التوحيد إلى الفرنسية، ثم اشتراكه مع المستشرق ماسينيون فى كتابه دراسة عن «الإسلام والتصوف» لدائرة المعارف الإسلامية، لهذا الاشتراك فى جهد علمى مع المستشرقين الأوروبيين، دلالة على مقدرته ووعيه بالتوفيق بين التراث الإسلامى والحضارة الحديثة، أو على حد تعبير الدكتور بيومى مدكور، دليل على جهده فى «التقريب بين الأزهر والسوربون»[٧٨].

وفوق ما تركه مصطفى عبد الرازق من تراث إصلاحى وفلسفى، ذلك التراث الذى حفل به تلاميذه، ترك مدرسة مرموقة، وكون جيلاً من الباحثين والدارسين عمرت بهم كليات الجامعة المصرية، وكان مصطفى حريصًا على أن يعوِّد تلاميذه، ومنهم من لم يمر بالدرس الأزهرى، على دراسة المتون والنصوص، وفى ذلك ما فيه من صقل وتمرين على استخلاص مدلولاتها الصحيحة، فاستطاع كثيرون منهم أن يكونوا أصحاب أسلوب عربى سليم، بجانب تمكنهم من اللغات الأجنبية[٧٩]. ومنذ أن أعلن دعوته إلى دراسة الفلسفة الإسلامية من مظانها الحقيقية، وتلامذته الأقدمون قد نفروا إلى أهم موضوعاتها فى تؤدة وإتقان، وانطلق كل فى نطاقه يعرض لأصالة الفكر الإسلامى فى ناحية من نواحيه[٨٠].

وهكذا أهلت دراسة مصطفى عبد الرازق، العميقة والواعية، للتراث الإسلامى، فى جوانبه الفقهية والفلسفية بشكل خاص، فضلاً عن اطلاعه على الثقافة الأوروبية الحديثة واستفادته من مناهجها، أهله ذلك كله، إلى جانب فكره

المتفتح، لأن يكون من دعاة التوفيق بين النافع والجيد من تراثنا، واستخراج قيمه الأصيلة، وبين ما يوائم طبيعة المجتمع الإسلامى من ضرورات الحياة العصرية، ومعطيات الحضارة الحديثة. ومن هنا كان مصطفى يخضع القديم والجديد، معاً لإعمال النقد والعقل والمصلحة، فى منهج جلى واضح ورؤية متفتحة، كما دعا إلى اليقظة لمحاولات تشويه تراثنا الفكرى الإسلامى، وإلى ضرورة أن نثق بأنفسنا وبتراثنا الحضارى، ولقد أثبت بمنطق علمى أنه لا يخلو من عناصر الأصالة والابتكار والتجدد، وأن له مكانته فى التراث الفلسفى العالمى، وأن ما علينا إلا أن نعيد اكتشافه، على ضوء المنهج الحديث، وأن ننشر منه ما لم ينشر، وهى دعوة تظل جديرة بالتقدير والاهتمام.

هوامش الفصل الثالث

(٥٩) تشارلز آدامز: الإسلام والتجديد فى مصر، ص ٢٤٦ .

(٦٠) مقدمة طه حسين لكتاب "من آثار مصطفى عبد الرازق".

(٦١) مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص ٢١٧ ـ ٢٣٢ .

(٦٢) من آثار مصطفى، ص ١٢٥ .

(٦٣) نفس المصدر، ص ١٢٦ .

(٦٤) محمد عاطف العراقى: مصطفى عبد الرازق ودوره فى الفكر الفلسفى، مجلة الثقافة مارس ١٩٨٢ ص ٢٣ ـ ٢٤ . وراجع كتاب مصطفى "فيلسوف العرب والمعلم الثانى" دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٥ .

(٦٥) إبراهيم بيومى مدكور: مصطفى عبد الرازق رئيس مدرسة، مقال بكتاب المجلس الأعلى للثقافة "الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق" الصادر بالقاهرة ١٩٨٢، ص ٩ ـ ١٠١ .

(٦٦) مصطفى عبد الرازق: تمهيد، ص ٢٧ .

(٦٧) المصدر السابق، ص ١٠٥ وراجع توفيق الطويل "شيخنا الأكبر أستاذاً للفلسفة الإسلامية" بكتاب المجلس الأعلى للثقافة، ص ١٨ ـ ٢٢ .

(٦٨) على عبد الفتاح: المفكر الإسلامى، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٦٩) مصطفى عبد الرازق: تمهيد، ص ١٢٢ .

(٧٠) توفيق الطويل: شيخنا الأكبر أستاذاً للفلسفة الإسلامية، ص ١٨ ـ ٢٢ من كتاب المجلس الأعلى للثقافة.

(٧١) أبو الوفا التفتازانى: مدرسة مصطفى عبد الرازق ص ٤٩ بكتاب المجلس الأعلى للثقافة.

(٧٢) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص ٢١ ـ ٢٢ .

(٧٣) مصطفى عبد الرازق، تمهيد .. ص ٢٥ .

(٧٤) المصدر السابق، ص ٩٨ .

(٧٥) ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول، بيروت ١٩٦٨، ص ٢٠٠ . ٢٠١ .

(٧٦) ملف خدمته بدار المحفوظات العمومية، رقم ٢٥٧، مسلسل ٥٦٣٤٢، محفظة ٥٤٦٥ / ١٩١/ ١.

(٧٧) يروى محمد مصطفى حلمي أنه وزملاءه كانوا يتلقون محاضرات الفلسفة على يد أستاذ من السوربون هو إميل برييه تعاقب عليهم لالاندوربى وأسرتيه وروجيه وبوابيه، إلا أن طه حسين أبى إلا أن يدرس الفلسفة الإسلامية أستاذ مصرى مسلم فعين لها الشيخ مصطفى عبد الرازق (عن مقال التفتازانى السابق ذكره، ص ٤٠).

(٧٨) إبراهيم بيومى مدكور: مصطفى عبد الرازق رئيس مدرسة، مقال بكتاب المجلس الأعلى للثقافة، ص ١٠ وقد نشرت دار الشعب دراسته مع ماسينيون عام ١٩٧٩ بدائرة المعارف الإسلامية.

(٧٩) إبراهيم بيومى مدكور: مع الأيام، شىء من الذكريات ص ١١٧ . ١١٨ .

(٨٠) على سامى النشار: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، ج ١، ط (٧) دار المعارف بمصر، ص ٢٤ . ويذكر التفتازانى (فى مقاله السابق ص ٥٠) عن مدرسة الشيخ مصطفى أن عثمان أمين اتجه إلى دراسة محمد عبده وأثره فى حياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية، ومحمود الخضيرى وعبد الهادى أبو ريده اللذين اتجها إلى علم الكلام، ومحمد مصطفى حلمى وتوفيق الطويل اللذين اتجها إلى دراسة التصوف وشخصياته، وأحمد فؤاد الأهوانى الذى اتجه إلى دراسة التربية عند المسلمين، وعبد العزيز عزت الذى درس ابن مسكويه وآراءه الأخلاقية، وعلى سامى النشار الذى عنى بدراسة مناهج البحث عند مفكرى الإسلام، وكثير غيرهم.

القسم الثانى
نصوص المذكرات

أولاً: صفحات من سفر الحياة (١٩١٤)
ثانياً: مذكرات مسافر (١٩٢٤-١٩٢٦)
ثالثاً: مذكرات مقيم (١٩٢٦)

أولاً: صفحات من سفر الحياة

١- الشيخ حسان الفزارى يطلب العلم فى أوروبا ويدون خواطره.
٢- رأى الإمام محمد عبده فى تحصيل ملكة البيان، رجل ترتجى بركة دعائه ولا تقبل شهادته.
٣- حفلة ذكر عند شيخ الرواق.
٤- شيخ مزواج مطلاق.
٥- النزاع بين الثقافات المختلفة فى مصر.
٦- حديث مع الشيخ محمد عبده واستقالته من مجلس إدارة الأزهر.
٧- حصة مدرس الخط، البلاغة بين جمال اللفظ وحسن المعانى.
٨- نفس معذَّبة تنشد السلوان.
٩- بين محسوب السيدة وجاره العفريت.
١٠- إنى صائم! إنى صائم!
١١- نجاح فى الامتحان.
١٢- حول تقرير المعتمد البريطانى.
١٣- بين الشيخ محمد عبده والشيخ (م. ش) درس الشيخ (م. ب) فى جامع الحسين.
١٤- درس فى التوحيد مخوف العاقبة.
١٥- العزة والحرية للفلاحين.
١٦- الدفاع عن شرف الوطن.

أولاً: صفحات من سفر الحياة

١(*)

هذا هو عنوان كراسات بخط صديقى المرحوم الشيخ حسان عامر الفزاري(١) دفعها إلىَّ وهو يجود بنفسه، وأوصانى أن أصون سرها سنين ثلاثاً، ثم أنشر منها على الناس قطعاً وضع عليها علامات بخطه، وأتبع ذلك بطبعها جميعاً فى كتاب مستقل.

خليلى المأسوف عليه شاب نشأ فى بيت من البيوت الطيبة بمديرية بنى سويف، بيت محفوظ الحرمة، بالرغم مما أصابه من الفقر بعد الغنى، وقد تعلم فى الأزهر وانتفع فيه بدروس المرحوم الشيخ محمد عبده، ثم دخل مدرسة دار العلوم ونال شهادتها، وكان منذ صباه ممتازاً بذكاء وافر وذوق مصقول وولع بالدرس وشهوة إلى المعرفة، وكانت دائما آماله كبيرة وهمته عالية ونفسه شماء.

كان أحد «باشاواتنا» الكرام يعرف الشيخ حسان ويقدر تفوقه الطبيعى، ويحترم فضله وأدبه، ويرجو لمصر خيرا على يديه.

(*) الجريدة: السبت ٧ جمادى الثانية - ٢ مايو ١٩١٤.

(١) الشيخ حسان شخصية خيالية محضة يلقى الكاتب عليها بعض ظلال شخصيته.

قال له يوماً - وهو حديث عهد بإتمام دراسته فى دار العلوم: «يا شيخ حسان: قد لا تجهل مكانك عندى وعظم رجائى فيك، وإنى لأرى لك أن تقضى فى أوروبا بضع سنين تنضج فيها مواهبك العقلية ويتسع بها المجال بين يدى طموحك العلمى وتفيدك فى إحساسك وإدراكك وتجاربك، وعندى لك ما ينبغى من النفقة حتى تستكمل حظك من البقاء هناك». فتحركت فى نفس الشيخ حسان الرغبة فى الكمال، وتحركت معها حماسة العزة التى يفيض بها شباب أبىّ.

قال الباشا - وهو يروى لى هذا الحديث: عندئذ رأيت فى أسارير الفتى الحساس ملامح ألم تصاحبها بشاشة العرفان للجميل، ثم أجاب بصوت تتتابه هزة يفسرها ما كان يبلل تلك النظرات الذكية الحية من قطرات تكاد تسيل: أشكر للباشا الكريم نخوته وعنايته بخيرى عناية والد بار، وأتلقى ما يعرضه علىَّ بأحسن ما تلقى به مروءة شريفة عالية، كأن سعادتك تتطلع إلى ما فى أعماق صدرى من أمنية يقوم بها نزوع نفسى، ويقعد بها ضيق ذات يدى.

ثم فكرت فى أن أذهب إلى أوروبا ثقة بأن الغرب خطا بالعلم خطوة كبيرة، وأننا أصبحنا عيالاً عليه فى نهضتنا، فلا غنى لنا عما عند القوم من مدنية وعرفان، واشتغلت بقليل من اللغة الفرنسية مع صاحب لى من تلاميذ مدرسة الحقوق استعدادًا لهذا الغرض، ولكن العقدة المالية هى التى تحل من عزيمتى ياسيدى الباشا: إنك عندى بمكانة الوالد حبًا واحترامًا، ولكن فى نفسى أنفة لا أستطيع أن ألينها، فإن شاء الباشا أن يخادعها معى فعل، وما كان ذلك لينقص من قيمة نعمته، بل هو يعليها ويغليها. أرجو أن يأذن لى الباشا فى أن أجعل كل ما ينفقه فى سبيل تعليمى دينا أكتب به صكًا، ثم أؤديه متى فرغت من حياتى المدرسية واتخذت للكسب سبيلا.

وقد كان من لطف الباشا فى كرمه أن طيب عزة الشاب وجعل له ما سأل. كنت أتمنى لو أن الباشا أذن لى فى نشر اسمه حتى يعرف له الناس حقه من شرف الإحساس وكرم النفس، ويشكروه معى ومع صديقى المرحوم الشيخ حسان الذى فاض آخر نفس من أنفاسه يحمل فى تضاعيفه الراجفة اسمه الكريم.

حرَّم عليَّ الباشا أن أبوح باسمه، وسأقف عند رغبته وإن كنت أحسب أن القراء سيفهمون أى رجل فى مصر يمكن أن يكون هكذا لطيف الإحساس عند أريحية الكرم.

جاء الشيخ الفزارى إلى فرنسا عام ١٩٠٩، وأقام فى باريس عاكفًا على الاستفادة من دروس السوربون وحسن المراقبة لكل ما يمر به فى وسطه الجديد يسكن إلى زاوية من شارع سان جاك، ويعيش واصلاً ليله بنهاره فى العمل، حتى لقد كان من يعرفه من الطلاب المصريين اثنان.

فى شهر مارس من عام ١٩١١ أصيب صديقى المرحوم بروماتيزم فى الضلوع، فجئنا له بأحد أصدقائنا من طلاب مدرسة الطب ليداويه، ولم يلمح ذلك الطبيب الشاب بوادر الخطر.

دخلت فى عشية يوم ٢١ مارس إلى حجرة الشيخ فاستقبلنى كعادته بسَّام الثغر، من غير أن يكون فى نظراته المفكرة تهلل سرور، ورأيت بين يديه كراسات دفعها إلىَّ قائلاً:

كتبت فى هذه الأوراق خواطر وملاحظات ووقائع خاصة بحياتى وحوادث عامة، وقد كانت عزيزة عندى تلك الصحف التى تحفظ تذكار مسراتى وأحزانى وخواطر طفولتى وشبابى، وما أظنها خلوًا من فائدة، إنها حقائق لم يلعب بها هوى، وقد اخترت لك منها أجزاء تنشرها بعد ثلاث سنين، لتختبر حكم الرأى العام فيها، ولتسترعى الأنظار إليها، ثم أطبعها فى كتاب، واجعل ما يأتى من ربحها إلى فلان باشا أداء لدينه. وأعطانى ورقة فيها مفصلات ذات الدين.

أخذت من صاحبى ما أعطانى، وحاولت أن أصرفه عن هذا الحديث مخافة أن يهيضه إلى ما به. ولم يقبل الليل حتى استطالت يد الألم إلى القلب، فخرجت نفس الفتى فى زفرة هادئة.

دُفن الشيخ حسان عملاً بوصيته فى مقبرة بيرلاشيز، بين تلك الأزهار الباسمة فيما يفيض حولها من دموع. وفى يوم ٢٢مارس من هذا العام، عام ١٩١٤، ذهبت إلى قبر صديقى العزيز أحمل باقة من الورد وأحييه بمناسبة

مضى العام الثالث من موته، ووقفت ساعة إلى جانب صاحبى أستعيد تذكار الأوقات الحلوة التى كنت أقضيها معه، وأندب زهرة شبابه التى ذبلت عند متهلل الربيع، وهنالك ذكرت ما عهد الشيخ حسان إلى من صحائفه.

وهأنذا أنشر منها على الناس ما أشار بنشره فى سلسلة مقالات، ولا شك عندى فى أن القراء سيعرفون لتلك الصحائف موقعها من دقة الملاحظة ولطف الأسلوب، وسيقبلون عليها إقبالا يضمن لها الرواج الذى يشجعنى على الإسراع بطبعها، تحقيقًا لأمنية صاحبها المرحوم وتخليدًا لاسمه الجدير بالخلود.

باريس

٢

يوم ١٦ ربيع الثانى سنة ١٣١٩ هجريا(*)

قال لنا الشيخ المفتى[(١)] البارحة فى درس دلائل الإعجاز وذكر صناعة لإنشاء وتهاون الأزهريين بها ما يأتى:

«باطل ما يقولون من أن ملكة البيان سهلة التحصيل هينة الخطر وأنهم إن شاءوا لما أعجزهم أن يقولوا فيحسنوا ويكتبوا فيجيدوا. لا وربك، إنهم لأعجز شىء عن أدنى مراتب البلاغة، وإن أدمغتهم لمحشوة بشروح التلخيص وحواشيه وتقريراته، ولكنها خلو من ذوق البيان، بعيدة عن فهم أسرار البلاغة. تلك علالات يخدعون بها أنفساً ضعيفة، فلا تسمعوا لهم، واعلموا أن فن الإنشاء عزيز المنال شريف الفائدة.

قضيت فى تعليم الإنشاء خمسة عشر عامًا، وما أظن أن ملكة كاتب تنضج فى أقل من هذا الزمن مع حسن الاستعداد والأخذ بجد فى تحصيل الوسائل والإكثار من التمرين. اقرءوا كتب الأدب، واحفظوا من مختار الشعر وجيد النثر، وحركوا أفكاركم وخيالاتكم، وهزوا ألسنتكم وأقلامكم. إن أحدكم ليستطيع أن

(*) الجريدة: الخميس ١٢ جمادى الثانية ١٣٢٢ - ٧ مايو ١٩١٤.

(١) يقصد المرحوم الشيخ محمد عبده، الذى كان رشيد رضا يلقبه بالأستاذ الإمام.

يجعل لكل يوم صحيفة يقيد فيها ما يمر به من الخواطر والملاحظات، وما يسترعى نظره من الحوادث، أو يقص فيها ما عمله فى يومه.

ولهذه الطريقة فوائد جمة، لأنها فوق نفعها فى تمرين ملكة الإنشاء، تحمل الإنسان على مراقبة نفسه وتصفية حسابها فى منتهى كل يوم.

هذه الكلمات التى سمعتها من الشيخ المفتى البارحة هى التى تحملنى على أن أسرع منذ الآن فى كتابة صحف يومية أضمنها ما له شأن فى نفسى من حوادث اليوم.

* * *

فرغ من نحو أسبوع ما كان عندى من عسل وجبن، ولم تصلنى الدراهم التى أنتظرها من والدى، فأنا أتبلغ بجرايتى التى أتناولها من وقف أوتوزبير طعامًا من غير آدم. جاشت إلى النفس أول مرة، وحسبت هذا العيش الخشن لا يكفى لقوام بنيتى، ولكننى ذكرت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطوى الحجر على بطنه من الجوع، وأن مثل ابن الخطاب - رضى الله عنه - كان يكتفى فى كثير من حياته، وهو أمير المؤمنين، بخبز أغلظ من خبزى المصنوع من مخبز الرمالى، فذلت نفسى لما وطنها عليه، وردت علىَّ مكروهًا فاستقرت.

وبينما أنا فى حجرتى أصيل اليوم، إذ دخل علىّ الشيخ قاسم، وهو رجل أرتجى بركة دعائه واليمن بوجهه، وإن كنت لا أقبل شهادته[1]، سلم فجلس فقال: جئت لأتعشى معك يا شيخ حسان.

قلت: مرحبًا وأهلاً.

ثم نهضت إلى كتبى، فاخترت منها سفرًا لم يذهب تناول الأيدى رونق جدته، وكان هو كتاب «حاشية الدسوقى على أم البراهين» وذهبت إلى دكان الحاج صالح، فابتعت رغيفًا بمليمين، وطحينة بأربعة، وزيتوناً بأربعة أخر، وقدمت الكتاب رهناً حتى أملك أداء دينى.

---

(١) إشارة إلى مروية عن أبى أيوب «من أصحابى من أرجو بركة دعائه ولا أقبل شهادته». الناشر.

غضب الرجل وقال: هل صرنا خواجات يا شيخ حسان؟ وهل ذهبت الأمانة من دار الإسلام؟ لا حاجة بى إلى رهن، ولست أخاف منك المطل عند القدرة، خذ إليك كتابك!. ودفعنى بلطف.

سرت إلى دارى متأثرًا بمروءة الحاج صالح إلى حد جعلنى أكفكف من دمعى حياء من أن يرانى الناس باكيًا، وتناولت العشاء مع ضيفى الشيخ قاسم الذى انصرف بعد ذلك وهو يدعو لى بالستر.

وأخذت أرتب أمتعة لى، فعثرت فى جيب صدارىٍ لم أكن لبسته من زمن على قرش صاغ، عرفت أن تلك كرامة من الشيخ قاسم، وأسرعت إلى الحاج صالح أروى له الحكاية وأفيه دينه.

باريس. مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر «ع»

٣

٩ من ذى القعدة سنة ١٣١٩ هجريًا(*)

تقام فى بيت شيخ الرواق حفلة ذكر ليلة الجمعة من كل أسبوع يحضرها كثير من المجاورين وبعض العلماء، ولم يكن من عادتى أن أذهب إلى تلك الليالى، لأننى لست كثير التردد على الشيخ، ولكننى أزوره حيناً بعد حين منصرف درس الفقه صبح الخميس، أدخل عليه فى مجلسه العادى قبالة الباب، وبيده سبحته لا تفارق يده، أصافحه وأجلس عن يمينه إلى الدكك المرتفعة المطبقة بجدر المكان، فيصيح: يا أبا يوسف، هات قهوة.

ثم تتحرك شفتاه، وتدور السبحة فى يمينه، حتى إذا انقضت دقائق التفت إلىَّ غير باسم كدأبه، وقال: أوحشتنا.

أقول: الله يحفظكم يا سيدنا الشيخ.

وبعد ساعة ينظر إلى جهتى مرة أخرى قائلاً: أوحشتنا.

- الله يحفظكم يا سيدنا الشيخ.

ويأتى أبو يوسف بالقهوة، فيقطع الشيخ تسبيحه لحظة، ويقول لى:

(*) الجريدة: الأربعاء ١٨ جمادى الثانية ١٣٣٢ - ١٣ مايو ١٩١٤.

تفضل. فأقول: الله يحفظكم يا سيدنا الشيخ.

وبعد أن أشرب فنجان القهوة أنتظر وقتًا يكرر الشيخ تحيته: أوحشتنا، وأكرر أنا: الله يحفظكم يا سيدنا الشيخ. ثم أستأذنه فى الانصراف، فيمد إلى الأستاذ يمينه وسبحته قائلاً لآخر مرة: أوحشتنا. وأجيب مسرعًا إلى الباب:

الله يحفظكم يا سيدنا الشيخ.

قال لى أمس الشيخ جاد: إن الشيخ محمود الصعيدى حضر لزيارة سيدنا الحسين _ رضى الله عنه _ وسينشد هو بنفسه فى حلقة الذكر.

ولما كنت أحب السماع، وكنت أعلم بالتواتر أن ذلك المنشد هو بلبل الحلقات _ كما يسمونه _ فقد أسرعت قبيل العشاء إلى دار الشيخ.

وبعد أن صلينا جماعة انتظمنا عقدًا محور دائرته الحاج على أبو يابس، الذى كان يدير الحلقة، وابتدأنا الطبقة الأولى جلوسًا على هيئة التشهد، نهبط برءوسنا إلى الأرض، موقعة حركاتنا البطيئة المرتبة على صيحاتنا الواضحة البسيطة بهذا الذكر: الله. الله.

وأخذ المنشد يهتف بنغمات متشابهة: مادد. مادد.

ثم وقف مدير الحلقة ووقفنا، وانتقلنا إلى طبقة ثانية نهتز يمنة قائلين: أه أه الله، ونهتز يسرة قائلين أيضاً: أه أه الله. وأخذت النغمات الساذجة التى كان يرددها الشيخ محمود الصعيدى من غير تنويع تؤلف لحنًا موسيقيًا، وجعلنا نستمع أنات ابن الفارض الغرامية موقعة توقيعاً إن فاتته مهارة الصناعة لم يفته جمال الصوت ولا حسن البديهة، وبعد ساعة حمى وطيس الذكر، فأخذنا نهز رءوسنا هزًا سريعًا متواليًا تصاحبه صيحات: الله الل. الله الل.

وعلا صوت المنشد، واشتد، فدوى صريخًا رنانًا غير متمايز النغم، وصرنا من نشوة الذكر وحماسته بحيث ترتج بنا جوانب المكان ارتجاجًا، ولم يعد من نفوسنا المملوءة بحرارة الهزات العنيفة والصرخات العاتية موضع للطرب بصياح الشيخ الصعيدى: منى لمحبك منى. أرضى ما تمنى...

ثم أوقف الحاج على أبو يابس رحى الحلقة ساعة ليستريح الذاكرون، فتسربت من خلال الصفوف مجهودًا مصدوع الرأس آسفاً على ما أضعت من ليلتى، أعوذ بالله أن تكون من دين الفطرة تلك الهزات المضطربة وذلك الهدير تفيض به الحناجر: ولوددت أن أولئك المساكين إذ لم يستفيدوا من هذا العبث لأرواحهم جعلوا منه نفعًا لأجسامهم، فنظموا حركاته على وجه يمرن عضلاتهم العاملة حتى يصير نوعًا من الألعاب الرياضية المفيدة، وحتى يمكن أن يلتمس له من الوجهة الدينية شبهًا بالرمى والوثب على الخيل، وقد ندب إليهما الشارع صلى الله عليه وسلم وكثير من صحبه من بعده.

كلا إنهم حرصوا على حركات تقليدية تشوه جمال الخلقة الإنسانية ونظامها، وتشوش التناسب فى النمو بين أعضاء البدن، وإنك لتعرف المدمنين على تلك الأذكار بعلامات لا تختلف، إذ تغلظ رقابهم وتندلق بطونهم وتربو أسافل ظهورهم...

باريس . مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر «ع»

٤

٢٠ محرم سنة ١٣٢٠(*)

بعد أن تلقيت درس الحساب فى جامع المؤيد على أحمد أفندى عبد البر(١) انصرفت إلى مسكنى لآكل لقمة قبل أن أذهب إلى درس الشيخ المفتى، وبينما أنا فى الكحكيين، غير بعيد من مقام سيدنا الشيخ الدردير ـ رضى الله عنه ـ لمحت شيخنا السيد محمد عبده(٢)... متلفعاً كعادته بردائه، واضعاً دفيته على رأسه، يسير أمامى تتبعه سيدة رابية الجسم.، أسرعت إلى الشيخ وحييته، فالتفت إلى السيدة وقال: قبلى يد الشيخ حسان واسأليه دعوة صالحة، إنه رجل مبارك.

لفقت يمينى فى جبتى وناولتها للسيدة التى انحنت عليها تقبيلاً. وتلك أول مرة تلقت فيها قبلة يمينى، لذلك اعترانى إحساس غريب من منظر تلك الشفاه الجميلة يندى بها ما يحيط بيدى من صوف الجبة، ولم يكن فى السيدة شىء جميل إلا شفتاها تتحدر سفلاها بقليل من الضخامة، وتصعد الأخرى بلطف، فينفرجان عن أسنان كالبرد، لا يخلو من لذة ما كان ينفصل إلى يدى من حر

(*) الجريدة: الأربعاء ٢٥ جمادى الثانية ٢٠ مايو ١٩١٤.

(١) أستاذ الكاتب فى علم الحساب فى جامع المؤيد.

(٢) شخصية حقيقية من أساتذة الكاتب فى النحو وكان عالمًا ذكيًا ورجلاً صالحًا وإن كان مزواجًا مطلاقًا.

النفس مبللاً بالريق، وما كان يتصل بأذني من صفير القبل، ومع ذلك فقد كنت أراه وضعاً مؤلماً غير طبيعي أن تنحنى شفاه امرأة لتقبل يدًا من أيدى الرجال.

انطلقت أدعو للسيدة بأن يفتح الله عليها ويبارك فيها.

ثم قال لى الشيخ: تعال معنا إلى دكان الشيخ سعيد المأذون الشرعى لتحضر طلاقها. وأشار إلى صاحبته. عسى أن تنالها بركة حضورك.

عندئذ اعترتنى دهشة، وقلت: لم تريد أن تفارق زوجتك يا سيدنا الشيخ؟

قالت السيدة: سله يا عمى الشيخ حسان: هل قصرت له فى حق؟

هل كان منى إليه ذنب؟ هذا حجرى وهذا طرفى.

أخذ الشيخ بيدى وقال: هى ولية طيبة، وما أنكرت منها شيئاً منذ صحبتها، وقد قضيت معها ثلاثة أشهر فى غاية الانبساط...

وهنا قاطعته زوجه قائلة: سامع يا عم الشيخ حسان؟

ثم استمر الشيخ قائلاً: غير أنها لم تحمل فى هذه المدة، وما أريد بالزواج إلا تحقيق ما دعا إليه النبى صلى الله عليه وسلم من قوله: «تناكحوا تناسلوا، فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة[1]».

قالت المرأة المسكينة، وهى ترتعد حنقًا وحزنًا: إننا قضينا معاً ثلاثة شهور، كنا فى الشهر الأول منها أكثر عناية بإرضاء الحب فى ذاته من أن نفكر فى صنع أولاد ثم مرض الشيخ شهرًا، ولم يكد يبل حتى أصابت أخاه علة قضى منها نحبه، فشغلنا بمرض أخيه وموته عما يؤاخذنى اليوم به.

صاح الشيخ عند هذه الكلمات مخاطبًا صاحبته: أتظنين أن ثلاثة أشهر لا تكفى لحمل زوجتى مهما كانت الظروف، وما انتظرت امرأة بالحمل عندى أكثر من خمسة عشر يوماً؟

---

(١) فى هامش الأصل كتب بين قوسين «وما أظن ابن عبد الله (ص) يريد أن يباهى الأمم بما يقذفه صلب هذا الشيخ»

هنا لمحت عند متصل الكحكيين بشارع الباطنية الفتاة «زكية» بنت صاحب البيت الذى أسكن فيه، فناديتها لأرجوها أن تحمل إلى الدار ما لا حاجة لى به من الكتب، وكنت محملا كتباً. جاءت متهللة لعوباً مملوءة بمرح الشباب وبهجته، فجعل الشيخ يرنو إليها، ثم قال: ما شاء الله كان. أهى قريبتك يا حسان، تلك الشابة التى عليها سيما الصلاح. وصدق الشيخ فإن الصبية جميلة.

قلت: لا، يا سيدنا الشيخ، إنها بنت ربة البيت الذى فيه حجرتى.

فهمس فى أذنى أن أسألها إن كانت تريده زوجًا.

قلت للفتاة: إن سيدنا الشيخ يخطبك يا زكية، فأنفذت إلى نظرات يخالط حياءها كبر لم تذله روعة الزواج والطلاق، وقالت: وهل يريد شيخك أن يتزوجنى فى الشارع؟ قل له يكلم (ماما)....

كان الشيخ استرق السمع، فلم ينتظر أن أنقل إليه جواب الصبية، بل جعل يهز إليها رأسه ويقول: إن شاء الله، ربنا يتمم بخير.

أخرجت الغيرة وقتئذٍ رفيقة الشيخ من سكونها، فأخذت تقول لزكية:

لا تتزوجى هذا الرجل المطلاق، ولا تجعلى عصمتك أيتها الشابة فى يد لا حرمة عندها للعصم.، إننى أنصحك مجربة، ومن جرب المجرب حلت به الندامة.

استشاط الشيخ غضبًا غيظًا من هذه الكلمات، وصرخ فى حليلته بصوت قوى: إنك لتقولين إفكاً، ولا يصدقك أحد فى أننى مطلاق، والله ما طلقت فى حياتى كلها إلا ثمانى نسوة، ويمكنك أن تسألى الشيخ سعيد المأذون والشيخ المباشر والسيد أحمد الجندى[1] وجميع علماء الأزهر الشريف.

إننى لم أعمل قط مثل ما عمل الشيخ بكر[2] الذى ذهب مرة إلى الصعيد فتزوج من بوش، وكان نزل بها ضيفاً، ثم فى بنى مزار، وتزوج فى أسيوط، وعاد إلى القاهرة بعد أسبوع مطلقاً هذه وهذه وتلك. ثم خفض الشيخ من صوته، وكنا دنونا من محل المأذون الشرعى فى الباطنية.

---

(١) شخصية حقيقية، وكان ملحقًا بوظيفة يقال لها جندى الأزهر.

(٢) شخصية حقيقية.

جلسنا ووقفت السيدة، ودعا المأذون محمد الشامى العرقوسى ليشهد معى على الطلاق، ثم رفع الشيخ يمينه وأشار إلى زوجته وهى تنتحب قائلاً: أنت طالق ثلاثاً لارجعة لك.

وبعد ساعة أتم المأذون كتابة ورقة الطلاق وسلمها للمرأة التى انصرفت تصرخ فى الأستاذ: سيسألك الله عما انتهكت من ضعفى وحرمتى لقوتك وشهوتك، ثم أشار إلى أستاذنا وقال: هلم بنا يا حسان إلى صاحبة بيتك لنكلمها فى بنتها. قلت باسمًا: أكرمك الله يا سيدنا الشيخ. إننى أشفق عليك أن تلقى الله بعظيمتين فى يوم واحد: طلاق وزواج.

كان الشيخ سعيد المأذون ناول علبة نشوق للشيخ، وكان هذا قبض منها قبضة حشا بها منخريه، حتى إذا سمع مزاحى تهلل بالضحك وجهه وهتفت به خياشيمه وحناجره، فسال غبار من النشوق إلى بلعومه ومجرى نفسه، أخذت أشداقه تنفرج عن غلاصم متهيجة، وهبط لسانه من فمه، وصار زفيره المكتوم فى حلقومه يخرج هديرًا كحشرجة الصدور، وجعل يرفس الأرض برجليه.

أما أنا فليط بى الأرض من الهلع، وأما الشيخ سعيد فيجعل يقرع بقبضته فى أعلا ظهر الشيخ ضربًا وجيعًا، كنت أرى المسكين يتلوى منه غير قادر على تفريج كربه بصيحات الألم، وكان محمد الشامى أحضرنا ذهناً وأصوبنا رأياً: بادر إلى دكانه القريبة منا، وعاد يحمل سطلاً من العرقسوس قبض عليه أستاذنا وعبَّه عباً، حتى إذا استشفه نظر إلينا نظرة المستريح وقال: الحمد لله. والله إنه لعظيم هذا العرقسوس. ثم نظر فى ساعته وكانت الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً، فلبسَ مركوبه وهرول إلى زاوية الشيخ عبد العليم ليتهيأ لصلاة المغرب، وأخذت سمتى إلى الرواق العباسى لأحضر درس الشيخ المفتى.

باريس. مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر ع.

٥

١٥ ربيع الثانى سنة ١٣٢٣ (١)(*)

كتب أحد إخوانى من المجاورين فى المؤيد رسالة يقترح فيها على الناهضين بإنشاء ناد للمدارس العليا أن يجعلوا لعلماء الأزهر وكبار طلابه حق الانتساب فى سلك أعضائه رجاء أن يكون فى مجاورة الأفندية للشيوخ إزالة الجفوة الموجودة بين المنصرين المكونين للطبقة العلمية فى مصر، أعنى طلاب المعاهد الدينية وطلاب المدارس النظامية، إذ ينظر كل فريق إلى صاحبه نظرة سخط لا تغضى عن عيب ولا ترى حسناً.

سمعت من (ع. بك س) أنه كان مع جماعة من أصدقائه فى باريس فأثنى على شيخ طالب هناك. عندئذٍ صاح الباقون من البكوات: إنما هو أزهرى، وسيبقى شيخاً ما عاش، ولو قضى حياته كلها فى أوروبا.

وكنت مرة فى دار الشيخ هـ. فقرظت علم أستاذنا (ر) أفندى، فقال الحاضرون من الشيوخ ـ وكانوا عدداً: هل يستطيع أستاذنا العالم أن يستخرج أوجه البسملة من أبيات الشيخ الأجهورى: إن ينصب الرحمن أو يرتفعا...

(*) الجريدة: الأربعاء ٢ رجب ١٣٣٢ ـ ٢٧ مايو ١٩١٤.
ننشر صحائف الشيخ حسان بالترتيب الذى رسمه بنفسه دون أن يلتزم تسلسلاً زمنيًا.

قلت: إنه خير مؤرخ وجغرافى فى مصر، فضحك زعيم القوم ملء أنفه، وقال: علم لا ينفع وجهل لا يضر.

هكذا يحكم المدرسيون على الأزهريين وينظر الشيوخ إلى أبناء المدارس، وقد أراد صاحبى باقتراحه أن يداوى داء عضالاً يصل شره إلى نهضتنا العلمية نفسها.

لكن غارة شعواء ثار غبارها حول هذا الاقتراح حتى كتب أفندى فى الجرائد يقول ما معناه: إن السماح للأزهريين بدخول نادى المدارس العليا شر لا خير فيه لأن عشرة المجاورين على ما بهم من قلة العناية بالنظافة وعلى ما فى أوساطهم الأولى من الضعف مخوفة العاقبة على شبان المدارس. وقد سألت عن ذلك الكاتب فتبين لى أنه ليس من ذوى الحسب المعروف ولا هو مشهور بين إخوانه بنظافة الثوب. على أن الغرض المقصود من الاقتراح ذهب سدى فى أثناء جدال غير نافع وبقى المتعلمون فى مصر أفندية وشيوخًا.

لو أمكن اعتبار الأزهريين رجال كنيسة إسلامية فوقف دورهم فى الحياة الإجتماعية عند حدود المظاهر الدينية، وأمكن اعتبار المدرسيين علماء الدنيا حتى لا يدخلوا فى الشئون الدينية بيد ولا رجل، لو أمكن هذا، لهان الخطب ولما كان لتنافر هؤلاء إلا أثر طبيعى فى حالة الأمة، ولكن أبناء المدارس يأبون إلا أن يحملوا مع راية العلم الدنيوى لواء الدين ليكونوا زعماء الدنيا والآخرة، وإنك لتجدهم أسرع الناس إلى الرمى بالإلحاد والكفر ومحاربة النزعة العلمية الحرة[1].

أما رجال المعاهد الدينية فهم أيضاً لا يقنعون بأن يكونوا حملة القرآن ورواة السنن بل يريدوا أن يكونوا هم العلماء من غير قيد ولا حد، وكذلك تصدم حركتنا الفكرية الناشئة بهذا التشويش الغريب.

---

(١) رحم الله الشيخ حسان! فالذى كتبه من عشر سنين لايزال غير بعيد عما نحن عليه اليوم. الناشر.

أما أنا فالذى يسترعى نظرى بوجه خاص هو أمر الانقسام الأخلاقى الواضح فى فتياننا من أثر التربية المدرسية والتربية الأزهرية، وأرجو أن يأتى يوم غير بعيد يخلص فيه شبابنا العلمى من حدة الأفندية وضعف الشيوخ ليتزينوا بالشمم والتواضع.

باريس. مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر ع.

٦
٥ ذى القعدة سنة ١٣٢٣(*)

ذهبت إلى الشيخ المفتى أزوره فى دار الإفتاء الجديدة بشارع الدواوين ولم أكن رأيته من يوم أن ترك الأزهر.

دخلت إليه فى تلك القاعة الكبيرة عن يمين الداخل إلى الدور العلوى فوجدت مجلسه حاشدًا بكبار الشيوخ ورؤساء الموظفين فى الأزهر يخيل إلى الناظر إليهم أنهم يفيضون إخلاصًا للرجل وودًا وبينهم كثيرون يعلم الله ويعلم الشيخ عبده نفسه أنهم أشد الناس عداوة له وشماتة فيه، كان الشيخ متشاغلا بأوراق بين يديه يراجعها، فلما لمحنى قام إلىَّ وأحسن تحيتى، وأدنانى منه حتى زدت حياء على ما بى من تهيب طبيعى.

أخذ يسائلنى عن حالى وعما اشتغل به من الدروس، فقلت: أما وقد سألتنى يا فضيلة الأستاذ عن دراستى فإنى قد سئمت دروس الأزهر، ولم أعد أستطيع أن أستمر على الاشتغال بتلك الأبحاث العقيمة، إننى أشعر بأنها تجنى على عقلى وذوقى. قال: يا بنى أنا أعرف ذلك السأم الفعلى وهو يدلنى منك على ما

(*) الجريدة: الأربعاء ٩ رجب ١٣٣٢ ـ ٣ يونية ١٩١٤.

تفرسته من فطرة صالحة، استعد لدخول دار العلوم فإنها على ما فيها من النقص أقل إضعافاً للغرائز القوية وإسئاماً للعقل السليم من الأزهر.

ولما رأى الحاضرون حفاوة الشيخ بى وتقريبه لى جعلوا يتطلعون إلى ويستبقون إلى تحيتى. هذا يقول: الحمد لله على السلامة، رافعاً يده بإشارة السلام مبتسمًا، والآخر يخاطب الأستاذ المفتى هازاً رأسه علامة التأكيد قائلاً: الشيخ حسان رجل طيب. فيزيد الثالث: وهو والله من المخلصين لسيدنا الشيخ. ويصيح الرابع: لقد رأيته بعينى رأسى يبكى يوم قدم الأستاذ استقالته.

عندئذ أخذت أنظر بدهش إلى هؤلاء العلماء الأفاضل الذين لا يعرفنى منهم أحد والذين يتبرعون بتزكيتى عفوًا ولو رآنى أحدهم خارج تلك القاعة لغض بصره عنى استهانة وكبرًا، وكنت أرقب الشيخ المفتى يعطيهم نظره مملوءًا عجبًا وألماً، ثم التفت إلى ناحيتى ومد إلىَّ يمينه قائلاً فى أذنى: انصرف يا بنى. إنى أخاف أن يعديك النفاق وزرنى وقتاً بعد وقت فى منزلى بعين شمس.

صافحت يده وبى شغف أن أقبلها إكرامًا وعرفانًا بفضلها، لولا أن الشيخ يكره أن تعنو له الوجوه.

وبمناسبة الشيخ المفتى قص علينا اليوم فى الدرس الشيخ (م.ر.) قصة تتعلق باستقالته من مجلس إدارة الأزهر قال:

لما حمل حمودة بك عبده أخو الشيخ الاستقالة إلى الأستاذ الشيخ الشربينى فى الأزهر، قال هذا: ماذا جرى حتى يستقيل الشيخ المفتى؟ لقد كنت مغتبطاً بمعونته فيما نهضت له. ألا من سبيل إلى صرفه عن عزمه؟

أجاب الرسول: إن الشيخ مصمم على تنفيذ نيته، وهو على ذلك قد كلفنى أن أخبر فضيلتكم بأنه رهن إشارتكم فى كل ما تندبونه له. تأوه أستاذ الشيوخ وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله! وظهر عليه التأثر.

قال الشيخ (م.ر..)وفى الحقيقة أن الأستاذ الشيخ الشربينى لم ينتبه للسبب الحقيقى لاستقالة المفتى من الأزهر.. الشيخ عبده رأى أن التعريض القاسى

الذى ورد فى خطبة الاحتفال بإلباس الشيخ الشربينى الخلعة يقضى عليه بالاستقالة.

قال الشيخ (ر..). كان المفتى مستمعاً للخطبة منصتاً. أما الشيخ الشربينى فلم يلق بالاً، كنت قريباً منه، تزاحم هتافته بالاستغفار رنات صوت الأمير فى أذنى وكان غاضاً من بصره حتى لقد نبهته عندما نهض الأمير مؤذناً بالانصراف فجعل يعتمد علىَّ بيده مكررًا ذكر الله حتى خرجنا من قصر الإمارة.

باريس. مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر ع.

٧

١٥ إبريل سنة ١٩٠٦(*)

تقع حصة (ع..) أفندى ما بين الساعة ١,٥، ٢,٥ بعد الظهر فيدخل إلينا فى أغلب الأيام متكاسلاً يتثاءب على كرسيه، ويتمطى ثم ترتق فى عينيه سنة فينام حتى يدق الجرس، ويشتغل منا جماعة بالمذاكرة وآخرون بالحديث، ولكن أحدًا لا يفتح كراسة خط ولا ينظر فى مشق.

كنا فى الحصة اليوم ونام الأفندى فاستغرق حتى لقد ارتمى عنقه إلى الوراء واختل توازن جسمه فوق كرسيه فصار يغط شخيرًا يرن صداه بين صيحات ضحكنا العالى، ثم قرع الباب زائر قرعتين بعنف واقتحم غير منتظر إذناً. ذلك هو البيك.

أيقظت الضجة (ع.) أفندى من نومه فجأة، ولم يكن متماسكاً ولا منتظم وضع البدن، وهَمَّ بالنهوض فانبطح على الأرض، فلما أحس بأنه بين يدى الناظر وخاف وبال أمره تصنَّع الإغماء، وأعانه على ما أراد شحوب الذعر ورجفة البغتة.

جعلنا نصب على وجه الراقد كل من يلقانا من قلل وأباريق وأسطال، وكان البيك يتولى ذلك معنا جادًا ونتولاه هازلين ثم حملنا الجثة إلى الشفخانه تتصبب

(*) الجريدة: السبت ١٩ رجب ١٣ يونية ١٩١٤.

عرقًا حارًا وماء باردًا، وهنا أفاق الأفندى من غشيته بين الأثير والنوشادر إفاقة أحسبه لا يجد بعدها نعاساً حتى فى مخدعه.

أخاف أن يغلب على أسلوبى الكتابى نزوع جماعة اللفظيين بحيث يكون بهجة ما أكتبه لفظية أكثر منها معنوية، لا أدرى سببًا خاصًا لعروض هذا الخاطر لى الليلة، ولا تناسب بينه وبين حديث (ع.) أفندى بوجه، ولكنى أراه خاطرًا جديرًا بالعناية.

هذا العيب الكتابى شائع عند قومنا حتى لتجد بين الأذكياء منا من يرى قيمة البلاغة كلها فى اختيار الألفاظ، وكنت أنا فى حداثتى بالرغم منى أجرى فى هذا التيار أنظر إلى ديباجة القول قبل أن أمتحن معانيه، ثم ارتقى ذوقى الإنشائى قليلاً فصرت أشعر أن الجمال اللفظى ليس إلا زينة لحسن المعانى، ودخل فى أمانى العلمية أن أعدل ذوق قومى من هذه الجهة فإن عناية المنشئين منا باللفظ دون المعنى جعلت اسم الكاتب والشاعر منطبقًا على أناس لا رقىَّ فى معلوماتهم ولا أفكارهم ولا خيالهم ولا إحساسهم وهذا ضار بحركتنا الأدبية.

باريس. مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر ع.

٨

١١ أغسطس سنة ١٩٠٦*

خرجت أصيل الأمس إلى الخلوات أطوف فى أنحاء المزارع انتهيت إلى فجوة فى زراعة قصب تشقها قناة معشبة الجوانب يجرى فيها ماء غير آسن. فألقيت عباءتى فوق تلك الحشائش الندية، واستلقيت إليها، وكان معى الجزء الأول من العقد الفريد لابن عبد ربه وبهامشه زهر الآداب للحصرى، جعلت أداول بين الكتابين فى القراءة وأقيد فى أوراق معى ما يسترعى منى عناية خاصة.

أعجبتنى من العقد الفريد هذه الأبيات لحبيب الطائى:

أعاذلتى ما أخشن الليل مركبا وأخشن منه فى الملمات راكبه

أعينى وأهوال الزمان أقاسها فأهواله العظمى تليها رغائبه

ووقف نظرى عند هذه العبارة: "روى أن مالك بن أنس كان يذكر علياً وعثمان وطلحة والزبير[1] فيقول:

والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر". وذكر هذا محمد بن يزيد فى الكامل.

(*) الجريدة: الأربعاء ٢٣ رجب ١٣٣٢ - ١٧ يونية ١٩١٤.

(١) نسى معاوية ولم يكن أقلهم جوعًا إلى الثريد الذى ظفر به وحده (هامش فى الأصل).

وعجبت لما قرأته فى فصل الحلبة والرهان من أن القوم كانت لهم حفلات يحضرها الخليفة ومن يليه من الكبراء والوجهاء.

وأضحكتنى هذه الحكاية فى زهر الآداب: "قال أبو العيناء ذُكرت لبعض القيان فعشقتنى فلما رأتنى استقبحتنى فقلت:

وشـــــاطـرة لـما رأتنى تنكرت وقالت قبيح أحول ماله جسم

فإن تنكرى منى احولالاً فإننى أريب لا عـــــيىّ ولا فـــــدم

فكتبت إلى: «إنا لم نرد أن نوليك ديوان الزمان»

ثم جعلت أغنى أبيات أبى القاسم إسماعيل بن عباد:

وقد أغتدى للصيد غدوة أصيد أعاجل به أيدى الوحوش تقيد

فأدركتها والسيف لمعة بارق ولم يغنها إحضارها وهى تجهد

وقد رعتها إذ كان فودى رائعًا وطرف مشيبى عن عذارى أرمد

وما بلغت حد الثلاثين مدتى وهذا طراز الشيب فيه يمدد

ليس فى جوهر صوتى جمال وليس عندى علم بأصول الصناعة ولكن حناناً طبيعيًا فى بعض ما أهتف به من النفحات يتناسب مع أشعار الحب والأناشيد المحزنة لذلك جعلت أردد هذا البيت الجميل:

يموت الهوى منى إذا مالقيتها ويحيا إذا ما فارقتها فيعود

وبينما أنا مشغول بمحاولة الإجادة فيما أشدو به من متأثر النفس بمعانى الأغانى نفسها إذ أقبلت فتيات يردن الماء فوضعن الجرار عن رءوسهن ثم جلسن إلى جانب يستمعن غنائى، وكنت أراهن وأتكلف الجهل بمكانهن حتى لا ينفرن ولما رأيت أنسهن بصوتى غنيت بيت أبى تمام:

لها منظر قيد النواظر لم يزل يروح ويغدو فى خفارته الحب

ثم ما أنشده الأصمعى:

لاخـيـر فى الحب وقـفًا لاتحـركـه   عـوارض اليـأس أو ينتـابه الطمع
وختمت بهذا البيت:
هذا الشـبـاب أخـو الحـيـاة ومـاله   من لذة حـتى يصـيب غليـلاً

لم يكن يبدو على جاراتى مظهر الفهم، ولكننى كنت ألمح فى أسارير صفراهن علامات التأثر كلما جعلت فى نغماتى شبه أنين غرامى والتقت عيناى بعينها عند منصرفى.

رجعت اليوم إلى مكانى بالأمس فعادت وحدها الآنسة الفتية. شابة فى السابعة عشرة ذات قامة وافرة من غير أن تكون طولاً، نحيفة من غير أن يذهب النحول بحسن التناسب بين ما يعلو ممتلئاً وما يهبط أهيف، من جسم كأنما صب فى قالب، فلست ترى فى خطوطه عوجًا، رشيقة لطيفة ذات وجه يملك القلب بما فيه من طبعة حسن ممتازة عن كل ما عرفت من أشكال الجمال النسائى، فى ثغرها وعيونها آيات الذكاء الفطرى والسذاجة الحلوة والعصبية والإحساس الرقيق.

دنوت إلى الفتاة يدفعنى شعور بأن لى جانبها حظا من سعادتى، ويربكنى الحياء ثم حييتها فردت غير نفور، قلت: وحيدة أنت اليوم؟

أجابت: أننى أحب الوحدة فى كثير من الوقت.

قلت: إن الميل إلى العزلة نزعة النفوس الحزينة وأنت مخلوق أوجده الله ليعطى الأنفس المعذبة السلوان وليكون فى ظلام الحياة نورًا.

تبسمت محدثتى تبسما لطيفاً تهلل به ذلك الوجه النضير كله ثم قالت: إذا كانت الوحدة آية الألم النفسى فما بالك تحبها وأنت منعم تعيش فى عز أبوين كريمين فى سعة من العيش وسعة من الأمل.

قلت: إن من وراء هذا كله مواضع للألم فى قلب غير جامد.

كانت الآنسة تصغى إلى هذه الكلمات بعناية تفهم ما وراء ألفاظها من شعور

غـيـر مصنوع ثم وضـعت يمـينهـا فى يدى. ولبـثنا سـاعـة سكوتاً نتـبـادل نظرات ناطقة. سمعنا ساعتئذ . حفيف أوراق القصب تتحسـر عن قادم فانتبهنا من تلك السكرة الحلوة لحب نشرب اليوم كأسه الأولى.

باريس . مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر .ع.

٩

٢ رجب سنة ١٣١٣ هجريًا(*)

خبرني زميلي الشيخ (م.ع.ال) أن الأستاذ الشيخ (س) كان قبل أن تفتح في وجهه سبل المال محسوباً على السيدة زينب - رضي الله عنها - وشهد من مناقب بنت النبي - عليه السلام - عجائب لا تحصى.

دخل مرة إلى مقامها وهو ذو عسرة، فأفضى بشكواه ثم صلى ركعتين وجلس مطرقًا، وبينما هو في سهوة إذ رأى السيدة خارجة من قبرها الذكي في حلل من سندس وإستبرق تحمل صرة وضعتها بين يديه وأسرعت إلى مضجعها الأبدي. قال الراوي _ وهو عندي ثقة: ولا يزال الشيخ يحتفظ بالصرة وببعض تلك النقود تبركًا[1].

شاع بين الأزهر أن الأستاذ الشيخ (م.ح.) سيترك داره بشارع أم الغلام بعد أن عجزت حيله عن مصالحة عفريت يسكن إلى خرابة بجانبها، ذلك العفريت يقذف الحجارة في وجه الشيخ حتى لقد كسر نظارته وأدمى أنفه ويقلب أحياناً

(*) الجريدة: الأربعاء غرة شعبان ١٣٣٢ - ٢٤ يونية ١٩١٤.

(١) نسترعي نظر العالم الأثري الكبير علي بهجت وكيل دار الآثار العربية إلى تلك التحفة الأثرية الجليلة فهذه الصرة ليست أقل كرامة على التاريخ من دواة الغزالي المحفوظة في دار الآثار - الناشر.

الدكك والكراسى والمناضد ويبعثر الأوراق والكتب ويرمى القلل من أعلى إلى أسفل.

ذهبت بعد ظهر اليوم مع طائفة من إخوانى المجاورين إلى الأستاذ لنشاركه فى آلام هذا الخطب فوجدنا عنده وفودًا من العلماء والطلبة ما بين قارئ رقية وتال عزيمة فأخذت أقرأ مع القارئين. بينما نحن متوجهون بكليتنا إلى الابتهال والتلاوة إذ لمح قط أسود فأرة تلقط بقايا الطعام فى جانب من جوانب الحوش فوثب إليها فتسربت إلى القاعة التى نحن بها ودخلت فى مركوب الشيخ عبد...

التفت هذا على حين غفلة فوجد فردة مركوبه تطوف فى القاعة يتبعها القط. هنالك ظن أن العفريت يمشى إليه فزعق مبتدرًا الباب: يا سيدنا الحسين وتبعه الجموع يدوس بعضهم أعناق بعض متصايحين فكانت ضجة عظيمة وخرجنا إلى الشارع حفاة، هذا تمزق ثوبه، وهذا انحل نطاقه، وذلك انفرطت عمامته وأحاط بنا الجيران والمارة.

كان طفل من أولاد صاحب المنزل متتبعاً لحركات القط والفأر يلهو بها فلما رأى انزعاجنا وأدرك سره أسرع إلى مركوب الشيخ عبد... وجاءنا به تتطلع منه تلك الفأرة المسكينة المذعورة ويتبعه ذلك القط الأسود قط البيت واسمه بسبوس. ضحك الطفل ملء فمه الصغير اللطيف، وتضاحكنا على استحياء ثم دخلنا إلى مجلسنا وعدنا إلى الرقى والابتهالات[1].

باريس. مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر «ع»

---

(١) مررت بعد أيام بشارع أم الغلام فسمعت صبية الحارة يتغنون:

يابسبوس عفريت الدار إن حشته أعطيك دينار
المشايخ طلعوا يجروا بعد ماكانوا بيأروا
وكل واحد وشه فى حجره أوع دا المركوب فيه فار

١٠
غرة رمضان سنة ١٣٢٤ هجريًا(*)

هذا أول يوم فى شهر الصوم، ولم تسفر تباشير الصباح حتى بدت فى الناس حالة غير عادية فالوجوه كلها عابسة مظلمة والألسن سريعة إلى السباب والطلاق، والأيدى سريعة إلى الضرب والملاكمة. ولقد جرى لى من الحوادث ما يكفى سرده لتمثيل أيام الصيام تمثيلاً صحيحاً.

ألح علىَّ جماعة من أصدقائى أن أخطب فى الجمعة قائلين إنها أول جمعة من رمضان يحتشد لها الناس من كل فج، ويكونون أدنى إلى حسن الاستماع والاستعداد لقبول النصيحة فلبيت رغبتهم وهيأت فى نفسى موضوع الحديث.

جاءت ساعة الخطبة فأسرع الشيخ أبو حصوة إلى أبواب المنبر يفتحها وأخذ بيده السيف الخشبى ليناوله لى، تناولت تلك العصا المعوجة وتسلقت ذلك المركب العالى، وكانت وطآت قدمى فوق سلالم المنبر تثير الغبار الراكد، فأظل أعطس كلما نقلت قدمى من درجة إلى درجة، وكان التراب ينتشر يمنة ويسارًا فيجهش بالعطاس من حولى، وإن معظم الناس فى الريف بل فى القاهرة نفسها بين سمع

(*) الجريدة: الخميس ٩ شعبان ١٣٣٢ - ٢ يولية ١٩١٤.

الأوقاف وبصرها يعتقدون أن تراب المساجد مقدس لا ينبغى أن يخرج منها، فإذا خرج جعل يصيح حتى تحمله الملائكة إلى موضعه. وهم معذورون أولئك البسطاء فى مثل هذا الاعتقاد؛ لأنهم اعتادوا أن يروا دائماً هذه المعابد بيوتاً للشعائر الدينية وللتراب معاً[1]. وقفت للخطبة فأتيت بالحمد والصلاة ثم جعلت أحدث الناس فى أمر الزواج لأبين لهم أن تعدد الزوجات يقلع الحب من أساسه لأن الحب موحد لا يقبل الشرك وإذا ذهب الحب فعلى السعادة العفاء فى هذا العالم كله.

ولم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى وقف المأذون والفقهاء وعمى الحاج على الديب وصاحوا: هذا هو علم آخر الزمان لم يبق إلا أن نسمع من فوق منابر الوعظ الدينى الكلام عن النسوان والحب. وماذا جرى من خطب الشيخ البولاقى والشيخ السقا التى تذكرنا بالموت وتحبب إلينا الفقر؟

أخذ أصحابى يدافعون عنى وقامت معركة بين الطرفين تقاذفوا فيها أحذيتهم وتقاذفوا معها جفاء القول فهبطت من المنبر لأصلح بين خصمى وأنصارى معتذرًا لأولئك شاكرًا لهؤلاء، ولما هدأت ثائرتهم, أخذوا مجالسهم مرددين الصياح المسنون: إنى صائم. إنى صائم! إنى صائم! عدت إلى موقفى وصرفت الحديث عن هذا الحب الذى يهيج العداوة والشحناء.

تركت المسجد بعد الصلاة وذهبت إلى السويقة أتلهى بحركة الناس فى ذلك السوق المزدحم.

انتهى بى المطاف إلى العمدة ومعه جماعة من أعيان البلد يطوفون بجزار يسلخ عجلاً من الجاموس ويقطعه فرأيت من حسن الأدب أن أقف إليهم لحظة وإن كنت أستبشع النظر إلى تلك الحيوانات المسكينة تقتل تقتيلاً إرضاء لشهوات إخوانها الحيوانات الناطقة، ويدهشنى جداً أن أرى فى الناس من يعجبه هذا المنظر يقطع به وقته خصوصاً فى شهر الرحمة والتقى.

---

(١) من يبلغ الشيخ حسان فى قبره أن الأوقاف أصبحت وزارة لاتبقى فى المساجد ولاغيرها غبارًا. الناشر.

قال العمدة وهو يبتلع ريقه مخاطباً الجزار: اقطع لى العرتمة. فقال (ز.) بك متغيظاً: العرتمة أنا طلبتها قبلك. ما هذا؟ وعلى الطلاق لا يأخذها غيرى. غضب العمدة وحلف هو أيضاً بالطلاق لا يترك رغيبته ولو جرى حولها الدم.

فلما خفت الشر بينهما وأشفقت على زوجاتهما المحصنات الغافلات من عاقبة هذا النزق الصيامى قلت للجزار: أعط عرتمة لهذا وعرتمة لهذا: وكنت أظن العرتمة[1] اسم للضلع أو الفخذ، فضحك الحاضرون وظن المتخاصمان أنى أستهزئ بهما وأخذا فى عتابى بحدة لا تعرف الحلم فأعتبتهما وصرفتهما عن خصامهما الأول إلى الهتاف المشروع إنى صائم. إنى صائم. إنى صائم! وهتفت معهما ثم دعونا المأذون ليحل مشكلة الطلاق فأفتى بأن تعطى العرتمة أولاً للبك فيدفع ثمنها للجزار، ثم يهبها له وهذا يبيعها مرة ثانية للعمدة ليتصدق بها، وقد أهداها العمدة للشيخ المأذون وكان هو الفائز فى الحكاية كلها بالغنيمة.

بعد ذلك قصدت الدار فرارًا من المجامع ومخاصماتها وما كدت أتخطى عتبة الحوش حتى رأيت عماً لى يغاضب زوجه وآية غضبه أن يرمى المتاع من الشباك صارخًا بين هدير الغيظ: إنى صائم! إنى صائم! وقد كادت تصيبنى قلة فى أم رأسى فتقتلنى.

هنالك أحسست بأن المصيبة عامة فى الناس وأشفقت أن تصل إلى العدوى التى وجدت بوادرها حرجًا فى الصدر فأويت إلى حجرتى وأشعلت سيجارة. دخلت والدتى فجأة ولما أبصرتنى مدخناً والشمس فى كبد السماء ضربت صدرها مذعورة وصاحت: أجننت يا حسان؟ فأقنعتها بحالى ومقالى إننى كنت ناسيًا فذكرت، ولما خرجت قلت فى نفسى: لئن كان يرضى الله هذا الصيام الشغوب اللعوب فلن يغضبه هذا الفطر السلمى وتناولت سيجارتى.

(١) مفهوم من سياق الحديث أن العرتمة اسم لقطعة من اللحم ولم أهتد إلى فهم المراد بها على اليقين. الناشر.

١١

يوم الإثنين ٢ يولية سنة ١٩٠٠(*)

جاءنى البارحة صديقى الشيخ محمد ومعه ورقة فيها أسئلة الامتحان وناجانى بالحكاية:

ذلك أن الحاج بيومى الفراش حينما حمل مطبعة البالوظة ليغسلها بعد طبع الأسئلة، وضع عليها ورقة فخرجت حاملة سر الامتحان الذى ترجف له قلوبنا.

باع الحاج تلك الورقة الثمينة لصاحبى بريال ثم وعد بأن يبذل جهده فى الحصول على باقى الأسئلة.

فى الورقة امتحان الإنشاء، وهو يحتوى على موضوعين يختار الطالب ما شاء منهما:

أولهما: الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها. اشرح الحديث شرحًا وافيًا وبيِّن معنى الحكمة لغة وشرعًا مع توضيح المناسبة بين المعنيين.

وثانيهما: العلم للعمل كالروح للبدن لا كمال لأحدها إلا بصاحبه. ما وجه التشابه بين علاقة العلم بالعمل وعلاقة الروح بالبدن، ولم يحتاج العلم فى كماله إلى العمل ولا يستغنى العمل عن العلم؟

(*) الجريدة: ١٤ شعبان ١٣٣٢ - ٧ يولية ١٩١٤.

(١) وضعنا تاريخ العام تنفيذًا لرغبة الشيخ حسان رحمه الله - الناشر.

تشاورنا فى الأمر بيننا ثم اتفقت مع صاحبى على أن يختار هو ثانى السؤالين واختار أنا أولهما ليأخذ كل منا لموضوعه عدته.

وذهبنا فى الصباح إلى المدرسة بأقدام ثابتة لا يزلزلها رعب ودخلنا إلى قاعة الامتحان وجلسنا فى أمكنتنا متباعدين ترعانا عيون أساتذتنا المنبثين فى كل جانب لمراقبتنا ثم فتح رئيس الامتحان الظرف المختوم بالشمع الأحمر وأملى علينا الأسئلة.

وما هو إلا أن نبهت ذاكرتى لتؤدى إلى ما استودعتها أمس، ثم انطلقت يمينى فى القرطاس لا تتعثر وبعد ساعة دخل إلينا البك، يرافقه وزير المعارف، ووزير آخر وفى صحبتهم مفتش اللغة العربية.

وقفوا على مقربة من الباب وصعد ناظر المعارف نظره فينا وصوب فلم تأخذ عينه غيرى، ودنا منى يمشى رويدًا حتى لا يشوش على الطلاب ثم جعل يقرأ ما كتبت بصوت خافت وكان يبتسم ابتسام مسرور فيردد الجمع ابتسامه ولما رآنى أذكر القاموس مرارًا قال متحيرًا: أفأنت تحفظ القاموس عن ظهر قلب.

قلت: لا يا عطوفة الباشا. وقد كان بلغنى أن كلمة العطوفة تسر الوزير ولمحت فى أسارير وجهه لمعة ارتياح عندما قلتها. أنا لا أحفظ القاموس، ولكننى كثيرًا ما أنظر فيه وأراجعه. قال: أنت إذًا قوى فى اللغة؟ تبسمت ابتسام من يمنعه الحياء والتواضع أن يلفظ كلمة نعم وهى بين شفتيه تكاد تسيل.

قال: كيف تسمى؟

قلت: حسان عامر الفزارى. فقال: يا شيخ حسان، أتعرف ما الابتيار؟ وما الابتهار؟ ومن حسن حظى أننى كنت سئمت من كثرة المذاكرة الليلة الفائتة، وأردت أن أصرف السأم بقراءة فى كتاب أدبى ففتحت الجزء الأول من كتاب الأغانى، وجعلت أطالع فى شعر عمر بن أبى ربيعة شاعر النساء الذى روى أن سليمان بن عبد الملك قال له يومًا: ما يمنعك أن تمدحنا؟

قال: إنى لا أمدح الرجال إنما أمدح النساء.

قرأت حكاية التقاء عمر بجميل بن عبد الله بن معمر العذرى وتناشدهما القصيدتين اللاميتين قصيدة جميل التى منها:

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلى ... بثينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون مهلاً يا جميل، وإننى ... لأقسم مالى عن بثينة من مهل
خليلى فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلا بكى من حب قاتله قبلى
أبيت مع الهلاك ضيفًا لأهلها ... وأهلى قريب موسعون ذوو فضل
أفق أيها القلب اللجوج عن الجهل ... ودع عنك جملاً لاسبيل إلى جمل
فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ... ولكن طلابيها لما فات من عقلى

وقصيدة ابن أبى ربيعة التى منها:

جرى ناصح بالود بينى وبينها ... فقربنى يوم الحصاب إلى قتلى
فلما تواقفنا عرفت الذى بها ... كمثل الذى حذوك النعل بالنعل
فسلمت واستأنست خفية أن يرى ... عدو مقامى أو يرى كاشح فعلى
فقالت وأرخت جانب الستر إنما ... معى فتحدث غير ذى رقبة أهلى
فقلت لها ما بى لهم من ترقب ... ولكن سرى ليس يحمله مثلى
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا ... وهى طبيبات بحاجة ذى الشكل
عرفن الذى تهوى فقلن ائذنى لنا ... نطف ساعة فى برد ليل وفى سهل
فقالت فلا تلبثن قلن تحدثى ... نوافيك وانسبن انسياب مها الرمل
وقمن وقد أفهمن ذا اللب إنما ... أتين الذى يأتين من ذاك من أجلى

وقريب من هذا الموضوع فى الأغانى ما يأتى:

«... حدثنا الزبير بن بكار قال: أدركت مشيخة من قريش لا يزنون بعمر بن أبى ربيعة شاعرًا من أهل دهره فى النسيب ويستحسنون منه ما كانوا

يستقبحونه من غيره من مدح نفسه والتحلى بمودته والابتيار فى شعره - والابتيار أن يفعل الإنسان الشىء فيذكره ويفخر به والابتهار أن يقول ما يفعل».

لما وجه إلى الوزير سؤاله حضرنى ما كنت راجعته بالليل فأجبت: يا عطوفة الوزير وكررتها قصدًا - الابتيار كما ورد فى صحيفة ٥٠ من الجزء الأول من الأغانى هو كذا، والابتهار هو كذا وسقت جملة الأغانى بالنص، أشرق السرور عندئذ على تلك الجبهة العالية المتحلية بأمارات الذكاء ومظهر الوزارة وتجاعيد الكبر وصافحنى الباشا بقوة.

أما مفتش المعارف ففتح ذراعيه وأقبل إلىَّ يضمنى إلى صدره وهو يقول: والله إنك للبازل الفحل ويرددها، وله الله ما زاد على أن جعلنى جملا كبيرًا.

ولقد أدركتنى وخزة ضمير كدت أصيح بأنى غير أهل لهذا الإكرام لأننى حصلت على الأسئلة من طريق غير مشروع ثم قلت فى نفسى: كم من مذنب يمسح بيده الحجر الأسود وهو أكرم على الله من يد الوزير وصدر المفتش. ثم جاء دور الوزير الثانى فمشى إلى مسرعًا، وأخذ ينظر فى ورقة الامتحان ويحرك شفتيه ببطء، وهز رأسه بعنف فسقط طربوشه الذى أسرع إليه البك يتناوله ويمسحه ويرده إليه. وقد لاحظت أن الوزير كثيرًا ما يهز رأسه فينزل الطربوش عن رأسه إلى الأرض. وياليته يتخذ لطربوشه مشابك تمسكه فقد لا يجد دائماً رجلاً ذا تواضع ومروءة ورشاقة فى تلقى الطرابيش الساقطة.

وبعد أن أطال النظر فى ورقتى من غير أن تتهلل غرته بنفحات الفهم خاطبنى بهذه العبارة:

أنت تعرف كويس الإنشا شىء جميل.

قلت: الله يبارك فيك يا سعادة الباشا - ولقد أعلم أن كلمة العطوفة ترضيه هو أيضًا، ولكننى رأيتها كبيرة عليه، ثم انصرفوا جميعًا وأغلقوا الباب.

١٢
٣٠ مايو سنة ١٩٠٧ (*)

التقرير السنوى للمعتمد الإنجليزى هو فى هذه الأيام ملء صدور الصحف وأفواه المجالس وتلك نوبة تأخذ الناس مرة فى مطلع الصيف من كل عام.

وجدير بمنشور قصر الدوبارة أن يسترعى عنايتنا شهرًا لأنه ليس فقط بياناً لسير الأحوال الاقتصادية والإدارية فى مدى عام من حياتنا بل هو كثيرًا ما يكون بحثًا علميًا يتناول مسائل اجتماعية من أخص مسائل العلم الاجتماعى التى تريك فحول العلماء كشرح طبائع الأمم فى تحديد الفروق الدقيقة بين آثار المدنيات من أخلاق المجاميع.

ولئن كنا لا ننصح للمتعلمين من أن يجعلوا تلك التقارير مراجع لهم فى تربية أذواقهم فقط يجب أن يدرسوها بإمعان ليتعارفوا بين ما يقرره العلماء وما يمضيه ممثل بريطانيا العظمى فى بلاد الأهرام.

ولا ينبغى أن ننسى أن هذه الكتب الحولية تتضمن أيضاً الشهادة بمبلغ تقدمنا فى التربية السياسية على يد أبناء التاميز. ولقد تذكرنى مسألة الحكم فى كفاءتنا السياسية بحكاية تجرى عندنا فى الريف مجرى الأمثال ذلك أنه كان فى

(*) الجريدة: الأربعاء ٢٢ شعبان ١٣٣٢ - ١٥ يولية ١٩١٤.

سالف العصر الأول رجل أدركه إغماء. فما بطلت حركته حتى عجل ذوو قرابته إلى تجهيزه على ما جرت به عادة قومنا، إذ لا تراهم إلى شىء سراعاً إلا إلى الموتى يدخلونهم بين أطباق الثريد، ولهو أهون عليهم أن يلقوا فى القبر حياً تتردد أنفاسه فى صدره من أن يتركوا ميتًا ساعة بين الأحياء. غسل القوم صاحبنا ولففوه فى أكفانه وصلوا عليه صلاة الجنازة ثم ساروا بنعشه إلى المقبرة يحدوه صياح القرّاء ويتبعه صراخ النساء. ومن العجيب أن نغمة المرتلين للأذكار والمرددين للعويل بين يدى الموتى لا تخالف نغمة الهاتفين بالأناشيد والزغاريد فى زفاف الأعراس. ذلك مصداق قول الحكيم المعرى:

وشبيه صوت النعى إذا قيـ ـس بصوت البشير فى كل ناد

أفاق من غشيته محمول الآلة الحدباء فوجد نفسه ملففًا مسجى. مد يده فامتدت وحرك فتحركت ورفع الغطاء عن وجهه فأبصر العالم بأرضه وسمائه. عندئذ مسته دهشة ولم يدر لم هو مضطجع فى لفائف محمول على أعناق الرجال مصحوبًا بنواح النساء.

قال لحامليه: أين تذهبون بى فى هذا الموكب؟

قالوا: نذهب بك إلى مساكن الموتى فإنك ميت يرحمك الله.

صرخ الرجل: يا قوم ما أنا بميت إننى أتكلم وأتحرك وأشعر وأفكر وماذا تطلبون من علائم الحياة وراء هذا؟

هنالك أقبل بعضهم على بعض يتغامزون: لا تسمعوا لجداله فقد أسبغنا غسله ووضعناه فى أكفانه وصلينا عليه. ثم أوثقوه بحبال مخافة أن يفر من نعشه وساروا به إلى اللحد وهو يدعو بالويل والثبور.

مر المشهد برجل على باب داره فناداه من فوق أعناق الرجال ذلك المشدود فى حباله، أن أغثنى يا عم فإن هؤلاء يريدون أن يدفنونى حياً.

رقت نفس الشيخ وخاطب المشيعين: ما ذنب صاحبكم؟ تريدون أن تدخلوه القبر من قبل أن يموت.

قالوا: لقد خدعك ما هو بحى إنه مات وجهزناه للدفن فلا تسمع لشكايته.

قال الميت: يا عم أحكم بيننا بالعدل أفأكون ميتاً وأنا أنطق كما ينطقون وأعى ما يقولون؟ قال الرجل: اذهب يا صاح إلى قبرك إننى لا أستطيع أن أصدق أنك حى وأكذب كل هؤلاء.

كذلك نحن نثبت بكل دليل أننا بلغنا رشدنا فتقول لنا السياسة ومن ورائها أسطول ضخم وجيش فخم: لم تصيروا بعد أكفاء، ولا يصدقنا أحد ليكذب كل هؤلاء.

باريس . مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر «ع»

١٣

٣ مايو سنة ١٩٠٥(*)

الشيخ المفتى مريض ويظهر أن داءه لسوء حظ المسلمين عضال. أتيته أعوده فى داره بعين شمس ضحى اليوم، وأذن لى فدخلت إليه وهو فى سريره شاحب اللون تزاحم البشاشة الفطرية فى وجهه لذعة الألم وهو على ذلك حلو الحديث حاضر البديهة. جرى ذكر الشيخ(١) (م. ش.) فقال الأستاذ: ما رأيت خيرًا أثمر أذى كيدى عنده وأعوذ بالله أن آسف على معروف وإن وضعته عند من لا يحفظه ثم أنشد:

لو أن خيرك كان شرًا كله عند الذين عدوا عليك لما عدا

* * *

أصبحت لا أجد لما أحضره من دروس الأزهر طعمًا ولا أشعر بفائدة فى تكوين ملكة ولا تهذيب ذوق لهذه الأبحاث المجدية التى أفنى فيها حياتى جاهدًا.

أنا أستيقظ من نومى قبل أن تشرق الشمس فما أزال أنتقل من حلقة أستاذ إلى مشاركة رفيق فى مطالعة، إلى انفراد بالدروس حتى آوى إلى مخدعى قبيل

(*) الجريدة: الأربعاء ٢٩ شعبان ١٣٣٢ - ٢٢ يوليو ١٩١٤.

(١) الشيخ (م. ش) شخصية حقيقية.

نصف الليل فاتر القوة متبه عصب الدماغ محتاجًا إلى النوم، غير واجد إليه سبيلاً، وليس لى من سلوة فى ثنايا هذا العناء المتتابع لا من لذة العمل فى نفسه ولا من ثمرته، ثم إن فى أعماق نفسى قلقًا ينزع بى إلى أمانى لا موضع لتحقيقها من هذا الوسط. ذكر لى أن الشيخ (م. ب.) سيقرأ بعد العصر فى مسجد سيدنا الحسين كتاب المنار فى أصول فقه الحنفية. بالغ أصحابى فى الثناء على الشيخ حتى وضعوه فى صف الشيخ محمد عبده، وللأستاذ بين أهل الأزهر شهرة يمدها تاريخ حافل.

ذهبت عصر اليوم إلى جامع الحسين وجلست قريبًا من كرسى المدرس الذى أقبل محاطًا بطائفة من الطلبة منهم من يحمل نعليه، ومنهم من يحمل المحفظة وآخرون يسيرون فى عرض الموكب تكميلاً للأبهة.

كان الأستاذ لابسًا قفطانًا أصفر فاقعًا لونه فيه خطوط سوداء، ويحيط بصدره الضيق نطاق من حرير أزرق واضح الزرقة مطرز بأعلام مخضرة من فوق ذلك جبة تضرب إلى لون الدم ويرتدى بدفية من صوف برتقالى لامع.

نظرت إلى الشيخ لأول مرة فألفيت جبهته الباهتة متجعدة تخرز من تحتها عيون ضيقة براقة ورأيت وجهه القليل المساحة يعوم فى لحية كثيفة محمرة الشعر إلا ما نصل عنه الخضاب من أطرافها وجذورها الشمطاء.، جلس فى كرسيه ولبس نظارته ثم أخرج ملزمة المنار وقرأ عبارة المتن "أحمد الله أولاً وثانياً».

كانت الساعة التاسعة فما برح العالم النحرير يقتل هذه الجملة المسكينة بحثاً وتحقيقاً حتى أذن مؤذن المغرب، ولما أضجرنا بإطالته على غير طائل فى تطريق الاحتمالات وتوجيه الاعتراضات، قلت: يا سيدنا الشيخ. ألا يجوز أن يكون كل مراد المصنف هو التلويح إلى البيت المشهور:

لك الحمد أما ما نحب فلا نرى   ونبصر ما لا نشتهى فلك الحمد

لوى الشيخ عنقه ووجم مفكرًا ثم أجاب: هذا الاحتمال غير وجيه، لأن الحمد فى المتن مطلق وهو فى الشعر مقيد، ومضى فيما كان فيه.

ولم يكد يفرغ الأستاذ من الدرس حتى تزاحم عليه الطلاب يقبِّلون يده كما تزاحموا عليها يمسونها بشفاههم فى مفتتح الدرس. ويا رحمتاه للمجاورين: لا يفتأون يقبلون تلك الأيدى التى لا هى أيدى النساء الناعمة فنحى فيها نعمة الله على الناس بالجمال والحب، ولا هى مرتجاة لخير فتكرم لخيرها ومعروفها. وكم فى تلك العادة السيئة من مضار.

وإن أولئك الذين يمدون أيديهم طويلة إلى الأفواه لينشروا جراثيم الأمراض ويبذروا معها الذلة فى أنفس طيبة ساذجة.

خرجت من الدرس مملوء النفس بالسأم، والصدر بالحرج، وصادفت فى السكة الجديدة صديقى الشيخ أحمد (.ع.) فخبرته بخبرى، قال: يا أخى يغفر الله لك، أتطلب علماً عن مَنْ يكتب فى الجرائد فى أسلوب أطفال ليقول: إن العلوم الحديثة لا فائدة فيها وإن إدخالها إلى الأزهر جناية على الدين وأهل الدين.

سألت: أذلكم (ث) بن (م؟) أجاب: هو أستاذك مذ اليوم. حمدت الله أولاً وثانياً واستغفرت لخطيئتى.

باريس. مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر «ع»

١٤

١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٦ (*)

كان الشيخ أحمد أبو خطوة يدرس رسالة الجامى فى داره لجماعة من خاصته فلما فرغ منها أخذ يطالع معهم كتاب "طوالع البيضاوى" ثم شاع الأمر بين الأزهريين لاسيما طلاب المرحوم الشيخ محمد عبده فأحاطوا بالشيخ أبى خطوة واضطروه إلى أن يجعل الدرس عاماً.

كان الشيخ يقرأ دروسه فى الحوش الفسيحة لداره الجديدة بناحية الدرب الأحمر وجعلت حلقته تزدحم بأذكياء الطلاب حتى صارت صورة طبق الأصل لحلقة الشيخ المفتى فى الرواق العباسى، وكان كثيرون منا تلاميذ دار العلوم يواظبون على تلقى هذه الدروس اغتنامًا لفائدتها على ما كان يكلفنا ذلك من العناء لبعد مساكننا عن منزل الشيخ، واضطرارنا للسهر مع أننا ننتبه من نومنا مبكرين.

انقطع الشيخ أبو خطوة عن هذه الدروس الليلة فجأة من غير سبب معروف وترك تلاميذه فى حيرة وأسف وقد أحاطت بهذه الحادثة إشاعات كثيرة، وصارت سمر المجالس فى الأزهر ورن لها صدى فى الجامع، ويظهر أن الخبر

(*) الجريدة: السبت ٩ رمضان ١٣٣٢ . أول أغسطس ١٩١٤.

اليقين هو ما رواه لى زميلى الشيخ (ع.ع) الذى هو من أخص تلاميذ الشيخ أحمد أبو خطوة وأدناهم إليه، ولأبيه صلة بالأستاذ، قال: سألت الشيخ عن سبب مماطلته فى العودة إلى دروسه مطال من يريد أن يصرف الإلحاح عنه من غير نية فى الإنجاز فأجاب: إن التفاف طلاب المرحوم الشيخ عبده حولى واجتماعهم فى دارى واشتغالنا بقراءة كتب عزيزة بين الأزهريين أخذ يقلق أهل الحول والطول فى الأزهر وإن الذين وجدوا سبيلاً إلى رمى المرحوم الشيخ محمد عبده بالإلحاد والتفلسف وهو يتلو كتاب الله ويفسره، لا يعجزهم أن يتسقطوا الشيخ أبا خطوة وهو يدرس كتاب الطوالع ويزيد الأمر حرجاً أننى صديق (ر.)... وهم عصابة المرحوم المفتى.

قلت: ما للعلم وهذه الاعتبارات؟

قال: نحن يا بنى فى بلاد العجائب.

ثم قال زميلى وصادفت بعد ذلك (ع.) باشا فقلت له: ألا تعجب يا باشا للشيخ أبى خطوة؟ يظن أن قراءة كتاب توحيد فى داره لجماعة من الطلبة أصبح مخوف العاقبة؟ فوضع الباشا يمينه على كتفى وقال: تلك سنوات الثمانية عشرة هى التى تتكلم! لا موضع للعجب فيما يقول شيخك، وستخاف مثلنا متى حنكتك التجارب وأدركتك رزانة السن، وعرفت من أمر بلادنا ما نعرف.

زاد صاحبى: وعندئذٍ قلت فى نفسى: «اللهم إن كانت خطواتى فى سبيل الحياة تقربنى من الحذر وتجعلنى أخاف بشرًا فى حريتى فاقبضنى إليك»

ولا أفتأ أجعل هذه الكلمة وردى منذ سمعتها.

باريس. مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر ع.

١٥
٧ أغسطس سنة ١٩٠٧(*)

بينما كنا نتناول عشاءنا البارحة وصل إلى آذاننا دوى صياح يتزايد ويشتد فتسمعنا للصوت لنتبين أعويل نعى هو أم صيحة تنبيه إلى حريق أم صريخ استغاثة من لصوص ولكل من ذلك طريقة فى حناجر نسائنا. وسرعان ما تميزنا فى تلك الزعقات رنة ويك ويك ويك ويك، وهى دعوة إلى محاربة النار فتسابقنا إلى مكانها فى درب القطط وتركنا حريمنا يرددن: «يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم»، وتلك مناجاة تعلمنها من الشيخة ليدفعن بها عادية النار كلما لحن لهيباً من تلك المنافذ الضيقة فى بيوتنا سجون النساء.

وجدنا عند الحريق طائفة من الفلاحات يحملن الجرار على رءوسهن مملوءة ماء يأتين به من ترعة الجاموس[1] وهن صائحات فى جيئتهن وذهابهن استصراخاً للناس بينما أزواجهن يتلقون تلك الأوانى لصبها فوق اللهب المضطرب، هذه هى الطبقة الفقيرة العاملة بنسائها ورجالها، أما الأغنياء أو من نسميهم «ناس البلد» ففى يد كل منهم عصا يسوق بها الرجال إلى اقتحام النار

(*) الجريدة: الأحد ١٧ رمضان ١٣٣٢ - ٩ أغسطس ١٩١٤.

(١) تسترعى نظرى هذه الأسماء ومن عجائب بلادنا أن تنسب فيها الطرق والميادين والترع إلى حيوانات وأشباهها ثم لايوجد فى مصر شىء باسم محمد عبده وقاسم أمين (بهامش الأصل).

ويسوق بها حلائلهن إلى ملتمس الماء وما هؤلاء ولا هؤلاء فى حاجة إلى من يدفعهم إلى واجب ينشطون له بفطرهم الطيبة.

وصل قبس إلى عشة عطية الطواب فاشتعلت، وهناك شق الصفوف ذلك الفقير وترامى وسط اللهب إلى قفة فيها خبز فحملها وحال اللظى بينه وبين الباب فكان من المحرقين.

وأواه! كم فى قومنا من أناس يبيعون هكذا حياتهم رخيصة. أطفئت النار بعد جهد فى مكافحتها وأبلغ الخبر إلى المركز، وكان أول مبكر من ذوى الشأن الطبيب، وبعد أن نظر نظرة فى جثة الميت المسكين التى كانت ملفوفة فى حصير وملقاة فى الساحة المجاورة لمحل موته أخرج عدة الجراحة كأنه يستعد لعملية التشريح وجعل يتلكأ فى ترتيبها وتنظيفها، ويجرب أحياناً المقص فى الهواء بحيث يبصره أقارب الطواب، ولمحنا مزّين الصحة يسار امرأة المرحوم ثم نظرت إليها فى جزع يزيد لوعته حزنها وتلهفها فدنوت منها أعزيها عندئذ قالت لى: إنهم يطلبون منى أربعة ريالات وإلا أنفذوا تلك السكاكين فى هذه الأشلاء الغالية فمزقوها كل ممزق، وكل ما أملكه من المال هو عشرة قروش فدلنى بارك الله فيك ماذا أصنع! قلت لها انتظرى قليلاً، وذهبت إلى الحاج إبراهيم الملط والمقدس عوض عريان فجمعت منهما ومنى ما فرج كرب الأيم البائسة. وما هى إلا ساعة حتى ستر ما كان مكشوفاً من رمة الشهيد، وطويت آلات الجراحة وعاد طبيب المركز من حيث أتى.

وبعد ذلك جاء المأمور ومساعد النيابة وجلسا فى مندرة العمدة، وكنت من الشهود فساقونا إلى مجلس التحقيق زمرًا، أدخلنا إلى تلك القاعة الضيقة المستطيلة ذات المنافذ العديدة المغطاة بستائر من حرير مملوءة بالبقع ما بين دهن ودم بق وبراغيث محاطة ببيوت العنكبوت وأعشاش الزنابير وخلايا النحل.

رأينا فى صدر المجلس فتى فى ريعان شبابه جميل المحيا تسيل فوق غرته الواضحة خصلة من شعر فاحم متجعد يرسلها على غير نظام عمدًا، وله نظرات فاترة طفلة يتكلف من ملامح الكبر ما لا يتسع منه شبابه الغض، وتغلب ملاحة

سحنته فيعود ذلك الكبر دلالاً لطيفاً، وكان متكئاً فوق كنبة على مخدات ينبطح عليها حتى ليعطى الجمهور من ظهره أكثر مما يرون من صدره. هذا هو مساعد النيابة وعن يمينه مأمور المركز رجل مستحكم ضخم جاحظ العينين مفرطح الأنف ضيق الجبهة واسع الفم، وعن الشمال العمدة جالس جلسة الخشوع التى تميز العمد فى مجلس الموظفين.

دعيت للشهادة أولاً زوج عطية الطواب فأمسك بيدها العسكرى وتقدم بها بين يدى المحققين ووقف إلى جانبها.

كانت السيدة ترسل ذوب فؤادها المصدوع فى عبراتها الحرى فنظر إليها مساعد النيابة وقال بصوت الآمر: لا تبكِ.

فوخزها العسكرى الواقف إلى جانبها وردد كلمة المساعد.

أجابت المسكينة بصوتها المرعود: أعذرونى يا أسيادى ليس فى وسعى أن أمسك مدامعى وبعلى جثة هامدة ملقاة فى الطريق.

صاح فتى النيابة بصوته الأغن اللين الذى كان يتصنع أن يجعله قاسياً:

ومن هو زوجك حتى لا تملكين دموعك عليه ألم يكن طواباً؟

فاستجمعت الأرملة الحزينة كل قواها المتداعية لتقول بين عبرة وزفير: إنه كان يحبنى وأحبه، وكنت أشعر كأن تلك الكلمات ينشق عنها فؤادها الموجوع.

لكن المساعد تبسم ضاحكاً من قولها،وكان المأمور غفا إغفاءة فلما انتبه ضحك بصوت عال مجاراة لعضو النيابة. أما العمدة فقطب شفتيه بيده حتى لا يضحك ضحكاً ظاهرًا بحضرة رؤسائه. وما أبعد هؤلاء عن لطف الإحساس ليفهموا كل ما عبرت عنه السيدة بهذه الجملة البسيطة.

وجه مساعد النيابة عدة أسئلة إلى المرأة، غريبة فى موضوعها وفى معنى التناسب بينها ثم قادها العسكرى إلى الباب، ودعيت بعدها فلما صرت بين يدى المحقق قال:

ما بالك متجملاً بثياب العيد؟ قلت: أرجوك أن تقيد هذا السؤال فى محضر التحقيق فإنى مجيبك عليه.

نظر إلىّ نظرة عجب وقال: يا سيدى أنت عامل أبوكاتو؟ قلت: إننى شاهد بين يدى محقق له على حق الاحترام فى حدود العمل الذى يؤديه باسم القانون، فإن خرج عن حدود القانون فلا حرمة له عندى بأكثر مما يرعى كرامتى.

قال: قل ما رأيت.

ثم جعل يعتدل من رقدته حتى استوى جالساً.

وعند منصرفى سمعت مأمور المركز يقول: هذه هى آثار تعليم الفلاحين ونتائج تعويدهم الحرية.

كأنما يريد أولئك الحرية لأنفسهم ويأبون علينا نحن - الفلاحين - أن نكون أعزة أحرارًا.

ويا ليت حكامنا يدركون أنما هم حراس على القانون الموجود لكرامة الناس لا لهوانهم.

وليتنا نحرص على عزتنا فلا نرضى بوجه أن تداس أطرافها.

ويا ليت كل أب فى مصر يلقن طفله فى المهد قول المتنبى:

واحتمال الأذى ورؤية جانيـ ـه غذاء تضوى به الأجسام

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

باريس - مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى

الناشر «ع»

١٦(*)

مـضطر بحكم هـذه الظروف أن أدع إلـى حـين إتمام مـا بدأته من مـذكـرات المرحوم الشيخ حسان عامر الفزارى فإن ذلك الأسلوب الضاحك لا يتفق مع هذه الأيام المبللة بدموع الثواكل والمضرجة بدماء الشهداء.

قد يكون الشيخ حسان فى قبره إلى الجانب الأيسر من باريس لا يحس بما يملأ الأفق حواليه من هتاف الحمية بين جموع تسيل بهم الشعاب إلى ساحات الوغى بوجوه كالدنانير.

لا يرهبون مناياهم كأنهم لا يخرجون من الدنيا إذا قتلوا.

ولكن ناشر مذكرات الفزارى يعيش فى فرنسا فى هذه الساعات الجدبة العصيبة، ويرى أمة الجمال والسرور واللطف فى سورة حماسية رهيبة ينسى الإنسان عندها كل شىء إلا شفاء الحزازات القومية وإلا الدفاع عن شرف الوطن.

أشهد لقد سمعت «التوقسان» يدق فى جوف هذه الجبال مؤذناً بالتجنيد العام فيطير إليه الناس زرافات ووحداناً وماهى إلا ساعة حتى ينقلب هؤلاء الفلاحون الوادعون جنوداً كل همهم أن يقتلوا أو يُقتلوا.

(*) الجريدة: الخميس ٥ شوال ١٣٣٢ . ٢٧ أغسطس ١٩١٤.

وأشهد لقد رأيت صاحباً لى يقعد به المرض عن السير إلى الحرب، لا يلمح الذاهبين إلى القتال إلا بكى.

ورأيت مريضاً يوصيه الطبيب ألا يترك فراشه وإلا عرض حياته للخطر يسير مع السائرين غير مبال بصحته ولا حليلته الشابة الجميلة الموحدة التى قالت لى: "لقد أعلم ما يهدد حياته حتى من غير حرب، ولكننى لم أسرف فى الإلحاح عليه عرفاناً لشرف العاطفة التى تجيش بها نفسه".

وكم رأيت من مظاهر الوطنية فى هذه البلاد بين الرجال والنساء والأطفال حتى لقد خيل إلى أن السماء والأرض وكل ناطق وصامت يتدفق حمية وحماسة وحتى وجدتنى فى نشوة تحبب إلىَّ أنا أيضاً أن أموت فى ظلال السيوف.

ليس فى نيتى أن أقف إلى جانب الراية المثلثة الألوان محارباً وإن كانت محببة إلى تلك الراية التى يرجع إليها حظ عظيم من فخار التاريخ الإنسانى ذلك بأن اعتبارات مقدسة تقضى على بأن أقف بعيدًا عن هذه الحرب الطاحنة وعن كل عمل لا يتفق مع ما نرجو للإنسانية والسلام.

* * *

أنا من أولئك الذين يكرهون الحروب ويريدون للبشر رقيًا منتظمًا فى ظل السلام والحرية وآلم شىء لقلبى أن يفترس الإنسان الإنسان كما تصنع الوحوش فى البيداء غير أنى أنظر اليوم إلى العاطفة الحربية فى جهتها الشعرية فأحس بجمالها وجلالها.

نحن بين يدى حكومة عسكرية فى ريف بعيد عن الحركة لا تصلنا جرائد ولا رسائل ولا نعلم من أخبار الحرب ولا غيرها إلا ما يعلن إلينا رسميًا صبح كل يوم.

ليست هذه البقعة غنية بمدخراتها ولا هى تستطيع أن تجد مددًا من الخارج لأن طرق المواصلات مشغولة كلها بنقل الجنود والذخائر؛ لذلك وجب التبلغ بالقليل والقناعة بالكفاف.

والمصارف لا تدفع مما عندها من الأمانات إلا شيئاً قليلاً وحركة الأخذ والعطاء واقفة. ثم إنك لا تجد فى هذه القرى إلا المستضعفين من الشيوخ والأطفال والمرضى وإلا النساء يعشن فى قلق بين رجاء النصر والإشفاق من الثكل.

مشهد أليم وعيشة ضنكة فى بلاد الابتهاج والنعمة.

كل ذلك صحيح ولكن روحًا كريمة ترفرف بأجنحة من نور فوق تلك المصائب والآلام السوداء.

تلك هى عاطفة الوطنية التى تعزى الثاكلات والواقفات على باب الثكل وتملأ صدور الذاهبين إلى ساحة الحرب الزبون أريحية وطربًا.

بارك الله فى الوطنية وحيا كل مجاهد فى سبيل الوطن.

فرنسا فى ٦ اغسطس ١٩١٤

ناشر مذكرات الفزارى

«ع»

ثانياً: مذكرات مسافر

١(*)

فى يونية سنة ١٩٠٩ سافرت إلى أوروبا أول مرة، وكنت يومئذٍ فتى لم ير ما وراء القاهرة من جهة الشمال، ولم يعرف البحر الذى تجرى سفائنه فى موج كالجبال.

لم أسكن فى غير دارنا، ولا عشت إلا بين أهلى، ولا نطقت إلا لغتهم، وكنت من السذاجة ورقة القلب وفرط الحياء على ما كان عليه ناشئ الأزهر فى ذلك الزمن.

كل هذا العوامل ملأتنى رهبة من السفر حين دنا موعده فاضطربت أعصابى وهاجت عواطفى.

دخلت إلى والدتى أودعها وبى من التأثر مالا طاقة لى بكتمانه، وكنت أقدر أنها ستبكى وتعطينى فرصة للبكاء تريحنى.

لكن الشيخة القوية توسمت حالتى فلقيتنى باسمة تخفى قوة الإرادة وتجاعيد الكبر ما قد يساورها من ألم.

قالت: «لو كنت جازعة لفراق أحد من أولادى لجزعت يوم سافر أخوك البكر وهو كطفل لا يستغنى بنفسه، أما أنت فرجل نضجت مواهبه وكملت تربيته. سافر على بركة الله وفى ذمته.

(*) السياسة: ٢٨ ذى الحجة ١٣٤٢ . ٣١ يوليو ١٩٢٤.

ثم ضمتني إلى صدرها وقبلتني. هنالك استعنت بكل ما أملك من عزم وكل ما في قلبي من حب وإجلال لهذه الأم البارة على كتمان عواطفي المتأججة، وقبلت يدها وانصرفت ساكناً مبتسمًا برغم ما أعاني من وجد واضطراب.

وكان ذلك أول ما علمني كظم المواجد والابتسام عند الشدائد، وتوالت دروس بعد ذلك عودتني أن أكتم العواطف وهي جائشة وأن أرزن للخطوب وهي طائشة. على أن هذه الأشجان المكظومة تضيق بها ساحة الصدر أحياناً فتلتمس هدأة من هدءات الحياة وتتفجر انفجارًا.

في آخر يونية الماضي لما تهيأت للسفر جاءت حاضنة بنيتي تحملها لأودعها عند مسيري، والطفلة مرحة لعوب تضحك للزهر في الحديقة وللشمس في السماء وتضحك للحياة كلها، لأنها تحسب الحياة كلها طفولة دائمة.

جاءت طفلتي تودعني فقبلتها وتحرك الركب للمسير فلم تعد تبسم تلك المخلوقة البسامة وجعلت تهتف بي في مبغوم ندائها. هنالك تبادرت إلى النفس ذكريات خمسة عشر عاماً فالتفت إلى وليدتي أيضًا باسمًا ساكنًا وأسرعت بنا السيارة إلى المحطة.

وبمناسبة الأطفال وابتسامهم، لاحظت أن الأولاد عندنا حين يعرف الابتسام طريق شفاههم الغضة تكثر الأمهات والأقارب من إهاجتهم للضحك.

وكلما رأيت الأطفال تستثار ابتساماتهم بغير حساب أدركتني رقة لهم، وإشفاق عليهم، وخيل إليَّ أن أطفالنا تستنفد ابتساماتهم في المهاد فلا يدخر منها لسائر العمر إلا قليل.

أما بورسعيد فقد وصلنا إليها ليلاً، وما هو إلا أن أشرفنا على القناة وبدت أنوار المدينة من بعيد منثورة تسبح في جنح الليل، يظهرها ويخفيها، حتى تذكرت أنني جئت إلى بور سعيد أول مرة بالليل وتذكرت من كان معي.

تمثلت لي المأساة الفاجعة، أظلم الأفق واسودت نواحيه فلا يلوح إلا نجيع يضرج حاشية السماء، وخشعت الأصوات، فلست تسمع إلا دوياً قائلاً:

أيتها السفينة! أسرعي بنا من هذا الجو المسموم فقد كدنا نختنق.

٢(*)

السفينة فخمة ضخمة، نظيفة جميلة، تجمع وسائل الراحة، وما فوق وسائل الراحة من أسباب الرفه، والبحر صفو رهو، والجو معتدل، والسُّفَّرُ كثيرون، بين نساء ورجال وولدان، وأغلبهم إنجليز وهنود ومصريون.

ولست تسمع الشكوى من شيء إلا قائلاً يقول: إن الخدم لا يعرفون غير الإنجليزية، بل قال بعض مواطنينا: إنهم لا يعرفون الإنجليزية، واستدل على مدعاه بأنه حدثهم بتلك اللغة فلم يفهموه. والدليل لا ينتج الدعوى.

وهناك شكاية أخرى من الطعام، فإن فى قومنا من لا يحب للإنجليز طعاماً، وإن كان فى قومنا من يموت فى طعام الإنجليز وشرابهم.

أما أنا فقد جمع الله لى بين الإنجليز وطعام الهنود، فإنه كان إلى جانبى على المائدة عائلة هندية يقدم لها بجانب المآكل العامة مآكل قومية خاصة كانت تشركنى فيها بإلحاح الشرقى فى الكرم، وكنت أطيعها إلى ما أشتهى من طعامهم وما لا أشتهى بعامل الحياء الشرقى، وفى مطعمهم توابل كثيرة ومواد حريفة مخلوطة بسكر وزبيب.

(*) السياسة: الأربعاء ٥ محرم ١٣٤٣ - ٦ أغسطس ١٩٢٤.

لم يكن جيرانى يفهمون الفرنسية، ولا أفهم الإنجليزية، وكنا على ذلك نتفاهم بأصوات وحركات. وقد سألنى رب العائلة مرة: هل أنت محمدى؟ وكرر السؤال ثانية. وكان على أثر جوابى بالإيجاب يحادث السيدات اللواتى معه بالهندية.

قرأت بعد ذلك فى الجرائد أن معارك نشبت بين المسلمين والهندوس فى الهند من أجل بقرة يريد أولئك أن يمتهنوها، وهى عند هؤلاء مقدسة، وعندئذ فهمت السر فى ذلك السر فى ذلك السؤال المكرر. ومن مبلغ صاحبنا الهندوسى عنى أننى _ علشان العيش والملح _ لا أهين البقر ولكننى لا أعبده.

وبعد. فياليت المسلمين والهندوس لا يتناحرون من أجل حيوان معبود! تسير السفينة ثانية مسرعة تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب.، وكان ناس يقولون لا طعم لسفر البحر هكذا هادئًا صامتًا، لا ترقص السفينة فيه، ولا تغنى الأمواج.

إن لم تكن رقصت السفينة، فقد رقصت فوقها قدود هيفاء ترسل حركاتها الرشيقة مسايرة للأنغام الموسيقية. تنساب تلك الأقدام اللطيفة هفافة متراوحة الخطا، مسرعة مبطئة، فيرتج بعض الجسم ارتجاجًا خفيفًا، وتميل الأعالى، كصدور العوالى، ثم يحمى الوطيس، وتتعالى نبرات الموسيقى نغمًا سريعًا متواصلاً فكأنما تلك الأسراب طيور، وكأنما تلك الوجوه الشفافة شعلة من نار ونور، وكأن بدورًا تعانقها بدور. وكأن الأرض والسموات تمور.

تفرق الجمع ساعة للراحة فأويت إلى رفقة جلسوا ناحية يتبادلون الحديث: قال قائل منهم: لست أرى الرقص على ما فيه من رشاقة وجمال حاجة من حاجات المدنية ولا كمالاً من كمالاتها. ولست أتمنى أن يقتبسوا هذه العادة فيما يقتبسون من عادات الغربيين. فإن مدنيتنا المرجوة إذا امتازت بمسحة من الاحتشام كان ذلك زينة لها وجلالاً.

لكننى علمت أن النساء والفتيات فى بعض عائلاتنا الوجيهة جدًا يتهافتن على الرقص حتى فى المراقص العامة التى تقام فى الفنادق، وإذا كان لا بد لنا من

هذه المحنة فقد كنت أود أن تبطئ قليلاً إلى أن تثبت خطواتنا المزلزلة فى سبيل التربية والتعليم. إن الرقص مهما يكن من شأنه فهو متاع من رفه المدينة، ونحن لا نزال نلتمس من المدينة ما يسد الرمق.

أجاب ثانى الجماعة:

إن الرقص ليس حاجة من حاجات المدنية، ولا هو رفه من زوائدها، ولكن الرقص من حاجات الجماعة البشرية فى جميع أدوار حياتها.

ولسنا نعرف قومًا من البشر لا يرقصون، أهل البداوة لهم رقص ساذج غير متوازن، وأهل الحضارة لهم رقص أكثر نظامًا وأحسن انسجاماً، لا تخلو الأمم من الرقص إلا فترات فى عهود الانقلابات الخطيرة، أو الفتن العاصفة. ولقد جاءت أديان لا يناسب تقاليدها هذا النوع من اللهو الفطرى، فالتمست الغرائز البشرية لها منفذًا من جانب الدين نفسه.

وليست حلقات الذكر بطبقاتها وبدفها ونايها، وحفلات الزار بدقاتها، وبطبلها وغنائها، إلا تحلة للرقص عند النساء والرجال فى بلاد الإسلام. وإذا كانت حفلات الزار تطارد، لإقلاقها راحة الجيران، وحفلات الذكر تحارب لأنها بدع، وكنتم تحاولون أن تمنعوا هذا الرقص الفرنجى أن يصل إلينا، فأنتم تسدون المنافذ على ما فى الطبائع.

رويدكم إننا ناس من البشر.

أما الثالث فنفض رماد سيجارته ونظر إلى الجمع بعد إطراق وقال:

إن فى هذا الرقص جمالاً ولذة ومن الجور أن ننقص حظ الإنسانية من اللذة والجمال فليكن هذا المتاع فنًا من فنون الجمال تختص به طائفة تبرع فى أساليبه، وتمتع الآخرين بآثار براعتها، فيكون عندنا الرقص فنًا حيًا من غير أن يكون فى تقاليدنا أن يرقص أهل الحشمة والوقار.

سكت القائل الأول لحظة، ثم سعل، ثم قال مبتسمًا:

هذا رأى جدير بالنظر.

أما الثانى فصاح:

سيرقص أولادنا فى المهاد، وأنتم تمحصون الأنظار، وتقدرون فتضحك الأقدار.

عادت الموسيقى إلى عزفها، ودارت حركة الرقص فطربنا جميعًا.

٣(*)

يلقاك فى ليون صنفان من المصريين:

أحدهما المرضى الذين يهرعون إلى تلك المدينة الفرنسية الكبيرة ليستشيروا أطباءها المشهورين، وأولئك تعرفهم بسيماهم، لأن فكرة المرض، والتهمم بأقوال الأطباء المختلفة تجعل وجوههم الحديثة العهد بشمس مصر شاحبة، وعيونهم المسودة البراقة ساحبة.

كلما سمعوا بطبيب خفوا إليه سراعاً، فمحافظهم مملوءة بتذاكر الأطباء وحجراتهم مملوءة بزجاجات الدواء. مسيرهم إلى عيادة طبيب، أو معمل تحليل، أو محل صيدلى، ولا يزالون فى هذا التردد حتى يسوقهم القدر إلى اختيار بلد من بلاد الحمامات للعلاج.

تلك حال تجدها فاشية فى بلادنا، لا يقنع المريض ولا أهله بطبيب واحد ولا علاج واحد، وكثيرًا ما يؤدى ذلك إلى التراخى فى التداوى أو الخلط فيه وكلاهما ضار.

ولو أن لكل مريض منا طبيباً يعتاده، فيعرف تكوين بنيته وموطن الضعف فيها، وما هو مستعد له من الأمراض وتاريخ ما يصيبه منها، لسهل الاهتداء إلى الداء فى بدايته، والوصول إلى مداواته على الوجه الذى يوافق مزاج العليل.

(*) السياسة: الثلاثاء ١١ محرم ١٣٤٣ - ١٢ أغسطس ١٩٢٤.

وتقرير من مثل هذا الطبيب ينفع أساتذة الطب الذين يستشارون فى أوروبا ويسدد أنظارهم.

لكننا إذا لمنا مرضانا على ما بهم من هلع يورثهم ضعف الثقة بالأطباء فإنا لسنا أقل لوماً لأطبائنا، لأنهم فى الغالب لا يعنون بأن يقيدوا أحوال مرضاهم ويتعرفوا كل نواحى بنيتهم ومميزات مزاجهم.

ينظرون نظرًا محليًا إلى موضع الألم وما يشكو منه العليل.

وإذا كان عذر مرضانا أنهم فى الأكثر ممعودون، فلعل عذر الأطباء أن زبائنهم كثير، ووقتهم قصير.

* * *

أما الصنف الثانى من المصريين فى ليون فهم الطلبة.

أولئك إن تلقاهم، أرشدت إلى قهوتين فى أحسن مواقع المدينة واحدة للنهار وأخرى لليل، ومن الظلم أن نمهم أنك لا تجدهم فى غير القهوتين. فإنك تجدهم فى أماكن أخرى وفى الجامعة أيضاً.

ليس من السهل أن تتعرف أولئك الشبان من بين سائر الناس، فقد مسح عنهم طول المقام فى أوروبا شعث وادى النيل فابيضت وجوههم أو كادت، وسلست شعورهم ولانت بعد ما كانت كشعورنا خشنة مجعدة، وأريد شعور رءوسهم، أما لحالهم وشواربهم فمحلوقة حتى لتحسبهم جميعاً فى سن واحدة، اللهم إلا طالباً رأيته أرسل وترك من لحيته ما يقوم بالكفاية ويسقط الحرج عن الباقين.

صاحبنا من حملة الشهادة الأزهرية العليا، فلو حلق لحيته لنالته ألسنة الدينيين وكتب فى قائمة الملحدين.

والقيامة قائمة الآن فى أوروبا على الشعور فقد أصبحت النساء تقتص شعورها كالرجال سواء بسواء، فلم يعد لتلك الوجوه الفضية إطار من ذهب، ولم تعد تستطيع أن تقول مع الشاعر:

فكأنها فيه نهار ساطع   وكأنه ليل عليها مظلم!

صار كل ما قيل من الشعر فى الشَعر الطويل أثراً من الآثار، ولا بد من شعر جديد لهذه الشعور القصار.

ليست السيدات هنا قصيرات الشعر وحده ولكنهن قصيرات الأكمام. وقد استرعى نظر الكنيسة الكاثوليكية قصر الأكمام وسعة الجيوب إلى حد يكشف الذراع والعضد ورأس الكتف، ويهتك ستر النحور والظهور، ويفشى سر الصدور.

عدت الكنيسة ذلك إخلالاً بالحشمة الواجبة على المتدينات، خصوصاً إذا دخلن بيوت الله وتعرضن لرسم من رسوم الدين، فأصدر بعض أساقفة فرنسا منشورًا إلى من يتبعونه من القسس يأمرهم بأن يتخطوا عند منح البركات من تجيء إلى الكنيسة بهذه الثياب ثم يعظوها بالحسنى.

ومن الغريب أن بعض سيداتنا يسدلن النقاب على وجوه أذن الله أن تكشف ثم يبدين ما حقه أن يستر من أبدانهن ومواضع زينتهن، وفى ذلك من المخالفة للدين والكمال، بمقدار ما فيه من المنافرة لذوق الجمال.

لكن ليس لرجالنا الدينيين سلطان على النساء، إذ ليس لديهم بركة يمنحونها، فهل عندهم موعظة حسنة يسدونها؟

٤(*)

إلى مائدة بجانبى إنجليزى كان من رجال البحرية ثم أحيل على المعاش، وهو الآن يعيش أكثر العام سائحًا فى البلاد التى تعجبه ويطيب له المقام فيها، كان ماراً بباريس، فى طريقه إلى إيطاليا بلاد الجمال والفنون الجميلة. فمرض، لأول مرة فى حياته، وأشار عليه الأطباء بأن يذهب إلى إكس ليبان للتداوى بحماماتها.

وكثيرًا ما نجد فى الفنادق هنا نساء ورجالاً بلغت بهم السن ذروتها فهم يؤثرون أن ينحدروا إلى الأجل بين الغابات الملتفة، والبحيرات الصافية، والجبال العالية المكللة بالنباتات والثلوج ينتقلون فى البلدان اللطيفة عائشين فى الفنادق الزاخرة بأنواع الترف وأفانين البهجة والطرب، يتلهون عن أثقال الشيخوخة بمشهد الشباب خفيفًا حمله، لاعبًا لاهيًا، مستمتعًا بلذات الشباب . وإن الحياة هى الشباب.

ذلك مشهد يبعث فى نفوسهم تذكار ساعات من العمر زاهية، ولذات فى الحياة ماضية، وقد تكون الذكرى سلواناً، وإن كانت لفائت لا يعود.

(*) السياسة: الجمعة ٢١ محرم ١٣٤٣ ـ ٢٢ أغسطس ١٩٢٤.

فى الفندق الذى أنا ساكنه عدد من هذا النوع، ومن غريب ما لاحظته أن الشيخوخة ترد السيدات إلى سحن متشابهة وأشكال فى الجسم متقاربة لذلك أتحير فى تمييزهن وأحتاج فى تعرفهن إلى علامات.

أما الشيوخ من الرجال فمنهم من يأخذ الصلع ناصيته، ومنهم من يهبط الصلع على أم رأسه ومنهم ذو لحية وحليق.

رهيبة تلك الفترة من العمر التى يرى الإنسان فيها كل ما حوله من الكون ينمو ويبسم للحياة،ويرى نفسه ذابلاً كئيباً، يمشى إليه الموت مسرعًا وهو يدب فى حواشى الحياة دبيبًا؛ ذلك مع بسطة الرزق وسعة العيش. فما بالك بالفقر ينيخ بكلكله على تلك الهياكل المتهدمة؟ وليس عندنا فى مصر ملجأ مصرى واحد لمن يصبهم الفقر والهرم.

يتحدث إلى ذلك الجار الإنجليزى من حين إلى حين. وقد وعيت من حديثه طرائف. قال لى مرة، فى يوم من أيام الآحاد: كنت أمثل اليوم هذا الفندق ومن فيه من نساء ورجال فى الكنيسة وحدى. وقد عرض على القساوسة أن أطوف مع الطوافين لجمع الإحسان من حاضرى الصلاة فأجبتهم: ينبغى أن تمهلونى أربعًا وعشرين ساعة على الأقل للتفكير فى هذا الموضوع.

واسترعيت نظره إلى رجل أمريكى لا تكاد تراه إلا مطلعاً على صحيفة، أو ناظرًا فى مجلة، أو قارئاً لكتاب، حتى فى ساعات الطعام.

فقال صاحبى: ألست تراه ذا زوجة و أولاد؟ إنه يرفه عن نفسه الضجر بهذه المطالعات المستمرة!

ثم سألنى: هل أنت متزوج؟

قلت: نعم، أنا متزوج وأب.

قال: أما أنا فلا!

قلت: لمَ يا سيدى؟

أجاب: أنا وإن كنت من سعة العيش بحيث أستطيع أن أحيا حياة طيبة فإننى لست من الغنى بحيث أكفى مطامع زوجة وحاجات أولاد.

ثم إننى أخو عشرة وخال عشرة وعم عشرة. فما حاجتنا للمزيد؟

وزاد بعد ذلك: وإننى أحب الأنس بنفسى والسكون، وليس مع امرأة أنس فى الحياة ولا سكون! أليس ذلك صحيحاً؟

طلب منى الجواب فأخذت أنظر إلى اليمين وإلى اليسار فأجد مع كل رجل امرأة، سواى وسواه!

قلت: هل أكذب كل هؤلاء؟ فجعل يبتسم! وجعلت أبتسم!

وحدثنى مرة أن طبيبة تتقاضى منه مبلغاً من المال.

قلت: كم مرة رآك الطبيب؟ قال استدعيته مرة إلى الفندق أول عهدى بإكس ليبان، وبعد ذلك كان يلقانى فى الطريق فيحيينى ويسألنى: كيف الحال؟ ويعد ذلك عيادة، حتى صرت ألقاه فى السبيل فألتمس الفرار وأختفى عن الأنظار مخافة أن يلقانى بسلام أو يسألنى كيف الحال!

كنت أظن أن الإنجليز كلهم مثل الفيلد مارشال ألنبى لا يعرفون المزاح ثم تذكرت أن لورد ملنر كان يمزح، وأن لورد كيرزون كان يمزح.

ومن يدرى؟ قد يكون مستر ماكدونالد رئيس حزب العمال ورئيس الوزارة الإنجليزية يريد أن يمزح أيضاً؟

* * *

ليست إكس ليبان من البلاد التى يغشاها المصريون كثيرًا، على أننى وجدت فيها شابين مصريين من إخواننا البرابرة يشتغلان بالخدمة فى بعض المطاعم الكبيرة.

وقد أعجبنى أنه يوجد فينا من يدفعه الطموح إلى الكسب، للهجرة والمزاحمة فى ميدان هو من أشد ميادين الحياة تزاحمًا، ورأيت الشابين يسابقان زملاءهما من أهل البلاد والنازحين إليها فى الانتباه والنشاط والنظافة والنظام.

أخبرنى أحدهما أن فى نيس رجلاً من البرابرة أصبح غنيًا وله مطعم كبير يتوارد عليه من يريد التفكه بالطعام الشرقى والقهوة المصرية، قال إن فى مارسيليا قريباً له صاحب قهوة هناك.

سرنى أن يظهر المصرى عاملاً نشيطاً يلتمس الغنى فى أرجاء العالم بجده وسعيه، فإن بلادنا محتاجة أيضاً إلى أن يجدّ أبناؤها فى طلب الغنى.

وكم فى هذا العنصر العامل الذكى، عنصر البرابرة، من فضائل جديرة بأن تكون أسوة لسائر المصريين.

شىء واحد لا يعجبنى من إخواننا البرابرة! ذلك هو أن لهم كشافة.

إننى لست من أنصار تلك الجوقات التى تغدو وتروح بيننا بسراولها القصيرة وعصيها الطويلة، تتهادى فى الشوارع على دق الطبل والمزمار.

الغرض من الكشافة فيما أفهم هو تربية الناشىء على الحياة الخشنة، والنظام القاسى، والنجدة، وقوة العزم، وليست بنا حاجة إلى تعليم اللين والرخاوة، والضرب فى الطرقات بالهراوة.

٥

باريس! باريس(*)

يروى أن عالمًا كبيرًا من علمائنا ـ غير الأزهريين بالضرورة ـ كان قد غاب عن باريس زمناً طويلاً فى مصر، فلما عاد إلى ملكة المدائن، لم يتمالك أن ارتمى على أرضها وجعل يعفر وجهه فى تراب الحرية، وإن كانت حرية باريس لا يلحقها غبار.

كان ذلك قبل عهد الأتوموبيلات والأتوبيسات التى لا تترك الآن فى باريس شبر أرض خاليًا لعاشق يريد أن يرتمى ثم ينهض صحيحًا. وقد كان عالمنا ـ يرحمه الله ـ ضخماً طوالاً، وكان يحب باريس ويحب الحياة.

لست من هذا النوع من الغرام، بيد أنى أحب باريس حبًا جمًا.

دخلت باريس أول مرة بين صديقين كريمين، وكان أحدنا يلبس قبعة والثانى يلبس طربوشاً، وكان الثالث شيخاً معمماً.

أما الأول فتحلق به الفلسفة العالية فوق القبعات والطرابيش والعمائم. والثانى كان يحمل طربوشاً فقط، فأصبح يحمل لحية وطربوشاً.

(*) السياسة: الثلاثاء ٢٥ محرم ١٣٤٣ ـ ٢٦ أغسطس ١٩٢٤.

أما المعمم ، فمسكين، لايزال شيخاً معمماً.

وكلما دخلت باريس وجدتنى بين الصديقين العزيزين، وأبصرت القبعة والطربوش والعمامة تسير فى ذلك الموكب الدائم، فإن باريس تحتضن الذكريات ولو صغيرة، فى حرارة تحفظ عليها وجودها وحياتها، فليست تعود إليك خيالات بالية ولكنها تطالعك حقائق باقية. قد تجد للوحدة استيحاشاً حتى فى مسقط رأسك، وبين قومك، أما باريس فلا وحشة فيها، لأن المعانى والذكريات والآمال والماضى والحاضر كلها فى باريس كائنات متحركة تنهض بجانبيك.

باريس موجود حى، تنبعث الحياة من أرضه وسمائه، وصبحه ومسائه، ورجاله ونسائه.

باريس عظيمة، بكل ما تحتمل هذه العبارة من معانى الحياة والإجلال والجمال والذوق والفكر والانسجام والخلود.

فى باريس جمال يجمع بين أبدع ما يتجدد من نتاج الذوق والفن وبين جلال القدم، وقد نقل لى أديب عن شوقى بك أنه قال: إن باريس كالجواد الأصيل.

يزيد شاعر النيل: أن حسن باريس ذاهب فى غور الأجيال، يتغذى بالحديث والقديم، ويرجع إلى حب فى الجمال صميم، وعليه طابع الأصل الكريم.

ليست باريس صنع شعب من الشعوب ولا عمل عصر من العصور، ولكنها جماع ما استصفاه الدهر من نفائس المدنيات البائدة، وما تمخض عنه ذوق البشر وعقلهم وعملهم من آيات الفن والعلم والجمال.

باريس جنة فيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين،فيها للأرواح غذاء وللأبدان غذاء، وفيها لكل داء فى الحياة دواء، فيها كل ما ينزع إليه ابن آدم من جد ولهو ونشوة وصحو، ولذة وطرب، وعلم وأدب، وحرية فى دائرة النظام لا تحدها حدود، ولا تقيدها قيود.

باريس عاصمة الدنيا، ولو أن للآخرة عاصمة لكانت باريس!

وهل غير باريس للحور والولدان، والجنات والنيران، والصراط والميزان، والفجار والصالحين، والملائكة والشياطين؟!

* * *

زرت الحى اللاتينى، مجمع الكوليج دى فرانس والسوربون والبانتيون.

حى العلماء والطلاب، وحى الشباب، رعى الله الشباب! طوفت حول الجامعة، فإذا طلاب وطالبات برغم العطلة يغدون ويروحون تفيض محافظهم بالكتب والأوراق كما تفيض وجوههم الفتية بالنشاط والبشر، وإن علتها ملامح الجهد والفكر.

. هم من ألوان مختلفة، وبلدان شتى، وأكثر الطلاب الأجانب جدًا وعملاً وانتفاعاً بالمقام فى أوروبا هم اليابانيون - فيما سمعت - وأكثرهم رفهاً وانصرافاً إلى اللعب، وتضييعاً للدرس هم الرومانيون.

أما المصريون فليسوا من خير الطلاب ولا من شرهم، إلا أنهم ممتازون بالتأنق والرشاقة وحسن البزة، ولا يبدو على محياهم أثر للشحوب، فيقول قائلون: إنهم يرفقون بأنفسهم فى الدرس رفقاً يحفظ عليهم بهجة الراحة، ويقول قائلون: إن سمرة أديمهم تخدع الناظر عن سمات الجد والنصب، وآثار السهر فى المذاكرة والتحصيل، وكذلك شأن طلابنا فى مصر نفسها، وكلا التأويلين محتمل فى الجميع.

وإذا ذكر الطلاب المصريون، وجب إعلان الإعجاب بشبان تتزين بهم مجاميع التلاميذ المصريين فى بلاد أوروبا المختلفة ونسمع ذكرهم ثناء مستطاباً، وهم على قلتهم رجاء النيل والأهرام، وعزاء مصر اليوم وذخرها لمستقبل الأيام.

ولا يسع السائح المصرى إلا أن يسر سرورًا عظيمًا بإقدام فتيان من خريجى الأزهر ومدرسة القضاء ودار العلوم على السفر إلى أوروبا شوقاً إلى الكمال العلمى، من غير سابق تأهب للحياة والدراسة فى تلك البلاد، ومن غير بسطة فى الرزق ولامدد.

تجد منهم فى باريس وليون وجرينوبل، وقد يكون منهم فى غير هذه المدائن، وفى غير فرنسا. أولئك الشيوخ المجاهدون فى سبيل العلم يستحقون عطفاً وتشجيعاً.

* * *

ختمت زيارة الحى اللاتينى بحديقة ليكسمبور، وهى روضة ذلك الحى فيها جلاله وطابعه.

الأشجار العتيقة باسقة، قد اسودت جذوعها، واخضرت أعاليها خضرة مشوبة باصفرار، وشقت بين صفوفها مسالك. تظللها الأغصان المتشابكة، كأنك بينها فى سحر يتنفس صباحه فى أعقاب ليل، وكأنك فى تجلى الأسحار وفى هدءاتها، وترى التماثيل البديعة فى شعرها الصامت منسجمة فى ذلك الإطار البديع.

وبين حنايا هذه الظلال تجد فناناً عاكفاً على تصويره، ومفكرًا مستغرقاً فى تفكيره، وشاعرًا يستنزل الوحى من سماء الشعر، وعاشقاً يبث غرامه، وغزلاً يستمتع بالغزل.

ثم تخرج إلى ساحة تبسم الأنوار فيها والزهر، وتنحدر على درج، إلى البركة ذات النافورة، مرتع الأطفال اللاعبين بمراكبهم الصغيرة فى مياهها، ومن حولها دكك مفرقة لمن ليسوا أطفالاً.

لمحت فى بعض النواحى فتاة بيدها خطاب تقرؤه فيشرق وجهها بالسرور وتبتسم، وتلقاءها فتاة تكتب فى صحيفة، وتتلو ما تكتبه فتنحدر عبراتها.

وكم يأوى إلى تلك البركة من باك ومبتسم!

ليس ماءً ذلك الذى يجرى فى بركة ليكسمبور، ولكنه ذوب ابتسامات ودموع!

رويدكم أيها الأطفال العابثون بذلك الماء!

٦
الريف(*)

«لابد أن تقضى عندنا يوم الأحد لترى الريف الفرنسى وأهله، بعد أن رأيت الحمامات»

هكذا قال صاحبى الليونى، وزاد دعوته إلحاحًا بأن السيدة والدته تريد أن ترانى، وقد سرت يوم علمت بعودتى إلى فرنسا.

قال: وصورتك موضوعة فى حجرتها، ولولا أنها بنت خمس وسبعين لأدركتنى غيرة من ودها لك!

يا صاحبى لهدأ روعك ولو كانت بنت ستة عشر عاماً. لا يجوز العقد عليها بمقتضى القانون رقم ٥٦٠ لسنه ١٩٢٣ .

لاتخش منى فإنى كالنسيم ضنى   وما النسيم بمخشّى على الغصن

* * *

أصبح الأحد، وجاء صاحبى إلى الفندق يقود سيارته لنذهب معاً إلى منزلهم العائلى ومزارعهم، مسيرة ساعتين من ليون، وكانت إلى جانبه صديقة له تذهب لزيارة أهلها وتعود مع صديقها فى المساء لدى عودته.

(*) السياسة: الإثنين ٩ صفر ١٣٤٣ - ٨ سبتمبر ١٩٢٤.

كدت أحرج من هذه الصحبة، ثم تذكرت ما ورد فى بعض الأخبار: «الواحد شيطان، والاثنان شيطانان، والثلاثة ركب»! فطابت نفسى وسرنا ركباً نجتاز مدينة ليون وهى وادعة ساكنة؛ لأن اليوم يوم بطالة، ولأن الجماهير تشهد سباق السيارات فى بعض الضواحى.

فلما خرجنا إلى الريف استقبلنا وادى السون: جنة ذات نجم وشجر وبحيرات وأنهار، نرقى نجادها فنشرف على منظر يبهر العين جماله، كأنما نرى صورة أبدع الفنان رسمها وتأليف ألوانها، ثم ننحدر إلى وهاد، تحيط بها جبال ترفل فى غلائلها الخضر.

وحيثما وجهت وجهك فثم خضرة وماء ووجوه حسناء.

تبدو المنازل منشورة فى ذرى الربوات وأحضانها، وفى منحدر الوديان ومطمئن الأرض، وتجتمع أحيانًا قرى أو عزباً. وأما السبل فممهدة وإن ازورت بك ازورارًا، وذهبت يمنة ويسارًا، تحف بها الأشجار باسقة ألفافاً تحجب الشمس وتحجب المطر، وتأذن للنسيم وتأذن للنظر.

تركنا الفتاة غير بعيد من ديار أهلها وما كدنا نسير بعدها قليلاً حتى سكنت حركة السيارة لفراغ البنزين، ولم يكن بد من دفعها بالراح إلى محل تتزود منه زادها.

ظننت أن الشيطان قد ألم بنا حين لم نعد ركباً فشرب البنزين! وهممت أن أدعو عابرًا فى السبيل أو عابرة ليركب معنا فيقيء الشيطان ماشربه، وتذكرت أن بعض الفقهاء يقول _ كما فى كتبنا الدراسية: إن المرء إذا لم يسم أول طعامه، أكل الشيطان من طعامه فنقص، فإذا ذكر اسم الله بعد ذلك قاء الشيطان ما أكله، تحدثت بكل ذلك فى سرى، لكنى لم أبح بشيء منه لصاحبى، لأنه وإن كان رجلاً متديناً يؤمن بالله، ويقيم الصلاة ويذهب إلى لورد، ويعتقد بالجن والملائكة، فما أظنه بلغ من الإيمان إلى حد التصديق بأن الشياطين تقيء الطعام وتشرب البنزين.

* * *

مافتئنا ندفع السيارة إلى ربى تنحدر منها بعد ذلك وحدها، حتى وصلنا إلى حانوت أخذنا منه للسيارة وقودها فعادت تنتهب الأرض انتهاباً، إذا ما سابقتها الريح فرت، ولم تلق في يد الريح تراباً، ولكنها تنثر في يد الرياح أزهارًا مما تنبت الأرض حولها ومن فوقها ومن تحتها، وأوفينا على نجد في جبهته دار القوم، تحيط بها مزارع الكروم، وحدائق الفاكهة، ومراعي الغنم، وتقوم إلى جانبها مصانع النبيذ ومخازن الأثمار، ومرابط الخيل.

وانتهينا إلى ساحة وقف فيها رب الدار في ثياب قروية ليس عليها بهاء المدن، بل عليها مظاهر النشاط والجد. ذلك الرجل الموفى على الثمانين ينهض معتدل القامة مفتول العضل، وإلى يمينه زوجته تتراجع دونه قليلاً، وهي أطول منه قامة وأظهر شيخوخة على أنها أصغر منه سناً، فيها وداعة النساء ووداعة الهرم، وفيها للتقى وداعة أيضاً.

تقدم الرجل فحياني بقبضة يد لم تلن السن من صلابتها، وعلى وجهه طلاقة امرئ لم تخلق ملامحه للبسمات، وإن لم يكن فظاً.

وأقبلت من بعده السيدة، يتلألأ محياها بشرًا ناطقا بالسماحة والكرم وفي نظراتها من العطف والرقة والإخلاص ما يبعث في النفس أنساً بها، وحباً لها وإجلالاً.

هزت يدي مرارًا في قوة ولطف، وجعلت تسألني عن دقيق أمري وجليله أما زوجها فسألني عن مزارع مصر وأثمارها وكيفية الري وأمراض الشجر.

وبعد الغداء هيأت لنا السيدة مضجعًا واسترحنا ساعة ثم اجتمعنا في الحديقة نشرب الشاي ونسمر.

أراد صاحبي أن يرسم أباه بآلة مصورة معه، فأرسل إليه رسولاً وكان الرجل يتعهد خيله في مرابطها، فبعث إلى ابنه أن أقبل لتصور الجواد الأحمر.

ضحك الفتى. إذ ليس له ذوق أبيه فيعرف للخيل أقدارها، ولابد أن يكون الشيخ قد ضحك من ابنه المغرم بالفوتوغرافيا والأتومبيل، وهكذا تضحك الأجيال من الأجيال ويضحك الدهر من الجميع.

* * *

شهدت بين القوم حياة عائلية يوفر النظام وتوزيع العمل أسباب السعادة فيها. فالرجل يدير الشئون الخارجية بهمة وحزم على أنه يشاور امرأته ويستصحبها ويطلعها على كل صغيرة وكبيرة من موارده ومصادره، ومزارعه ومتاجره.

والسيدة تتولى سياسة المنزل وما يلزم لنظامه وراحة ساكنيه مع حفظ درجة الزعامة لرب البيت.

سألت السيدة: ما بالها لا تزور مدينة ليون إلا قليلاً، مع أنها قريبة منها وفيها ابنها، وحركتها إليها تنفع صحتها، وتنوع لها شكل الحياة؟

قالت: إن زوجي شيخ كبير، ولست أطمئن إلى راحته والوفاء بما يلزم لخدمته إذا تركت ذلك للخدم.

* * *

راعني ما وجدت من كرم القوم، في بساطة لايشوبها تكلف، وأكبر ما أثر في نفسي أن السيدة حينما أردنا الرحيل أخذت بيد ابنها وبيدي إلى ناحية من الحديقة نصبت فيها تمثالاً صغيرًا للسيدة مريم العذراء مهدت له بين الغصون والرياحين ووقفت بنا جاثية خاشعة متضرعة لأم المسيح ترتل لها توسلها المشهور.

خيل إلى عندما لحظت فناء السيدة في ابتهالاتها وتضرعاتها أن ذلك الحجر المنحوت يلين لتوسلها، وأن الآفاق تردد صوتها المتهدج خشوعاً وتقى، وأن ملائكة ذوي أجنحة تحمل دعواتها إلى العالم العلوي، وتحملنا مع هذه الدعوات، فلا نرى إلا أرواحًا وأنوارًا، ولا نسمع إلا صرير الأقلام في لوح القدر.

وبينما نحن مغمورون في هذه التجليات الآخذة بكلياتنا عن شئون هذا العالم، إذ يزعجنا بغتة صائح دنيوي هو نفير السيارة التي أعدت لنا فننتفض مذعورين. تصرخ السيدة وابنها: يامريم ياأم الإله! وأصيح وحدي ياسيدة زينب يابنت الإمام!

أما التمثال الصغير فقائم في مكانه ينظر وهو ساكت كبعض الناس سكوتاً بليغاً. وأما الأتومبيل فسارت بعد قليل في سبيلها تطوى لها الأرض.

٧

عيادة مريض(*)

بعد لأى أدركت القطار الذى يبرح محطة (ليون براش) تمام الساعة السابعة صباحاً فيصل (تتى) منتصف الساعة العاشرة، وكنت حاولت إدراك القطار ثلاثة أيام متواليات وهو يفوتنى لغير سبب إلا النوم يغلبنى على ما أحاول، وإذا كان النوم سلطاناً - كما يقولون - فهو ألطف السلاطين استبدادًا وأخفهم على الروح تحكماً.

النوم أحسن لذات الحياة، تشترك الروح فيه والبدن، ولست تحتاج فى التمتع به إلى جهد تبذله، ولاشريك يعينك على تحصيله، ولست تخاف من الإسراف فيه ضررًا يحيط بك، أو يقع على غيرك.

يقول ابن حزم: إن الإنسان يكدح فى الحياة ويجهد ليطرد الهم عنه.

وهل يطرد عنك أنواع الهموم جميعًا، ويرفه عنك كل عناء، إلا نومة تنقلك من عالم الحركة المتعبة إلى عالم السكون المريح.

النوم ملجأ المكروبين، يخفف عنهم مرارة اليقظة، ويضع على جراح قلوبهم

(*) السياسة: الخميس ١٠ ربيع الأول ١٣٤٣ - ٩ أكتوبر ١٩٢٤.

بلسمًا، وهو صديق للسعداء يقوى أعصابهم لاحتمال السعادة، ويدفع عنهم سأم استمرارها، ويصقل حواسهم للتمتع بها.

ينجيك النوم من رؤية الثقلاء، ومن سماع الثقلاء، وينجيك من ثورة الشهوات والمطامع، وفوران الأحقاد والضغائن.

قال الشيخ محمد عبده فى تفسير قوله تعالى «وجعلنا نومكم سباتًا»: «والسبات بضم السين الموت، والنوم أحد الموتين، ونعمة الله فيه كبيرة. فإن نوم بضع ساعات فى اليوم يريح القوى من تعبها، وينشطها من كسلها، يعيد إليها ما فقد منها، ولو لم يكن النوم موتاً واليقظة بعثًا لم يتم هذا التجديد للقوة».

النوم أحد الموتين، ونعمة الله فيه كبيرة خصوصًا فى مصر. وفى هذا الزمن، فإن الحياة أصبحت - فيما يظهر - ثقيلة منفردة.ألست ترى شبابنا الناهض يفر منها بالسكر والحشيش والأفيون والكوكايين والهروين.

وما أدرى لمَ يلجأ فتياننا إلى هذه المعالجات المتعبة، وعندهم موتان مريحان، ونعمة الله فيهما كبيرة.

* * *

ركبنا من (تتى) سيارة معدة لنقل الركاب وأمتعتهم إلى (هوت فيل) وازدحمت السيارة قبل مسيرها، ثم جعل الركاب يتواردون عليها فيتراكمون قيامًا وقعوداً، ما بين صفر اليدين ومملوء الحقائب.

وأكثر الركبان من عجائز الريف، قد رمى الله بالبركة فى جسومهن، فاهتزت وربت، وكلما اضطربت السيارة صاعدة أو هابطة مال الناس بعضهم فوق بعض، فتجدك تارة بين كتل لحوم بشرية، وتارة بين بقج ليست ألين من تلك الجسوم ملمساً، ولا أخف حملا، كل ذلك والسيدات يتضاحكن مرحات، ويتنادرن فرحات.

وقد يكون فى الأمر ما يدعو للمجون والضحك، لكننا مقبلون على (هوت فيل) مأوى المرضى الذين يتلمسون ما ضاع من صحتهم فى ثنايا الجبال وبين

الغابات فى بقعة ترسل الشمس إليها أشعتها متلألئة، ينكسر لآلاؤها فى أثناء تلك الخضرة الضاربة للسواد، كأنها ابتسامة فى فم محزون.

تسير السبيل مصعدة ملتفة، تشق الصخر والجبل إلى (هوت فيل) المتعالية الذاهبة فى الأفق، كأنها تباعد نازلها عن الأرض لتلتمس لهم بركة السماء.

«هوت فيل» بلدة صغيرة وديعة هادئة، يأوى إليها المصدورون فيجد فقراؤهم مستشفى تابعًا لمجلس المديرية، ويجد ذوو الغنى مستشفيات خاصة، أو يقيمون فى منازل.

هناك مروج أزاهير الجبال، وغابات مترامية الأطراف، وبرك تحيط بها الأعشاب، وهناك طيور تهتف أحياناً على أفنانها، فيكون لحنها أنينًا وحنينًا، أو يكون شدوًا يخفف بنغمات الأريحية والابتهاج ما يثيره الوسط من حزن وألم.

ينتشر المرضى فى مسارب الغابات، ومشارف الآكام، وفى شوارع البلد، هزيلة جسومهم، شاحبة وجوههم، ساجية عيونهم، تتردد الأنفاس فى صدورهم الموجوعة، ويختلج السعال فى رئاتهم المصدوعة، وتتهدج أصولهم مبحوحة من أثر الضعف والدواء.

وهم مع ذلك يبسمون للحياة والأمل، وإن كان ضئيلا حظهم من الحياة ومن الأمل، فقد صفى السقم نفوسهم من أكدار البشرية، فتكاد تراهم ملائكة تشف أجسامهم البالية عن هياكل من نور، ولهم جمال يبعث فى النفس إلى جانب الإعجاب رقة وخشوعًا.

مع كل واحد من أولئك المرضى مبصقة، يودعها فى خفاء ما يفيض به صدره فلست تلمحهم حين يبصقون. ولست ترى فى سبيل أثرًا لبصاق.

أما قومنا عفا الله عنهم - مرضى أو صحاحًا - فيبصقون فى كل مكان، ترى آثار لعابهم ونفثات صدورهم وخياشيمهم فى المتنزهات والطرقات، والمنازل وأماكن العمل، وفى عيادات الأطباء أيضا.

حدثنى صديق طبيب: أن سيدة مريضة جاءته يومًا مع زوجها، ولم تكد تستقر فى مجلسها حتى سعلت وبصقت على الأرض، قال الطبيب:فنهضت إلى مبصقة فى جانب من الحجرة ووضعتها بين يديها وقلت: أرجو ياسيدتى أن تبصقى فى هذه. وما هو إلا أن تممت حديثى حتى سعلت السيدة ولفظت بصاقها على الأرض.

ولما لمتها فى لطف على هذا الإخلال بأبسط قواعد الصحة والأدب انبرى زوجها مغضبًا يصيح: ألست تعلم أن الله يقول «ولا على المريض حرج».

قال محدثى: فأجبت الرجل بأننى وإن لم أكن من علماء الأزهر فإننى أعلم يقينا أن الله لايريد أن يقول إنه لالوم على المريض أن يلوث ببصاقه حجرة الطبيب، ومعاذ الله أن يكون الدين الذى جعل الطهارة من الإيمان مسوغًا للناس أن ينشروا فى الأرض أقذارهم وجراثيم أمراضهم.

ولقد سمعنا أن بعض علماء الأزهر كان إذا غضب من تلاميذه فى الدرس بصق فى وجوههم ويقال إن الحال تغيرت فى ما غير الدهر من شئون الأزهر ونرجو ألا تكون انعكست الحال.

قصدت إلى المنزل الذى جئت لزيارة أهله فوجدته بناء جديدًا حوله حديقة يشتغل فى تسوية أرضها عامل، إلى ناحية منه طفل ثلاثى يضرب فى الأرض بفأسه الصغير.

عرفت فى سحنة الصبى ملامح أبيه، فدلفت إليه.

- نهارك سعيد يا بنى!

- نهارك سعيد يا سيدى!

- أنت فلان الصغير؟

- نعم يا سيدى.

- أين السيدة والدتك وأين أبوك؟

- همـا خـرجـا مـعًا لزيارة بعض الأصـدقـاء فى هـذه المسـتـشـفى القـريبـة وسيعودان بعد ساعة.

- أشكرك يا بنى.

- لا شىء يستحق الشكر ياسيدى.

قال الطفل ذلك ثم عاد يسوى الأرض إلى جانب زميله الكبير.

فانصرفت أطوف فى تلك النواحى، وزرت مستشفى كنت عرفتها من قبل ثم رجعت إلى منزل أصحابى.

أما رب البيت فصديق قديم جمعتنى به صلات علمية أسست بيننا ودًا متيناً وقد اشتغلنا معًا، وتعاشرنا زمنًا، واحتفظنا بتذكار سعيد لعشرتنا الودودة.

أما السيدة فقد عرفتها منذ عهد زوجها وهى صديقة قديمة كزوجها، وإن كان غريبًا فى لساننا ذكر الصداقة بين النساء والرجال، وأشهد لقد أحاطتنى بعطف كريم، كثيرًا ما كان يبعثنى إلى الجد، ويذكى نشاطى ويحفزنى إلى غايات فى الحياة بعيدة، وكثيرًا ما كان لى قوة فى ساعات ضعف من ساعات الهلع الإنسانى.

هذه السيدة العزيزة مريضة اليوم، يذبل السل زهرتها، ويحاول أن ينال من بشاشة نفسها وقوتها، ونفسها أكبر من أن ينال منها ألم.

هى مضطجعة فى كرسيها الطويل، فى كنف المنزل، ونحن جلوس حولها ومعنا وحيدها الطفل، تحملها نوازع الحنو على أن تضمه إلى صدرها، ثم تشيح بوجهها عنه، وليس يدرى الصبى كم يحمل هذا الصدر العليل من حب له مكظوم، لو انبعثت قبلاته لأضاءت ماحولها.

أراد أصدقائى أن أبيت معهم، ولكننى كنت فى هم أريد أن أفرجه بعيدًا عنهم، فى هدأة من الليل موحدة، فتركتهم والشمس شاحبة فى حاشية الأفق، وكل شىء ساكن خاشع ينتظر الليل.

قبلت يد السيدة لدى منصرفى، فألقت إلىّ ابتسامة بعيدة الغور جعلت الحزن يسيل من كل ناحية من نواحى نفسى.

أيتها الابتسامة الأليمة! كم بعثت سرورًا وشرحت صدورًا ، وكم كنت أنساً للقلوب ونورًا.

ويا أيتها العليلة العزيزة!

شفى الله من أجلك كل عليل!

٨

إلى مصر(*)

السماء محجبة بالغمام، والأفق غير مضيء والمطر منهمر، كذلك تركنا (مارسي) إلى باخرة تعيدنا إلى مصر.

أما السفينة فهى (ووركشاير) من سفن (بيبى لاين) وتلك السفن معدة للنقل بأحسن من إعدادها للركاب، فقد رأينا بها خيلاً لكل جواد منها حجرة لاتضيق به، وكنا فى زنزانة ذات أسرة أربعة، فى كل جانب منها سريران أحدهما فوق الآخر، ولاتصل إلى السرير العالى حتى تتسلق عمدًا من الحديد، وتثب وثوب الفارس الماهر.

وقفنا فوق ظهر الباخرة، وهى تنحدر عن الشاطئ، نودع فرنسا التى جعلت تتراجع أمامنا، جميلة خلابة، يبلل القطر رداءها القشيب، وكأننا ننظر إلى الأيام التى قضيناها فى تلك البلاد ذكريات تبسم فى أثناء الجو العابس ثم تهبط وراء الأفق، مع مشارف المدن والجبال، كما تهوى الشمس للمغيب.

ثم نجدنا فى خضم لاتنتهى العين منه إلى مدى، وتصحو السماء، فهى صافية

(*) السياسة: الإثنين ٢٨ ربيع الأول ١٣٤٣ . ٢٧ أكتوبر ١٩٢٤.

زرقاء، ويصفو البحر، فهو شفاف أزرق، كأننا بين بحرين جمد أحدهما أو بين سماءين إحداهما تسيل.

* * *

الحياة فى الباخرة كالحياة فى المدن الأوروبية، فلا يكاد المسافر يحس بالانتقال من حال إلى حال، وإنما هذه البواخر بلاد أوروبية سيَّارة فى البحار.

ليس فى السفينة شىء غير أوروبى، إلا أولئك القائمين بالمهن الصغيرة من الهنود، تلك طائفة تلبس لباسها، وتعيش عيشتها، فإذا حل موعد طعامهم صفت لهم جفان من الرز، يتزاحمون عليها، فمنهم قيام حولها وقعود، ثم جعلوا يدفعون فى الأوانى أكفهم إلى أصولها ويحركونها حتى تمتلئ، ويسرعون بها إلى أفواه فتحت إلى نهاياتها، وميل بها إلى الوراء، ويدخلون أصابعهم إلى مغارسها، فتخرج سوداء من غير سوء، لم يبق فيها لبياض الرز عين ولا أثر، يتبادلون قللا من الماء، يعبونها عبًا ويصبونها فى أجوافهم صبًا، وينصرفون خفافاً نشيطين لا تسمع لهم تجشؤا، لأن طعامهم أبسط من أن يزحم معدة أويورث خمولا، وكذلك الطبقة العاملة الفقيرة عندنا.

إنما يتجشؤ الزعماء وكبار الموظفين والشيوخ والنواب والعمد والأعيان فإنهم يحشون بطونهم لحمًا وشحمًا، وفطيرًا، وفاكهة، حتى إذا اختمر كل ذلك فى أجوافهم فار التنور، وجعلت الغازات تثور وتفور.

لا يكاد يوجد فى الباخرة شىء غير أوروبى حتى المصريين من الركاب وكانوا عددًا غير قليل، فإن مجمعهم لم يكن من السهل تبين مصريته إلا بلغتهم العربية يتكلمون بها أحيانًا، وإلا بملامحهم التى يقربها التجميل من سحن الفرنجة.

* * *

فى السفينة من المصريين سيدات وأطفال وشباب وشيب.

أما السيدات، فمحياهن مشرق من غير صنعة، تبرق فى أساريره عيون ذكية

سوداء، أغناها عن الكحل، ولباسهن جميل فى حشمة وبساطة، وحركاتهن رشيقة من غير إسراف، رزينة فى غير خمول وحديثهن لطيف بلا تكلف.

والأطفال تفيض وجوههم فطنة ومرحًا، وتبدو عليهم آثار النظافة والصحة ومخايل الأدب والألفة.

أما الشبان، فلا وقاحة ولا رقاعة، ولا إسراف فى التزين والمياعة، ولا غرور فى جهل، ولا ثرثرة مع قلة العقل.

والشيب حية نفوسهم وضمائرهم، صادقة نظراتهم وبصائرهم، عفيفة ألسنتهم وقلوبهم، لا يثيرون شرًا ولا يحملون حسدًا ولا يتمنون لأحد ضرًا ولا يؤذون أحدًا.

ولقد كان بعض المصريين يقول لبعض: ما بالنا لا نرى هذه النماذج الطيبة فى مصر؟

تطالعنا الشوارع والحوانيت بنسوة وجوههن مشوهة بأصباغها وأدهانها، وشعورهن محالة عن ألوانها، وعيونهن غريقة فى كحلها، لا حشمة فى لباسهن ولا جمال، ولا رشاقة فى مشيهن ولا كمال، لاشىء فى حديثهن من السحر الحرام أو السحر الحلال.

والأطفال شاحبة وجوههم، رقيقة بنيتهم، فى نواصيهم ملامح الغباء وفى شمائلهم طابع النساء.

أما الشبان، فنعوذ بالله من الشبان. والشيوخ خارت عزائمهم وضعفت نفوسهم وآمالهم، وجعلوا فى يد الصغار قيادهم.

قد لا يخلو هذا الحديث من أثر التبرم، ولكنه ذكرى للذاكرين.

* * *

قضينا فى السفينة خمس ليال، كانت أوائلها ربيعية النفحات، لطيفة النسمات، وكانت أواخرها قيظًا، لايتحرك الهواء فيه إلا غرارًا، نفسًا ضئيلاً

حارًا، حتى جعل بعض المسافرين ينام الليل فوق ظهر السفينة، فرارًا من حجرات لاتجدى المراوح الكهربائية فيها شيئًا. بيد أن الحر لم يكن يمنع الركاب أن يعيشوا فى تبسط وسرور، ولهو ولعب ونسيان لمشاغل الحياة وأعبائها، وهكذا البحر، يخيل لك الحياة سهلة بسيطة، كأن ليس فى الحياة إلا سفينة تجرى فى البحر إلى مرساها.

* * *

ثم دنت مصر، فوثبت عواطفنا طفرة من حال إلى حال. وعرفنا هزة من الفرح تخالطها روعة الرهبة والجلال، كأننا حجيج بدت لهم مشارف البيت الحرام، وتجلت لهم مجالى القدس ما بين زمزم والمقام، أو كأننا جند أقبلوا على ساحة القتال فأظلتهم الأعلام والسيوف، ونظر إليهم النصر ونظرت إليهم الحتوف.

لم تكن مصر بعد فى منال النظر، ولكن القلوب تلفتت، وتلفتت العيون وكأن الهرم الأكبر قد أطل من عليائه، يحمل راية الماضى وراية الأمل وإلى جانبه أبو الهول راسخ رسوخ الجبل يبسم للدهر فى حالتيه، ويشهد تهافت الأجيال بين يديه.

وبتنا نرى فى الأحلام ما ينتظرنا فى اليقظة، حتى ألقت السفينة مراسيها مطلع الشمس فى بورسعيد، فنهضنا إلى أمتعتنا نرتبها، وإلى ملابسنا نغيرها.

كان معى فى حجرة الباخرة ثلاثة شبان. فيهم ظرف وأدب، وكنا على تفاوت السن، إخواناً على سرور متقابلين. فلما فتحوا عيونهم على شيخ يرفل فى أزرار مبعثرة، وذيول مجررة، وأكمام منشرة، ولفائف يهفو بها الريح أنكروا فى الصباح من عرفوا فى المساء، واستوحش الشباب الجديد من مظاهر الشيخوخة والقدم، وشعرت أنا نفسى كأننى خرجت من جيل إلى جيل.

* * *

أيتها العمامة:

أنت تذكار الماضى المجيد، وميراث الآباء والأجداد، ولوددنا أن تكونى تراثًا مخلدًا للأبناء والأحفاد.

كم توجت هامة كانت مفخرة الزمن، وكم زينت رأسا تزين بالفضائل والفطن. وكم كنت فى ساحة الوغى لواء، وفى ساحة المجد إكليلا، وكم كنت هالة تحيط محياً نبيلاً.

أيتها العمامة!

قد أصبحت تصد عنك وجوه النساء وتعبس لك وجوه الرجال، وصرت آية الضعف والتأخر فى نظر هذه الأجيال، أضربك من اتخذوك شعارًا لهم، وما كنت للجمود شعارًا، ومن لبسوك على أوزارهم فحملوك أوزارًا.

أيتها العمامة!

قد طغى عليك سيل الحديث، فكثر خالعوك، وقل لابسوك، بل شف جسمك النحول، كما شفت البراقع، ويوشك كلاكما أن يزول، فى هذا التيار المتدافع.

أيتها العمامة!

أنت عزيزة على كل حال.

٩

فى سبيل أوروبا(*)

الجموع زاخرة حول القطار الذاهب إلى بورسعيد بركاب الباخرة كأنك تشهد ركب المحمل. يومئذ كان لنا محمل يسافر إلى أم القرى فى مواسم الحج.

غير أن ركب المحمل كانت تشيعه الموسيقى صداحة تضم إلى جلال الاحتفال الدينى بهجة السرور الدنيوى والطرب. وغير شىء يسترعى النظر:

هو أن المودعين لزوار بيت الله الحرام كانوا فى شبه عرس يجمع مظاهر الأفراح على حين يبكى الحجاج أنفسهم ويختلط شهيقهم بزفير البخار ثم يذهب شهيقهم وزفير القطار بين أنغام الموسيقى وتهليل المهللين.

أما ركب السفينة المسافرة إلى أوروبا فقد كانوا فى غبطة وابتهاج. وسالت دموع كثيرين من المودعات والمودعين. حتى لقد صاح صديق عزيز كان إلى جانبى: إنى لأجهش بالبكاء ونزا القطار نزوة فإذا هو منطلق، وتركت صديقى لست أدرى أضحك بعد ذلك أم أبكى؛ ففى مصر مبكيات، وكم ذا بمصر من المضحكات!

* * *

(*) السياسة: ٢١ محرم ١٣٤٤ . ١١ أغسطس ١٩٢٥.

جمعتنا الباخرة ومعنا شيخ معمم. يجمع ملبسه بين شتى الألوان الزاهية. يضيع في ثناياها محيا شاحب يزيده وخط الشيب شحوبًا. فكأنما هو لفافة من قماش معصفر.

وقف الشيخ بمكان عال من السفينة، وكانت جبته خضراء، تضرب الريح في جنباتها فتموج في كل ناحية ويتضاءل إلى جانبها العلم البريطاني القائم هناك يخفق رويدًا، كأننا في باخرة مصرية هامتها العلم المصري الجديد.

التمسنا شيخنا بعد أن سارت السفينة وغاب عنا شاطئ بورسعيد، فلم نجد في السفينة شيخاً ولا شبه شيخ. ثم اهتدينا إلى رجل لم يبق له من المشيخة إلا تقاعس الجذع وتقلص الرقبة وانبطاح الجبهة فعرفناه. وقلنا سلاماً، قال سلام، ثم سألناه الخبر فقال:

ذهبت أشترى لنفسي ولبعض الرفقة كراسي مما يتخذ للسفينة. فلما جيء لي بما أردت إذا سيدة تتحدر إليَّ قصيرة غليظة عجوزًا مفرطحة الوجه بارزة الأنياب، وجعلت تبادرني بكلام لا أفهمه وأجيبها فلا تفهمني. ومر بنا صديق فسألها ماذا تريد؟ ثم جاءني ضاحكًا يقول إن هذه السيدة الإنجليزية حسبتك تبيع الكراسي.

قلت خبّرها يا أخي إننا شيوخ قد نبيع كل شيء إلا الكراسي.

وزاد الشيخ: فخرجت للسيدة الإنجليزية من ثيابي. وكم أخرج الإنجليز الناس من ثيابهم!

* * *

وإذا كان صاحبنا قد اختفى فقد ظهر في السفينة شيء آخر. سيدة من بني إسرائيل ذات دعابة ومرح مع أنها في منحدر العمر وممن له دنيا وآخرة على رأى أبي نواس. معها بنتاها فتاتان في نضرة الشباب واتصلت بثلاثتهن سيدة تركية لطيفة كانت وحدها فانتظم منهن عقد جعل ركنًا من أركان الباخرة مغدى ومراحًا للابتهاج والإيناس في مقابل أركان لعائلات مصرية كان يخيم عليها سكوت عميق.

عز على الشيخة اليهودية أن ترى حفلات موسيقى ورقص فى السفينة ثم لايكون للشرق منها نصيب. فدعت بعضنا إلى حفلة موسيقية شرقية راقصة.

وهناك فى القاعة الكبرى. أخذنا مقاعدنا حول البيانو نستمع إلى الشابة التركية توقع ألحان قومها الحزينة الرزينة. ثم أتت بالألحان المصرية المنعشة.

فانطلقت العجوز إلى بهرة الحلقة ترتج من خلف ومن أمام، وتجىء بالمتقن المؤسس على أصول الفن من الرقص المصرى، وثارت حميا الطرب فى الحضور وأخذوا يصفقون معًا مسايرة الأنغام والحركات. أما إخواننا الإنجليز خصوصًا فقد انصرفوا يعافون أن يروا امرأة تهزهز ما بين يديها وما خلفها.

وإنهم ليرقصون فلا يبقى من جسومهم المياسة شىء لا يميل به النغم.

ولو أنعم الله عليهم مثلنا ببطون لرقصوا فيما أظن ببطونهم أيضًا.

١٠
فى مارسيليا(*)

اشتقنا إلى البر بعد أن عشنا فى البحر أربع ليال. على أن سفر البحر لذيذ. يبعدك عن الأرض وما فيها من جن وإنس. وكأنما يبعدك عن السماء وما فيها من ملائكة وعوالم علوية، ولعل أهنأ العيش ما كان بعيدًا عن الجن والإنس والملائكة.

تستطيع فى البحر أن تعرف لذة المطالعة فى سعة من الوقت وهدوء وصفاء بال، وتستطيع أن تعرف لذة النوم فى الهواء الخالص الطلق ولذة الاستلقاء فى كرسيك الطويل من غير نوم، لا يشغل بالك ولا يقطع أحلامك زائر وتستطيع أن تلعب القمار وغير القمار، وأن تستمع بالحديث والسمر وتستمع بظلام الليل وغبش السحر.

وقد استمتعنا ببعض ذلك. والحمد لله. ثم غدونا إلى مارسيليا صبحًا، وكان مع كثير منا سجاير مصرية يريدون أن يمروا بها من غير أن يؤدوا إتاوتها وتلك عقبة لا يذللها إلا ما فى عمال الجمرك الفرنسى من ظرافة تكلفك قروشًا معدودة.

(*) السياسة: الأربعاء ٢٢ محرم ١٣٤٤ - ١٢ أغسطس ١٩٢٥.

ولما خرجت من الجمرك بما معى من السجاير شعرت بوخز فى مكان الفضيلة من نفسى. فإن هذه هنات مهما تمحلنا لها أعذارًا لا تخلو من غمز فى قناة الخلق.

زرت فى مارسيليا كنيستها الشهيرة _ نوتردام دى لاجارد _ القائمة على ربوة عالية تشرف بك على تلك المدينة كلها وتريكها صورة ذات ألوان بديعة مرسومة بشوارعها وحدائقها ونجادها ووهادها وضواحيها، والبحر الأبيض المتوسط حولها نطاق من سندس أزرق.

صعدنا فى مصعد تارة وتارة على أقدامنا. حتى بلغنا المعبد. وكنت أحسبنى لا أرى إلا أجانب يزورن الآثار الفنية ويشهدون منظر المدينة البديع من ذلك المكان العال، لكننى رأيت فى نواحى هذه الكنيسة الصعبة المرتقى فى جوف ظلامها المؤنس الرهيب عبادًا يخرون للأذقان سجدًا فى خشوع وإيمان متوجهين إلى ربهم بقلوب تدفعها صدمات الحياة إلى التماس العزاء فى كنف رحمته. فى سذاجة لا يعرف الشك سبيلا إلى يقينها.

فاللهم إيمانًا كإيمان العجائز! أليس الدين جميلا فى إخلاصه ويقينه؟ وجميلاً فيما يمسح من آلام البشر بيمينه؟

إنما يشوه الدين أولئك الذين يريدونه كيدًا وتضليلا وقيدا للعقول والقلوب ثقيلا.

* * *

زرنا بيت الله فى الضحى. وعند الأصيل خرجنا إلى متنزه مارسيليا الأكبر ـ الكورنيش.

ولقد يخيل إليك حين تخرج من الميناء إلى المحطة أن مارسيليا بلد فيه فخامته وفيه حركته، لكن جماله قليل، وأنت إذا طوفت فى الكورنيش رأيت نواص ظريفة. تكلل الغابات هامتها الذاهبة فى السماء. ويمتد البحر من تحتها إلى غير مدى.

آوينا إلى مطعم هناك، نرقى إليه فى جنة عالية ملتفة الأشجار تصل بك إلى بناء أنيق تحف به الجبال فى حلل من الأزهار والرياحين.

وكأنك فى سفينة حين تنظر إلى البحر منبسطًا بين يديك، تضطرب أمواجه بيد أنك تشعر بأنس المقيم، ولذة النعيم، والموسيقى تصدح فى ناحية فترسل أنغامًا حلوة يحملها نسيم البحر ممزوجة بحفيف الأمواج والأشجار وهمس التناجى وابتسام الحسان.

كل ما حواليك هادئ باسم جميل يبعث فى نفسك عواطف هادئة باسمة جميلة.

المكان لطيف رشيق معد لنزهة الطبقة العالية من أهل مارسيليا يجدون فيه مشهدًا يريح النظر وسكينة تجمع شتات النفس وعيشًا رغدًا.

وقد خرجت من هاتين الزيارتين معتقداً أن فى مارسيليا تقى، وفيها ذوقاً. وما أحسن التقى مع الذوق. على أنه فى مارسيليا غير الذوق والتقى أيضاً.

ودعت بعض الأصحاب فى المحطة منتصف الليل ثم ركبت سيارة إلى الفندق ولما دفعت الأجر رضخت للسائق رضيخة رآها قليلة فصاح مغضبًا.

أهذه رضيخة سائق بعد نصف الليل؟ وقذف فى الأرض ما أعطيته. هنالك ثارت فى نفسى حفيظة وخالطها هلع من شر هذا السواحلى المفتول العضل المخمور من نبيذ آخر الليل.

وظن وقفتى الهادئة ونظرتى الساجية تحفزًا للبطش فطار بسيارته لايلوى وتركنى أقول فى نفسى: أليس خوف الناس من مظاهر القوة وخنوعهم لها يكون فى كثير الأحيان هكذا وهمًا قائمًا على ظواهر خادعة من ورائها ضعف وخور؟

١١

المشية الجديدة(*)

كنت سمعت إذ أنا فى مصر أن قد جاءنا فيما يرد من مستحدثات أوروبا نوع من المشى جديد تهافت عليه نساؤنا ويقال إن بعض شبابنا هفا إليه.

أردت أن أتعرف هذه «المودة» وأبحث مناشئها فى هذه البلاد التى ابتدعتها ثم أرسلتها إلينا فتنة فيما ترسل من فتن.

لاحظت منذ وطئت قدماى هذه الأرض أن فى مشية النساء بدعًا يكون فيه أحياناً جمال وانسجام ويخرج فى بعض الأحيان عن حدودهما.

ولما جئت ليون - وعهدى بليون بلدًا ذا حشمة وجد - وجدت نساءها أيضًا ترقص بعض نواحيهن إذا مشين.

سألت إحدى السيدات: ما بال هذه المشية الجديدة؟ فأجابت: أظن أن شغف النساء بالرياضة البدنية وعنايتهن بمظاهر القوة والنشاط حتى لا يظن بهن قصور عن مساواة الرجل فى قوته ونشاطه، كل ذلك يبعثهن إلى سرعة الحركة

(*) السياسة: الخميس ٨ صفر ١٣٤٤ - ٢٧ أغسطس ١٩٢٥.

والمشى عن عجل. ولعل إسراع الخطو هو الذى يحرك ما تراه يتحرك من جسومهن.

قلت ياسيدتى إن الرجال فى كثير من البلاد يعنون بأنواع الرياضة البدنية ثم إن شئون الحياة تدعهم دعًا فلم لا يهتز من جسومهم شيء؟

عندئذ ابتسمت السيدة وقالت: إن النساء على كل حال أقل جمودًا وألين عودًا.

هذا رأى سيدة شيخة تمشى رويدًا تحت السنين فلا يضطرب من بدنها إلا ما يرتجف من الضعف والهرم.

أما السيدة الفتية فرأيها أن «الكرسيه» كان يشد أجزاء الجسم. فلا تتخاذل أسافله وأعاليه. فلما رأى النساء أن يخلعن هذا النطاق الضيق وهن خصرهن النحيل عن حفظ التماسك بين ما فوقه وما تحته، فراحت الأرداف ترتج ولم يكن ذلك فى أوله إلا يسيرًا مهذبًا تتضح به تقاسيم الجسوم الهيفاء، وكان لا يخلو من نفحة جمال فنى. لكن بعض النساء أردن الاستزادة فأملن الاستزادة فأملن أعطافهن لتزداد أردافهن اضطراباً. ثم أرسلن على الردف الحزام، وكان ذلك سرفاً ضاعت فى ثناياه بهجة الجمال الأول. ويظهر أن النساء تنبهن أخيرًا لذلك فهن يتراجعن لتلافيه رويدًا.

وإذا كان هذا السبب أو ذاك منشأ لبدعة المشى الجديدة. فإن هذه الأسباب لا وجود لها بيننا فى مصر. ومن عجب أن تأتينا المسببات بلا أسبابها. على أن الحوادث تهزنا كل يوم رأسًا على عقب، فما لنسائنا - عفا الله عنهن - يزددن هزًا؟

مهلاً بنات النيل. فما كل جميل عند القوم يكون عندنا جميلاً. ثم إن ما ينبغى من تلك الجسوم ضئيل ونحن نثير كثيبًا مهيلا.

١٢
فى جرينوبل(*)

هذه جرينوبل يجرى نهر الأيزر من تحتها وتحيط بها الجبال الرائعة فى زينتها، وجرينوبل مدينة لطيفة تعجب النظار، وأى شىء لا يعجب فى فرنسا الجميلة العظيمة لولا ما تثير من حرب على عبد الكريم؟(١)

وفى جرينوبل معرض للفحم الأبيض وما يتعلق بالسياحة يجعل توارد الزائرين عليها غير قليل فى هذا الأوان.

وقد زرت المعرض مرارًا فى النهار فرأيت آلات كهربائية وأدوات بخارية ورسومًا جغرافية وأشياء صناعية ثم زرت المعرض بالليل وهو لجة من أنوار ومن جماهير. قالوا إن هنا فرعًا لمطعم باريسى شهير بطعامه ولهوه نتعشى فيه ثم نشهد الرقص.

قلت: أما العشاء فلى به حاجة، وأما رقصكم فلا حاجة لى به، ودخلنا إلى أرمنون فيل . فوجدنا عقودًا من الأنوار مريحة وباقات من الأزهار منسقة تتلألأ

(*) السياسة: الأحد ١١ صفر ١٣٤٤ - ٣٠ أغسطس ١٩٢٥.

(١) يقصد على الشيخ عبد الكريم الخطابى المناضل المغربى الشهير الذى تصدى للاحتلال الفرنسى خلال أوائل العشرينيات وأقام دولة مستقلة فى الريف لكن الفرنسيين والإسبان تكاتفوا لإسقاطه عام ١٩٢٥.

بينها وجوه غراء، وعزف العازفون بآلات الطرب، حتى إذا فاض المكان بالنور والبسمات وامتلأ أفقه نغمًا وأنفاسًا ودخانا تهيأوا للرقص، ووزعت حبال من الأوراق ملونة وكرات صغيرة يتقاذفها الحاضرون تلهيًا وتبسطاً. ثم رقص الراقصون وتقاذف المتقاذفون وانبعث السرور واللهو من كل ناحية، وخف كل شيء فى المكان إلا رجلا ظل ساكنا كأنما يرزح تحت عبء ثقيل. وقد استرعى سكونه الأنظار فتساقطت عليه هذه المقذوفات تريد أن تزلزله فلا يتزلزل.

هناك تذكرت حكاية المرحوم السلطان حسين كامل حين دخل عليه رجلان من رجال النيابة العمومية. فقال لأحدهما: أنت ثقيل فخف. وقال للآخر: أنت خفيف فاثقل.

وقد خف أولهما ولم يزل يخف حتى صار وزيرًا وثقل الثانى فلا أدرى أين هو الآن.

هممت أن أقول للرجل أنت ثقيل فخف. وإذا هو ينظر إلى بعض الراميات وينشد:

ألا رب يوم لو رمتنى رميتها   كن عهدى بالنضال قديم

ثم جعلت روح البيئة تعمل فى نفسه وتؤثر فى حواسه وعصبه، حتى لرأيت النغم يستفزه، وخيل إلىَّ أن فى أعماق نفسه صبوة تريد أن تفور وأن تجد متنفسًا.

قلت: ياصاحبى هون عليك مالك لا ترقص وتلهو وقد علمت أن لاجد لمن لا يلهو.

قال: يمنعنى من ذلك أمران:

شعرات بيض يصحن فى ناصيتى فهن يذكرننى بقول الشريف الرضى:

تخطى المشيب إلى رأسه   وقد كان أعلى قباب الشباب

ثم إن لى طفلة أخاف إذا كبرت أن تدرى أن أباها رقص.

١٣

فى إكس ليبان (*)

عند أطلال فندق

فى العام الماضى زرت إكس ليبان لأول مرة، وقضيت فيها أكثر من شهر، وكان مقامى بها فى فندق من خير فنادقها يطلع على المدينة من ربوة متلألئا بأنواره وبزواره.

هذا هو نزل البيون. وقد التهمته النار فى الشتاء كما ذكرته الجرائد فى حينه.ولما كنت كما يقول أبو الطيب:

خلقت ألوفا لو رددت إلى الصبا   لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

فقد رأيت مذ حللت إكس أن أقضى حق الزيارة لذلك المنزل الخراب الذى أنست به عامرًا وعشت فى ظلاله دهرًا.

وإذا كان الوفاء قد غاص فلا تكاد ترجو عند أكثر الناس وفاء للود، ولا وفاء للحق ولا وفاء للعدل ولا وفاء للذمم، فإننا لا نريد أن نخون عهد هذه الجمادات التى إن لم تجز على الوفاء إحسانا، فهى لا تجزى به - على كل حال - شرًا.

(*) السياسة: الإثنين ١٢ صفر ١٣٤٤ - ٣١ أغسطس ١٩٢٥.

عن يمينك إذا استقبلت الحمامات مطلع فوق جبهة الحديقة الكبرى يأخذ بك رويدًا إلى الجانب العالى من إكس ليبان. فإذا سرت غير بعيد وجدت قصورًا وجنات يروعك حسنها وزينتها، وهناك فوق ثنية عند منعطف السبيل جدران تركها الحريق متشحة بسواد، وقد بقى فى أعلاها اسم ألبيون لم تمسه النار.

وماتنفع الأسماء _ وإن كانت شامخة فى السماء _ إذا كانت معانيها خرابا.

وقفت بين تلك الأطلال فمرت بخيالى صورة الفندق وهو عقد يزين جيد المدينة أيام ساحاته مراتع آرام ومورد عذب كثير الزحام، وأيام حجراته مطالع أنوار، وأكمام أزهار، وأوكار أطيار، ومستودع أسرار.

ثم تمثلته واللهب يتصاعد من نواحيه فخيل إلىَّ أن ليست الأشياء المادية هى التى تحترق وحدها، ولكن ذكريات شتى تأكلها النار فيما تأكل فينبعث لها لهيب مختلفة ألوانه، ومختلفة نفحاته فههنا ذكرى لذة وهناك ذكرى ألم.

ثم سنحت عصافير ترعى بين الدمن كأن صفيرها الرقيق نغم آتية من مكان بعيد، ولعلها ذكريات، أعجز النيران أن تحرقها.

وعلى حين فجأة انفرجت الحشائش المتراكمة عن حيوان يثب بين الطلول ففزعت العصافير، ووليت مسرعًا أحسبه الوحش الذى فر من حديقة الحيوانات بباريس، وإذا ثعلب ينفلت إلى حرم كنيسة هناك.

أعوذ بالله! حتى فى عالم الذكريات ثعالب مفزعة تأوى إلى بيوت الله.

١٤

فى إكس ليبان أيضًا(*)

نركب «الأوتوكار» وهو من نوع الحلزون فى لسان قومنا، إلى نزهة حول بحيرة «إنى» من النزهات اللطيفة، تمتعك بالبديع من مشاهد الطبيعة وكم من مشهد بديع فى هذا الجانب من فرنسا!

أما سائق السيارة فقد أقبل بعد فوات الموعد المضروب. وبعد أن أظهر الركب تبرمًا وضجرًا من الانتظار، أظهروا ذلك تهامسًا بينهم فإن أحدًا لا يستطيع أن يجهر بالقول لسائق سيارة فى فرنسا أو يخاطبه فى غير إدهان.

وإذا كانت الشكوى عامة مما يبدو فى أخلاق الطبقات العاملة فى البلاد الفرنسية من الجفوة والتمرد فإن السائقين على اختلاف أنواعهم هم أشد الطبقات جفوة وتمردًا وقلة مبالاة أن يسوقوا الناس إلى هلاك أم إلى سلامة. وحوادث القطارات كحوادث السيارات شنيعة متكررة كل يوم تفيض دماء وأرواحًا.

استوى صاحبنا السواق على عرشه وسار ينتهب الأرض انتهابًا فى طرق صاعدة هابطة متلوية، وكانت المناظر اللذيذة تمر بنا ونحن عنها فى شغل بما يساورنا من خوف هذه العجلة.

(*) السياسة: الأربعاء ٢١ صفر ١٣٤٤ - ٩ سبتمبر ١٩٢٥.

وأقبلنا على فج منبسط يشق مروجًا وقرى، فإذا فلاح وديع يقود عربة محملة يجرها حصان، ويجانب الرجل كلبه الأمين يسايره لا يتقدم عنه ولا يتأخر تحسبهم جميعا يتناجون لما ترى من تدانيهم وتبادل العطف بينهم.

داس السائق الكلب بسيارته فتركه جثة هامدة ومر كمر البرق. ونحن ننظر إلى الفلاح واقفاً بحصانه إلى جانب الأشلاء الممزقة جامدًا لا يستطيع تكلماً ولا حراكا، ولو صوره مصور لشهدت الثكل شخصا ماثلا.

وتصايحت السيدات جزعًا، فكان صياحهن تعزية يحملها النسيم إلى ذلك المحزون الواقف هناك محتاجًا إلى عزاء.

وظلت السيارة تنحدر السيل حتى شعرنا تترنح وتميل، والمارة تهتف بالسائق والركاب يرددون الهتاف ليستوقفوه.

ثم بدا له بعد لأى فوقف ونزل السفر. وعندئذٍ سقطت عجلة كان مساكها قد تطاير.

لم يصب أحد بأذى. لكننا بعيدون عن المدن، وإصلاح السيارة يحتاج إلى أدوات لا توجد إلا فى مدينة فلنذهب إلى إكس مشاة.

سار الركب ولا بد أن يتحدث السمار. فسمعت سيدة تقول لصويحباتها. لم يكن مقروناً باليمن طالع هذه النزهة!

قالت الأخرى: ألا يكون معنا قسيس من حيث لا ندرى؟ وجعلت السيدات يتصفحن أوجه الرجال متضاحكات.

قال الشيخ: هنالك تذكرت قول شاعر الأزهر:

الشيخ والقسيس قسيسان   وإن تشأ فقل هما شيخان

فتصببت عرقًا، وأخذت ألوى وجهى وأحرف ملامحه، وأصد عن تلك النظرات اللاعبة مخافة أن يصبح لعبها جدًا. ثم قلت فى نفسى: هنيئا للشيخ على عبد الرازق قد خلصه الله من الشؤم فى نظر السيدات!

١٥

بين باريس ولندرة (*)

تدخل باريس محزونا فيذهب عنك الحزن وتدخلها ضجرًا فيفارقك الضجر. وتكون مثقلاً بأعباء الحياة فتخفف عنك باريس أعباء الحياة.

باريس بسامة فلا يعرف العبوس إليها سبيلا. وجميلة لا ترى فيها إلا جميلاً.

إن صدئ ذوقك فباريس تصقله وإن خمد ذهنك فباريس تشعله.

إذا شئت جدها وجدت من باريس معينًا على الجد وإن شئت لهوها لم يقف بك اللهو عند حد.

أما معرضها معرض الزخارف فآية من آيات الذوق والجمال فى موقعه على شاطئ السين فى نهاية الميدان الأكبر، ميدان الكونكورد، ويتوسطه الجسر الأنيق، جسر الإسكندر، وهو آية من آيات الذوق والجمال فى ترتيب وتنسيق معروضاته وفيما حوى من ظرف الصناعة وآثار الإبداع.

فإذا جن الليل كان المعرض سماء تتلألأ فيها الكواكب من كل جانب مختلفة أشكالها وألوانها على نسق يبهر الألباب ويثير كل ما فى النفس من بهجة وإعجاب.

(*) السياسة: الإثنين ١٥ ربيع الأول ١٣٤٤ . ٢٨ سبتمبر ١٩٢٥.

ولما قضينا من باريس كل حاجة، ومسح بالأركان من هو ماسح، قال رفيقى: «نذهب إلى لندرة فى طيارة».

يغفر الله لك يا رفيقى! وهل يناسب وصف العالمية أن نرقى بطيارة إلى الأفق الأعلى فنزاحم الملائكة بالمناكب عند أبواب السماء أو نتشبه بالجن فى استراق السمع؟

قال: فالأمر هين نستفتى فى المسألة شيخ الأزهر أو مفتى مصر وننتظر الجواب.

يغفر الله لك مرة أخرى! إن شيخ الجامع الأزهر ومفتى مصر وإخوانهما لم يردوا تحية الإسلام فى إدارة المعاهد الدينية، وقالوا لمن ألقى إليهم السلام: لست مؤمناً. فهل تطمع فى الرد على استفتاء يرسل إلى حضرات أصحاب الفضيلة من باريس؟

ثم قضينا أن نذهب إلى لندرة من طريق البر والبحر وتركنا سبيل الجو لمن لا يدخلون فى حكم المادة ١٠١من قانون نمرة ١٠ للأزهر والمعاهد الدينية.

تناولنا غذاءنا فى القطار الفرنسى الذاهب من باريس إلى كاليه. وكان على مائدتنا رجل إنجليزى فرغ من طعامه وعرف أن حسابه خمسة عشر فرنكاً، فدفع للغلام ستة عشر، لكن الغلام رد الفرنك الزائد، فأخذه الرجل بكل هدوء وانصرف هادئاً. وجعل الغلام ينظر إليه شزرًا ويصيح: ما أعجب هذه الفطر!

وبهذه المناسبة حدثنى بعض الإخوان أنه كان فى لندرة وركب سيارة فلما رفع الأجر ترك للسائق شيئًا زهيدًا وأراد السائق فى لندرة أن ينبهه فى لطف فقال له: إنك ياسيدى أخطأت الحساب فأديت فوق ماعليك. ورد إليه الزيادة وانصرف.

ثم ركبنا المانش من كاليه فعب عبابه واضطربت أمواجه حتى أخذ الدوار كثيرًا من المسافرين. ولقد رأيت سيدة تسير متزلزلة فوق ظهر السفينة القلق ثم غلبها الدوخان فانتحت جانبا وبعد قليل شهدتها شاحبة. ورأيت بعض الخدم يعدو ومعه أدوات التنظيف، ولو لم تكن السيدة إنجليزية لسمعت زفيراً وزحيراً وشهدت شيئا كثيرًا.

ودخلنا عاصمة الدولة البريطانية، فإذا مدينة فخمة متباعدة الأطراف تموج بساكنيها وتمتاز بالنظافة والنظام فى مظهر عزة وجد وحشمة.

كل شىء فى لندرة إنجليزى يسير إلى غايته سيرًا حثيثًا فى رزانة وسكون ونظام.

ليست الشوارع أقل من شوارع باريس حركة ولكنها أقل اضطراباً فأنت تخترقها مطمئنا لا تخاف سيارة تهاجمك ولا ترامًا يصادمك.

لندرة ساكنة لا تسمع فى مجامعها ولا شوارعها ولا نواديها إلا أصواتاً متخافتة لولا آلات البخار.

أما باريس فكل شىء فيها يصيح كأنما هى دوحة تتجاوب الأطيار على أفنانها الراقصة وأول ما يصيح فى باريس الجمال.

وكم فى لندرة من جمال لا يصيح.

أما معرض ويمبلى فهو فى طرف من أطراف المدينة لم يراع فيه جمال الموقع كما روعى فيه اتساعه وصلاحيته لما أعد له. وقد أعد لأجزاء الإمبراطورية العظيمة تعرض فيه مناظرها ومواصلاتها وحيواناتها وحاصلاتها وصناعاتها.

مهدت فيه الأسباب للتنقل بين أنحائه وتعرف كل ما يحتاج إلى تعرفه فى يسر وراحة مهما تزاحم الناس وكثر عددهم.

أظهر ما فى معرض باريس حسن الذوق ومظهر الجمال.

أما معرض لندرة ففخم يجمع إلى مظهر العظمة تحقيق أغراض اقتصادية مادية قلت إنك واجد فى باريس كل ماتشتهى من جد ولهو، ولكن شيئا واحدًا لا تجده فى باريس وهو الراحة؛ لأن عاصمة الفرنسيس تهز قلبك هزًا عنيفًا وتحرك عقلك تحريكاً شديدًا ولا تترك لجسمك فترة فى ذلك المضطرب الهائج.

أما لندرة ففيها سكون مريح وفى كل جوانب الحياة بها اعتبار للراحة من غير إخلال ببواعث النشاط والقوة والجد.

وإنى على شغفى بالراحة إلى باريس:

نصحتك علما بالهوى والذى أرى   مخالفتى فاختر لنفسك ما يحلو

١٦

فى لندرة (*)

لم أكن رأيت لندرة ولا شهدت حياة الشعب الإنجليزى، وكانت قد بقيت فى ذهنى صورة للجنود الأستراليين يسيرون سكارى فى شوارع القاهرة.

فحسبت لندرة تفيض بصرعى الباسو والويسكى، وأنا أعزف عن السكارى ويزعجنى مرآهم، ولعل ذلك من الأسباب التى كانت تثبطنى عن زيارة البلاد الإنجليزية منذ زمان.

وأشهد ما رأيت فى مدة مقامى بلندرة من تأخذ الخمر بلبه ويمشى بين الناس، واللهم إلا مرة واحدة، كنت راجعاً من معرض ويمبلى فى حلزون فركب معنا رجل من العمال كهل طويل نحيل رث الملابس يدل على السكر تقلب نظراته وتخاذل حركاته، لكنه جلس صامتًا حتى نزل. وقد يكون أثر البؤس فى اختلال ميزانه أكبر من أثر المُدام.

ليس الشعب الإنجليزى من أقل الشعوب ولعًا بالشراب لكنه من أقلها سكرًا. أما نحن فى مصر فقد نكون من أقل الأمم شربًا للخمر ولكننا من أكثر الناس سكرًا.

(*) السياسة: الأحد ٢٣ ربيع الأول ١٣٤٤ - ١١ أكتوبر ١٩٢٥.

وحسبك أن تسكن بعض الشوارع المعروفة فيخيل إليك آخر الليل أن كل أهل القاهرة مخمورون يسيرون متصايحين فى شغب وعربدة، حتى حول دار الملك، وتتساءل عن الشرطى والخفير، وربما كان كلاهما صريع نعاس أو صريع كأس يعربد مع المعربدين.

ولا وجه للمقارنة بين شرطى لندرة وشرطى القاهرة. ذلك يقظ مهذب حازم، لا تفوته فائتة، وإذا أمر فأمره مطاع. أما بوليسنا فأمره عجب.

ركبت مرة سيارة من سيارات الأجرة وكنت متوجهًا تلقاء العتبة الخضراء، فلما بلغنا الميدان المحاذى لدار البريد رأيت شرطياً ضخماً طوالاً، واقفاً هناك متقلدًا سلاحه كأنما هو جندى فى الميدان، وهوى السائق بسيارته قاصداً إليه حتى إذا وجده لا يتزحزح له عن مكانه صاح به، وقد دنا منه: «مالك واقف زى اللوح».

وظل صاحبنا واقفًا «زى اللوح» تلمع البندقية فى كتفه، ويلمع السيف فى منطقته، وظل السائق يعتدى عليه بالقول والإشارة حتى تباعد.

أما «هايد بارك» فإنك لا تجد بين زوار العاصمة الإنجليزية من تفوته زيارة «هايد بارك» متنزه لندرة العظيم، وجنتها المترامية الأطراف الفسيحة الأكناف.

«هايد بارك» رئة لندرة - كما يدعونها - فى رحابها مجال الهواء الطلق يتنسمه أولئك المسجونون فى المصانع والحوانيت وبين الأبنية الشامخة. وفى رحابها أيضًا متنفس لجانب اللهو والتبسط المنظوم فى إنجلترابتقاليد الاحتشام والنظام واللياقة.

«هايد بارك» حديقة ذات سياج حديدى تشقها فجاج ومناهج وميادين وفيها رياض وغياض وفيها بحيرة ظريفة لمن شاء النزهة فى الزوارق.

على عذارى طرقها مقاعد منثورة، وفوق مروجها كراس مصفوفة وفى كل ناحية جموع تتبعها جموع، منهم من يمشى متريضًا ومن يجلس متفرجًا.

ومنهم من يطيب له الرقاد فوق تلك النمارق الخضراء فيرقد موحدًا، أو مثنى من غير أن يضايق أحدًا أو يضايقه أحد.

وإنك لتلقى النظر على تلك الرياض الأنيقة فيستقبل بك بين زهرة يانعة وشجرة وخلان نيام، كأن الأرض تنبت فتيات وفتيانا كما تنبت وردًا وريحاناً.

كانا فى ساحة وفى سهامها الألحاظ ومراميها القلوب، ويصرع فيها الغالب إلى جانب المغلوب. وكأنما ذلك العناق كفاح، على أنه برد وسلام. فإن فى «هايد بارك» جدا، فيها أعظم مظهر من مظاهر الحياة فى الشعوب الراقية وأكبر آية من آيات الفهم للحرية واحترامها.

تدخل «هايد بارك» عصر يوم الأحد فتجد منابر قد حف من حولها الناس، هناك محاضرات فى تدبير الصحة، ومحاضرات فى نظريات الأطباء فى علاج الأمراض، وهنا خطب فى بث المذاهب الاشتراكية وخطب فى الصد عنها، وثم هندى يبين معايب السياسة الإنجليزية فى الهند.

وتجد منابر لدعاة الأديان، هذا يهودى يدعو إلى دين موسى، وذاك كاثوليكى يشرح فضائل الكاثوليكية، وذلك بروتستانتى يؤيد دين عيسى على ما ذهب إليه «لوثير» و«كالفان» والجماهير تغدو وتروح بين هذه المناهل فى سماحة لا يشوبها ضيق العطن، حتى لتمثلنا جوامع بغداد وهى زاخرة بدروس الدين والعلم والأدب فى حرية لا تحدها حدود، ولا يقف فى سبيلها تعصب أو جمود.

ولما رأيت للأديان دعاة فى «هايد بارك» ماعدا دين محمد بن عبد الله، ثارت فى نفسى غيرة وحمية، فكدت أصدع بالدعوة إلى الهدى ودين الحق ثم نبهنى ناصح شفيق إلى أنه ليس من اللائق أن تكون هيئة كبار العلماء منصرفة إلى تكفير المسلمين فى مصر، فيخرج لها فى لندرة من يدعو الكفار إلى الإسلام.

قال الناصح: ربما كان ذلك منافياً لوصف العالمية فتحقق به كلمة المادة ١٠١ .

جزاك الله خيرًا أيها الناصح، ذكرتنى وكنت قد نسيت.

ولو أن قومى انطقتنى رماحهم　　نطقت ولكن الرماح أجرت

١٧
فى مجلس سيدة (*)

دنا الموعد ووجب الذهاب لتناول الشاى، تلبية لدعوة السيدة، التى لم أرها من قبل، ولكن زوجها صاحبى حمل إلىَّ دعوتها الكريمة.

أخذ التهيب يملأ نفسى رهبة لأننى نشأت على الخوف من شيئين: العفاريت، والسيدات، وإن كان نوع الخوف ليس واحدًا فيهما.

أما العفاريت فقد عدل الزمن تصورنا لهم، فأصبحنا لا نرهبهم إلا لماماً، حينما يعاودنا من غير تنبيه مابثه الحواضن فى أذهاننا أيام الطفولة وبثه الشيوخ.

وأما السيدات فما زلت أهابهن، كما يهاب كل محجب من أسرار الكون. وعندى أن فى المرأة جانبًا من جوانب الغيب.

أقبلت على استحياء، ودفعت بطاقتى للخادم، فلم يلبث أن جاءنى الإذن، ودخلت إلى قلعة تكاد تكون مستديرة الشكل، قد فرشت أحسن فرش، فى بساطة وذوق، وتقدمت إلى سيدة ليست قصيرة فى النساء، نحيلة تلبس السواد

(*) السياسة: الإثنين ١٦ ربيع الثانى ١٣٤٤ - ١نوفمبر ١٩٢٥.

يكاد يتلألأ فى ثناياه محيا عليه ظل الحزن، فى بوادر شيخوخة تطفى على شباب، ويتوج هامتها موفور من شعر أصفر يخالطه مشيب، فهو فضة ذهب.

وبعد التحية قدمتنى إلى سيدة بولونية عن يمينها، وطبيب فرنسى يحدثها، وقدمتها إلىَّ، ثم أشارت إلى مجلس بجوار الطبيب، وجلسنا نتكلم عن مصر وطقسها وآثارها، والزائرة البولونية ممن زار وادى النيل وعرف صعيده وريفه، وحفظ العبارات الشهيرة الجارية على لسان أهله «معلش» و «إن شاء الله».

أما الطبيب فقد عرف المرحومين الدكتور علوى باشا، والدكتور طلعت باشا وهو يثنى على فضلهما وكفايتهما وكلاهما كان كبير الأطباء فى وزارة المعارف المصرية.

ولقد خشيت أن يسألنى عمن خلف من بعد الأستاذين الكبيرين فى ذلك المنصب الجليل الشأن لأننى لم أر خلفهما الفنى «ولو أتى به إلى ما عرفته» على حد القول المأثور عن دولة يحيى باشا إبراهيم.

ثم قال الطبيب موجهًا إلىَّ الحديث:

إنى سمعت الفيلسوف برجسن يذكر بالإعجاب عالما من علمائكم اسمه منصور فهمى، ويشهد له شهادة حسنة، فهل تعرف منصور فهمى؟ وهنا أرهفت الأسماع، وخشعت الأصوات لذكر برجسن وتلميذ برجسن.

قلت: نعم ياسيدى، ذلك أستاذ الفلسفة فى الجامعة المصرية.

وشعرت ساعتئذ بشىء من الفخر لمصر الناهضة، التى يشهد لفيلسوفها الشاب إمام فلاسفة العصر.

ولم أكن أدرى، ولا المنجم يدرى، أن سيأتى لوزارة المعارف المصرية من يرى فى الدكتور منصور فهمى غير رأى الأستاذ برجسن فيزعجه من وكره العلمى فى الجامعة المصرية، ويوزع مجهوده بين شتى المدارس[1].

---

(١) يقصد أنه قد حيل بينه وبين التدريس فى الجامعة المصرية بسبب الأزمة التى آثارتها رسالته عن «المرأة فى الإسلام» وإن كان قد عاد إليها فيما بعد.

على أن منصور فهمى سيظل فخرًا لمصر ومظهرًا من مظاهر مجدها العلمى حيثما طوح به أولئك المبددون لخير ما تدخره الأمم من فضل ونبوغ.

* * *

جيء بالشاي، فنهضت السيدة بنفسها إلى الكئوس تملؤها وتقدمها لزائريها وكان هذا اللطف يزيدها جلالاً على جلالها.

ووفدت فرنسية من ذوات الأسنان، لم تذهب السنون بلين جسمها ورشاقة حركتها وبشاشة محياها، وانطلاق لسانها وسرعة خاطرها. ووافت على أثرها باريسية حسناء هيفاء يختلط فى غرتها نور الجمال بنور الذكاء.

واتصل الحديث بالأعمال الخيرية والمشروعات النافعة للضعفاء والعاجزين فتبين أن ربه المنزل تتولى مع زميلاتها إقامة سوق خيرية لإعانه يتامى الحرب الكبرى.

أولئك سيدات جئن «إكس ليبان» يتبردن من حر المدن الكبيرة ويلتمسن الراحة والرياضة والاستشفاء، لكنهن يعتبرن مساعى البر من وظائف المرأة التى لا ينبغى نسيانها فى أى وقت وعلى أى حال. فكان حقاً عليهن أن يبذلن لتأمين هذا الإقليم نصيبًا من جهدهن.

وانفض المجلس لم يجر فيه ذكر للأنماط المستحدثة فى تفصيل الثياب، ولا حوار فى حق المرأة فى تولى مقاليد الحكم وفى الانتخابات.

كان فى السيدات من يرى ميدان البر أولى بالمرأة من كل ميدان، وأجدى على بنى الإنسان، وإنى كنت أشتهى أن أرى فى كراسى الحكم وجوهًا يترقرق دماء الحسن فى جنباتها، وأن أسمع من فوق المنابر أصواتا تسيل الرقة من نبراتها، فإننى أتمنى أن ينصرف النشاط النسائى إلى عمل البر، والدعوة إلى الخير، فقد فشا الشر فى بنى آدم، فلم يبق للإنسانية إلا أن تولى وجهها شطر بنات حواء، تبتغى الخير من حسان الوجوه.

١٨

على وشك الرحيل(*)

أول ما يفاجأ المسافر من المشاعر المذكّرة بقرب العودة نضوب المال، والحاجة إلى تدبير قليله الباقى بعد نفاد الكثير.

ومن عجيب أمرنا، أن أكثرنا إذا أتاه الله رزقًا لم يحسب لغد حسابًا فيما ينفق منه، وإنما كل همه متاع يومه، وتوفير لذته الحاضرة.

وكثيرًا ما تجد من المصريين فى أوروبا أناسًا ذهبوا لقضاء شهرين أو ثلاثة فيبددون فى شهر واحد كل ما فى أيديهم ثم أخذوا يستعينون على متابعة البذخ والإسراف بالاستدانة من إخوانهم الذين يدبرون أمرهم تدبيرًا يحفظ التوازن بين يومهم وغدهم، وتنتهى الحال بهؤلاء وهؤلاء إلى الضيق بعد السعة.

من أجل ذلك تعرف ملامح الضنك فى وجوه العائدين من سياحتهم فى أوروبا، وتراهم يغدون بطانًا ويروحون خماصًا.

ولدينا صنف آخر يكنز الذهب والفضة ثم لا يجعل ليومه حسابًا فى التمتع بنعمة الله عليه، هو حقير الملبس وسيئ المطعم قذر المسكن، كل حسابه لغد، وما غده إلا وارث يهلك هذا المال المركوم كله فى يوم ليس له غد.

(*) السياسة: الثلاثاء ١ جمادى الأولى ١٣٤٤ - ١٧ نوفمبر ١٩٢٥.

ويلى الشعور بالنقص فى الرزق قبيل السفر، ضيق فى الصدر كالذى يجده الصبى فى عواقب البطالة المدرسية، وكأنما يشير إلى ذلك أبو تمام حيث يقول:

عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما

يبكى الشاب ويبكى اللهو والغزل

تذاكرت مرة مع بعض الإخوان حديث هذا الشعور وما إليه:

قال قائل منهم: وددت لو أن لى مالا، فأقضى العمر فى هذه البلاد، مستمتعاً بنعيم الحياة النضرة، ومستمتعًا بنعيم الموت حين أموت فأدفن فى حديقة من تلكم الحدائق المسماة مقابر.

وتصدى للقول بعده زميل له: أما أنا فلو كنت غنيًا لأقمت شهور الشتاء فى مصر بين مينا هاوس وحلوان والأقصر وأسوان. فإذا حل الصيف رحلت إلى أوروبا كما يفعل الكثيرون من أمرائنا وعظمائنا.

وانتدب للرد عليهما ثالث الجماعة فقال: أما إنى لأعلم أن الحياة فى مصر فجة مرة من جميع نواحيها. فلا هى ترضى مطمع الرجل ذى الجد ولا هى تغذى عقل العاقل أوقلب الشاعر أو ذوق الفنان أو لهو العزل.

كنا إذ نتجاذب أطراف هذا الحديث فى قاعة الطعام من الفندق الذى ننزله، وهى قاعة مستطيلة نثرت فيها موائد صغيرة، وكان المكان قد احتشد بأهله فلم تبق إلا منضدة خالية، وعندما بلغ صاحبنا ذلك الحد من قوله سكت بغتة، ورأيناه يتوجه كليته ناحية الباب، وإذا الجمع كله خاشع ينظر.

هذه سيدة باريسية فى زهرة عمرها، وزوجها فتى باريسى فى زهرة العمر أيضًا آية من آيات الحسن الذى امتازت به الباريسيات. تحسبها قصيرة نحيلة، فإذا دنت ألفيتها ملء أزارها وملء القلب والبصر. محيا دقيق الصنع، شفاف البشرة، أغر الجبهة، فاتن العينين بسَّام الفم، يتلألأ نضرة وشبابًا وسحرًا.

أما هامتها فذات روعة وبهاء بما يتوجها من شعر بارك الله فيه فما وزاد، ولم تعبث به المودة الجديدة التى كثيرًا ماتترك الوجوه الحسناء بدورًا جردت من هالاتها، شعر يموج بلينه وصفائه وبما يبدو من لطيف التجعد فى أثنائه.

كأن على إفرنده موج لجة　　　تقاصر فى حافاته وتطول

ركب ذلك كله فوق جثمان بديع، يروعك حسن توازنه وتأليفه، وأنيق الانسجام بين ثقيلة وخفيفة، ممتلئ رجراج على قلته، أهيف بض رشيق كأنما حركاته نغمات موزونة، كأنما كل جزء منه تحفة لم تترك قدرة الصانع وراءها إحكامًا، حتى إذا اجتمعت كانت آية من المعجزات.

ولما ثاب القوم بعد ما بهرهم من روعة الجمال ما بهرهم، قال صاحبنا من قبل أن يعود إلى وصل ما انقطع من حديثه: شهدت بأن الجمال خلافة الله فى أرضه وإنا فى دولة الجمال رعايا.

ثم أنشأ يقول:

مصر على ما ذكرت؛ ولكن هل يستطيع امرؤ رويت أرض مصر من دمائه، وسكنت فى أحشائها رفات آبائه، واضطربت فوقها مهاد أبنائه، أن يتمنى غيرها وطنًا.

بلد خلقت به الطفولة والصبا　　　ولبست ثوب العيش وهو جديد

فإذا تمثل فى الفؤاد رأيته　　　وعليه أغصان الشباب تميد

وفرغنا من الطعام فانصرفنا إلى الحديقة نشرب القهوة فى ظل الشجر ونلتقى بمعارفنا من نزلاء الفندق، وأقبلت إحدىٰ السيدات، وهى ظريفة من العجائز تقول: هل رأيتم كيف يخشع الناس لصولة الجمال؟ فقد دخل قاعة الطعام نساء ورجال فما ألقى لهم أحد بالا، فلما تجلت تلك البينة لم تبق عين إلا نظرت ولا حركة إلا سكنت، وجعلت تحدثنا عن الباريسية الحسناء وقالت:

إنها فى بداية السبيل إلى حرم الأمومة، فابتهلنا إلى الله أن يرزقها أنثى يشرق من جبينها الوضاء نور الحب والسلام، لا ذكرًا يحمل راية الحرب فى مراكش، وراية الفتك فى الشام.

لم تغضب محدثتنا الفرنسية أن يلمز قومها بالحق، فإن فى فرنسا بحمد الله، من لا يغضب إذا لعن الظلم والظالمون.

وجاء على أثر الشيخة زوجها ومعه فتاتهما وصهرهما فانتظم عقد المجلس، وطال الحديث وطاب السمر، وتفضل القوم بدعوتنا لزيارة ريف لهم فيه للصيد موضع فهمَّ أصحابى بإجابة الدعوة، أما أنا فتواردت على خاطرى ذكريات من الصيد مرعبة.

صاد جماعة من ضباط الإنجليز فى قرية من قرى المنوفية، فزلزل مركز اللورد كرومر[1] وصاد اللورد ألنبى فخرج من قصر الدوبارة إلى الحصن الذى يسكنه الآن فى لندرة. وصاد المستر كار فقذفت به الأقدار إلى بلاد اليابان.

وصاد المستر هندرسن أخيرًا فمرض أخوه فجأة وانصرف من مصر بليل، ثم لم نسمع عنه ولا عن أخيه خبرًا. لا جرم إنى خفت عاقبة الصيد، وما زلت أنتحل المعاذير حتى تحللت من دعوة القوم.

وحمدت الله على النجاة من صيد البط والحمام، وتفرق المجلس بعد ذلك بسلام.

(١) يقصد حادثة دنشواى المعروفة فى يونيو عام ١٩٠٦.

١٩

حول العودة(*)

لما أزمعت العود إلى مصر فى العام الماضى، ذهبت إلى باريس، وطفت بشركات السفر المختلفة باحثًا عن سبيل إلى مصر قبل انتهاء الإجازة، فأعجزنى ما أردت، ولم أجد بعد لأى إلا مكانا فى سفينة تصل متأخرة بضعة أيام.

مضى نحو شهر منذ أبت من سفرى. ونسيت أمر الإجازة والسفر، لكن بعض الناس لا ينسى. ففى ذات يوم جىء لى بأوراق تحوى أخذًا وردًا بين وزارة الحقانية ووزارة المالية فى موضوع الأيام التى تخلفتها. وكان لا بد لى من استيعاب جميع هذه المكاتبات، ولا بد لى بعد ذلك من بيان لسبب تخلفى.

وبعد نحو شهر آخر ردت إلى الأوراق متكاثرة وفيها تطلب المالية أن أبعث إليها ما دار بينى وبين شركات البواخر من الرسائل.

أجبت بما عندى، ولبثت شهرًا. ثم حملوا إلىَّ وقرًا من الصحف ينوء بحامله وخلاصة ما انتهى إليه البحث فى هذه المرة أن لوزارة المالية منشورًا صدر فى ١٩١٢ لايبيح للموظفين الغائبين خارج القطر أن يعتذروا بعدم وجود أمكنة فى

(*) السياسة: الخميس ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٤ - ٣ ديسمبر ١٩٢٥.

بواخر ترجمهم إلى مصر قبل انتهاء إجازاتهم. فرددت على هذا الاعتراض بما فتح الله به.

ثم علمت أن وزارة المالية أبت قبول العذر وقال قائلها: هل كان من الضرورى أن يتنزه الشيخ فى أوروبا؟ كان وزير المالية يومئذ شيخًا. وإن لم يكن معممًا. هو شيخ فى صورته ومعناه بل هو كبير الشيوخ. أخضر الجلدة، مغبر اللون، ضخم الوجه مفرطحه، ذو ملامح مبهمة، لايعرف ابتسامها من عبوسها، فى عينيه تكسر كأنما هو حياء أو تقى، لكنه يبعث فى النفس معنى غير الحياء وغير التقى. فى أنفه انبطاح، وفى فمه انفراج بين شفتين كظتين سفلاهما مسترخية، والأخرى نائية، تنهض من فوق كاهله عرتمة مترجرجة وتتدلى فوق عنقه عرتمة مترجرجة، متشابه إذا نظرت إليه من خلف أو نظرت إليه من أمام.

أذهب الله ريح الوزارة كلها قبل أن يمضى الشيخ الوزير ما أراد إمضاءه وحل محله وزير ليس بشيخ رأى رأيًا جديدًا، أبقى عليه القدر حتى أنفذ قضاءه. ثم لم يلبث أن خرج من الوزارة ودخل مكانه شيخ.

ومن عجيب صنع الله أن وزارة المالية المصرية موعودة بالشيوخ. أليس يحيى باشا إبراهيم شيخ القضاة مثلا؟

فى هذا العام أشفقت علىَّ وزارات الدولة فأخذت تذكرة الإياب مع تذكرة الذهاب، ولم أكن أحسب أن تصاريف القدر تدخر للوزارة ما هو أدهى وأمر.

وعلى ذكر الشيوخ كنت أتحدث إلى صديق لى فارسى فسألته: هل فى لغة فارس نظير لما يوجد عند الفرنسيين من الخروج بكلمة "Jesuite" وما إليها عن أصلها فى الدلالة على صنف من رجال الدين لاستعمالها فى معنى الخبث والنفاق.

قال: أجل، فى الفارسية «آخوند» بمعنى شيخ و«آخوندى» بمعنى شيخة صرفها الاستعمال إلى الدلالة على ضيق العقل والكسل والشره.

ومن ألطف فنون الشره وأقربها إلى التقوى ما جاء فى كتاب رياض الرياحين فى حكايات الصالحين للشيخ أبى محمد عبد الله بن أسعد اليافعى:

جنوا تمر خوخ الخوف فى روضة الرضا

وآجاص إخلاص وتين التوكل

وأرطاب حب قد جنتها يد الهوى

وأعناب أشواق بها القلب ممتلى

ورمان إجلال وتفاح هيبة...

وموز الحيا مبدى رجاء السفرجل

وكلما ذكرت الشيوخ ذكرت أم كلثوم أميرة الغناء فى وادى النيل.

فإن لها هى أيضًا شيوخًا يحفون بها فى عمائمهم المرفوعة وأكمامهم المهفهفة، وقفاطينهم الحريرية الزاهية اللامعة وجببهم الطويلة الواسعة. عن اليمين شيخان وعن اليسار شيخان حول فتاة معتدلة القوام لايشتكى منها قصر ولا طول، ولايشتكى غلظ فيها ولا نحول، تنظر بعينين فيهما شباب وذكاء، وفيهما نزوة الدعابة ودلال الحسناء، فى وجه ليست تفاصيله كلها جميلة ولكن لجملته روعة الجمال، تحت ذلك المقال البدوى مكفكفاً على جبينها بطراز مذهب ومرخ وراء ظهرها منه هداب الدمقس المفتل، فى ثياب حشمة تميل إلى السواد وفى مُظهر بساطة، كان على سجيته يوم إذ كانت الفتاة القروية حديثة عهد بسذاجة الريف، ثم أصبح تأنقًا حضريًا مقدرًا تقديرًا.

تظهر أم كلثوم بادئ الأمر رزينة ساكنة وتشدو بصوتها الحلو شدوًا لينًا، من غير أن يتحرك طرف من أطرافها، إلا هزة لطيفة، تنبض بها رجلها اليسرى أحياناً، ثم ينبعث الطرب فى هيكلها كله، فتنهض قائمة، وترسل النغمات متعالية، تذهب فى الآفاق هتافاً مردداً، أو تترجع رويدا حتى تتلاشى حنينًا خافتًا،

وتهزها أريحية الشباب والطرب فتساير النغمات فى حركاتها، مندفعة بوثبات الشعور وراء مذاهب الفن، وتتلوى عن يمينها وشمالها أعناق الشيوخ.

وياليت شعرى مالأم كلثوم والشيوخ؟

أم كلثوم نعمة من نعم الدنيا. فما بالها تأبى إلا أن تتجلى على الناس فى مظهر الآخرة؟

٢٠

إلى مصر(*)

أقبلنا على مارسيليا والليل مرخ سدوله، إن كان لليل أوروبا سدول يرخيها، إلا أن تكون بيضاء شفافة كما ترفل العروس فى يوم الزفاف.

ليل أوروبا نور على نور. ولولا أن الحوانيت مغلقة، وأكثر الأعمال معطل لحسبت الليل نهارًا. غير أن الشمس تنزل من عالمها العلوى فتنتثر مصابيح كهربائية تملأ السهل والجبل.

دخلت المدينة خائفًا أترقب فقد كانت ضجة حول فرار الأمير سيف الدين من محبسه، وتحدث الناس بأنه ربما حاول الخلوص إلى البحر الأبيض المتوسط من مارسيليا، كما تحدثوا بأن بريطانيا العظمى تتعقبه وأن الجمهورية الفرنسية تتعقبه، وأن المفوضيات والقنصليات المصرية تتعقبه أيضا.

ونشرت الجرائد صورة الأمير. والأمير - عفا الله عنه مرسل شعر وجهه خفيف العارضين، كث اللحية على حسب السنة! وشعره. كما يقول الفرنسيون، ملح وفلفل.

(*) السياسة: ٢ جمادى الثانية ١٣٤٤ - ١٨ ديسمبر ١٩٢٥.

كان يساورني، حيثما توجهت، خاطر الذعر من أن يشبه لهم فيأخذونني مكانه، وإذا كان الأمير لم يستطع أن يقنع القوم بأنه عاقل مدة سبع وعشرين حجة، فهل أستطيع أن أثبت شخصيتي فيما دون ذلك الزمن، وليس الفرق بين العقل والجنون بأخفى من الفرق بين صورة الأمير الفنى وصورة هذا الديمقراطى الفقير.

ولما احتوانى المضجع، وأخذ الكرى بمعاقد الأجفان، استحالت الوساوس أحلامًا، فرأيت فيما يرى النائم أن جلاوذة غلاظاً شدادًا يتبادرون إليَّ متصايحين: هذا هو الضالة المنشودة! خذوه فغلوه! وأحاول التخلص منهم صارخا: ياناس... والله ما بى من إمارة... وما بى من جنة... ولكنى عاقل وشيخ من شيوخ الله.

وتنبهت بعد طول العناء فزعًا مجهودًا أجد ثقل الغل فى عنقى، وأشعر بما يلقى من حصر وعى من يريد أن يثبت أنه شيخ عاقل.

* * *

قضيت على كل حال ليالى حلوة فى مارسيليا. ثم أزفت ساعة الرحيل فودعت من ودعت وانحدرت إلى الباخرة متمنيًا الله أن يسعفنى الحظ بغرفة وحدى، لكنهم حملوا متاعى إلى غرفة معدة لاثنين. وكان زميلى ركب السفينة من لندرة فرتب أمتعته فى سعة كما شاء، واختار لنفسه أمثل السريرين وهو سريرى.

سبق إلى ظنى أن رفيقى رجل ممتد، لايبالى فى سبيل راحته بحق لغيره، فجاشت فى نفسى كل معانى الحفيظة لدفع العدوان. ثم أقبل شاب هندى وديع يعتذر إليَّ فى رقة وأدب، هذا هو زميلى فى السفر وإذا نحن كالصديقين منذ زمان، وإن لم تجمعنا رابطة جنس ولا لغة ولا دين.

ذلك بأن الذى نشعر به من ألم متحد وما نطمع إليه من أمل مشترك يسمو على كل اعتبار فى الحياة، وهل شىء فى الحياة أجدر أن يصل ما بين القلوب من شركة الآلام والآمال؟

* * *

طوفت فى السفينة أتعرفها وأثبت فى خاطرى معالمها، كيلا أضل السبيل إلى غرفتى بين مشتبه المسالك فإننى رجل كالمذهول تتحير ذاكرتى بين الأشياء كما تتحير بين الأسماء كأننى فيلسوف أو شاعر أو فنان. وليس لى من ذلك - علم الله- إلا بصر زائغ وشعر سابغ وحافظة منهوكة.

وانتهى بى المطاف إلى ظهر السفينة فانتحيت مكانًا قصيًا، أقلب نظرى فى السماء، كأنما ألتمسُ فى جوانب السماء ما أعيانى التماسه فى الأرض أربعين عاماً، لكننى لم أجد إلا الشمس تنساب فى حاشية السماء كرة من عسجد وهاج. فوق أفق متماوج كأنه التبر لما ينكسر فى خلاله من أشعة صفراء. ثم غابت عين الشمس، وتركت فى صفحة المغرب أثرًا يتراءى فى ثنايا السحب مختلفًا ألوانه حتى محاه الظلام حرفًا حرفًا فذهب العين والأثر، وغمرنا ليل من ليالى البحر فى أخريات الشهور لولا أننا لانزال وقوفا فى ثغر مارسيليا نلمح نور المدينة راجفًا متعاليًا يكاد يتصل بالنجوم، ونلمح فى أثنائه صنوفاً من الذكرى راجفة أيضا ومصعدة فى السماء.

السفينة إنجليزية ومعظم ركبانها من الإنجليز الذين يقصدون إلى الهند، وفيها عدد قليل من الهنود وعدد قليل من أمم شتى.

فى هذا الوسط قضيت أيامًا لا أكلم أحدًا ولا يكلمنى أحد إلا رفيقى فى الغرفة نتبادل التحية كلما التقينا أونتبادل أحيانا كلمات نتفاهمها على عسر، لأنه يكلمنى بالإنجليزية وأكلمه بالفرنسية.

لم يدركنى من هذا الصمت ضجر إذ قد أصبحت أجد فى الصمت راحة ولذة، فإنى بلوت من الثرثارين ما جعلنى أشفق من كل متكلم أن يكون ثرثارًا، وأشفق على نفسى حين أتكلم فأفر من القول فرارًا أو اختصره اختصارًا.

أستغفر الله. فإن فى المتحدثين من وهب بيانًا حلوًا وفهمًا لطيفًا وذهنًا واعيًا ونوعا من السحر يأخذك إلى المسامرة أخذاً. وفى المتحدثين من يفضى إليك بذات نفسه فيصغى قلبك إليه وتقبل نفسك عليه. أما وراء ذلك فصنف المتكلفين البغضاء.

وقد كان مجلسى إلى المائدة بين إنجليزية لاتنطق بغير لغة قومها وإنجليزى شغله أمر زوجه من سفر البحر عن كل حديث. حتى إذا كان آخر أيام رحلتى نقلنى صاحب الخوان من مكان إلى مكان من غير أن يبخسنى من حقى شيئا، عن يسارى سيدة وليس عن يمينى أحد. بدأتنى بالكلام جارتى فأجبتها: يا سيدتى ليس لى باللغة الإنجليزية من علم.

قالت: ولكننى أعرف الفرنسية.

ثم سألتنى: لمَ بدلت مجلسك؟

قلت: إن صاحب المائدة بدله وليس فى قدرته أن يفهمنى السبب. وليس فى قدرتى أن أفهم عنه. على أننى لست شقيًا بهذه النقلة. وأرجو ألا أكون أشقيت بها أحدًا.

وتحدثت إلى الخادم ثم ذكرت لى أن كرسى الأول تزلزل من مستقره، فأصبح الجلوس فيه خطرًا. فحمدت الله أن حفظنا من عثرات الكراسى خصوصاً فى هذه الأزمان.

وخضنا فى حديث مختلف. ذكرنا مرة الحركة القائمة فى أمريكا وبعض بلاد أوروبا بشأن محاربة الخمور فأثنيت على تلك الحركة. هنالك قالت السيدة. بعد أن جرعت جرعة من كأس كان أمامها:

إننى أخشى إذا ذهب الخمر أن يذهب كثير من فضل نشاطنا الذى لا غنى عنه لهذه المدينة القوية الجامحة، ويذهب كثير من البشاشة التى تميز الحياة الغربية. ستقول إن ذلك نشاط صناعى، وتلك بشاشة غير طبيعية، ليكن ما تقول. وهل فى العالم إلا صناعة تخرج الإنسان من سذاجة الوحشية إلى مراتب المدنية الراقية؟ ثم تناولت كأسها وقالت بصوت صقل مخارجه الشراب:

أفهم أن تحاربوا الإفراط والسكر فإن ذلك شر لا خير فيه. أما حرمان البشر من منبع الأريحية وانتعاش القوى فهو مستحيل.

كنا فرغنا من غذائنا فصبت السيدة مابقى فى كأسها وتحركت للقيام، لم تمهلنى للرد على نظريتها مسرعة إلى حيث لا أدرى، وانصرفت إلى مضجعى لأهجع الظهر.

دنونا من مصر تفيض جوانحنا رحمة وحنيناً كما تدنو من عزيز موجع تسمع أنينه مكظوماً، وترى قروحه تمج دماً وهل تبتلى أمة فى بداية عهدها بالحرية والتقدم بشر من فتن تريد أن تهدم كل حرية فيها وكل تقدم؟

خففت الباخرة من وطئها وعلا صريخها وتجاوب الصفير من كل ناحية. ثم سكن كل شىء وتنفس من جانب المشرق شعاع متضائل تغالبه بقايا الليل وتتقاذفه الأمواج العاتية فتكاد تطفئه، ثم اشتد ذلك النور وتعالى فى السماء شمساً منيرة قاهرة.

٢١

المرحلة الأولى(*)

خرجنا من القاهرة إلى بورسعيد والناس نيام.

الشمس ملء الأفق ترسل نورها وحرارتها على شوارع خالية إلا من الكناسين الذين يثيرون التراب فى الجو ويقذفونه يمينًا ويسارًا، وإلا من العمال يسيرون أسرابا إلى الحوانيت، وإلا من الشحاتين يتهافتون على دواوين الحكومة، ويلقون رحالهم عند قصر عابدين.

ولم أر أكثر من الشحاتين داخل الوزارات وخارج القصر.

القاهرة خامدة صامة. فإن كل ما ذكرنا لا يحرك للقاهرة ساكنًا، إنما يحرك ساكن القاهرة كبار الموظفين يخرجون إلى دواوينهم فى جلال الحكم بعد الساعة العاشرة، ويحرك ساكن القاهرة رجال البرلمان، إذ تضيق السبل بسياراتهم غادية رائحة فى أبهة تتضاءل بجانبها كل الأبهات، ويحرك ساكن القاهرة فتياننا يمرحون بين جروبى وسولت وليبتون فى زينة يحسدها الطاووس وتتمناها العروس.

(*) السياسة: الجمعة ١٩ صفر ١٣٤٥ - ٢٧ أغسطس ١٩٢٦.

وتحرك ساكن القاهرة قبل كل شيء سيداتنا تختال بهن الشوارع القاصدة إلى حوانيت البزازين ودور الخياطين ودكاكين المزينين ودانسنج الراقصين.

كانت العاصمة لا تزال نائمة. والشمس طالعة منذ ساعتين ومن سوء النظام أن تكون ساعات البكور فى مصر فى الصيف ساعات عطلة ونوم، ويكون ما بعد الزوال إلى منتصف الساعة الثانية من مواعيد العمل الرسمية.

وقد يكون تقديم الحساب الزمنى لليوم نحو ساعتين فى فصل الحر تدبيرًا يزكو به العمل ويثمر، ويقى العاملين أضرار الجهد فى سورة القيظ، فهو علاج صحى واقتصادى معًا، ومايترتب عليه من نمو فى المحصول الأدبى والمادى أعظم مما يوفر للبلاد عدم السفر إلى الخارج إلا لطلب العلم أو للتداوى، كما نصحت لجنة الميزانية فى تقريرها المرفوع إلى مجلس النواب.

وهل يدخل السفر للحج فى أحد هذين الوجهين؟ اللهم إلا أن تكون لجنة الميزانية أرادت بالتداوى ما يشمل شفاء القلوب من أدواء الذنوب.

ومحطة القاهرة هادئة أيضًا إذ لا يسافر فى قطار الساعة السابعة صباحاً إلا المضطرون كموظفى الحكومة فى المديريات الذين لا تعجبهم سكنى الريف.

هؤلاء من غير شك قضاه شرعيون، تعرفهم بسيماهم، يمشون على هون، فى ثياب حريرية فضفاضة زاهية الألوان صفراء فاقع لونها غالبًا. وما حب الشرعيين للأصفر من الثياب إلا كحبهم لتسويد وجه الشيب حين يضحك بلحاهم المشيب ويوشك أن تكون وردت آثار فى اللون الأصفر كما وردت فى صبغ اللحى آثار.

أما أولئك الأفندية فقضاة أهليون، لهم أيضًا سمتهم. طرابيشهم فى الأكثر واسعة، وملامحهم تميل إلى العبوس، وبأيديهم حقائب تفيض بما فيها من قضايا يدرسونها فى الطريق. وقد تكون معهم منشات يذودون بها الذباب والناموس، ويجلبون النسيم إذا سكن الهواء.

والتقى قاض شرعى بقاض أهلى، فلما تصافحا كانت فى يمنى الأخير منشته وفى يسراه محفظته، فعاب عليه زميله أن يصافحه بمنشته، وتجادلا، وأخذ شيخ ليس بقاض شرعى ينصر الشيخ، وجعل أفندى ليس بقاض أهلى ينصر الأفندى.

هنالك تمثل لى كل مابين العمائم والطرابيش من خلاف.

ثم نظرت فإذا مصريان، على رأسيهما برنيطتان، أما أحدهما فأسمر اللون ربعة فى الرجال ممتلئ، بعيد ما بين المنكبين، قريب إلى ذروة الشباب، ولكنه فى نشاطه وتوقد ذكائه وقله تهيبه لم يجاوز ميعة الشباب الأولى. والثانى وافر القامة من غير سرف، خفيف الجسم، رقيق الوجه، زكى الجبهة، مفكر العينين، تدفعه إلى الحركة قوة صبى فى ريعانه وتتراخى به هيبة وحياة.

تركنا العمائم والطرابيش فى جدالهما، وتوجهت أنظارنا إلى القبعات المصرية تأخذنا مكانها فى هدوء بين الأفندية والشيوخ، من غير أن تعبأ بفتوى الرياسة الدينية العليا التى لم يجف مدادها ومن غير أن تنتظر الزى الجديد الذى تتألق فى ابتداعه الرابطة الشرقية.

قال صديق لى يحدثنى: ألست ترى أن الذين يسارعون إلى لبس البرنيطة من قومنا هم شيعة المدينة الحديثة والآراء الجديدة. وهذه النزعة نامية فى ناشئة المدارس؟

قلت: أجل!

قال: أما العمامة العربية فقد دخلت مصر على يد الفتح الإسلامى فاتصلت بالروح الدينى من أول يوم. وأمــا الطربوش التــركى فــهــبــط إلينــا من رءوس المتسلطين لباسًا رسميًا للجنود والموظفين فهو رمز التسلط والحكم، وهذه القبعة تنتشر فى الوسط الآخذ بالمذاهب الحديثة فهى تمثل لونًا خاصًا، ليس النزاع بين العمامة وطربوش والقبعة، ولكنه تنازع بين صور مختلفة من التفكير والذوق يريد كل منهما أن يسود.

ولم يكد يتم حديثة حتى صفر القطار، فإذا الناس خشع لموقف الوداع. وفى موقف الوداع نفحة من الرهبة الدينية، رهبة الغيب. فإن السفر على كل حال يسلمك إلى قدر مغيب.

وقف الناس لا ينبسون كأنهم قيام للصلاة، وصفر القطار مرة أخرى، فكأنه والقلوب خفاقة فى ذلك السكون العميق مؤذن يصيح:

الله أكبر! الله أكبر!

٢٢
مرحلة أخرى(*)

إذا جاوز بك القطار مدينة الزقازيق، وانساب فيما وراءها، وجدت مهامه مبسوطة من حولك تترامى إلى غير مدى، رمالا جرداء قاحلة.. لازرع فيها ولا ماء، إلا ماتنز به الأرض من رقراق مالح، ينبت فيه قتاد ذو خضرة مغبرة وشوك كشوك القنافذ. وتضرب أشعة الشمس فى ذلك الأديم الأملس فتشمله سرابًا.

فى جوف ذلك الخراب اليباب يمر بك القطار على مدن عامرة، جنات وعيون، وتلك هى معسكرات الجنود الإنجليزية المرابطة غرب القنال.

وسمعت بجانبى رجلين أجنبيين يتحاوران قال أحدهما لصاحبه:

هل كانت تشيد هذه المدائن فى هذه الصحارى لولم يسكنها جنود بريطانيا العظمى؟

فأجاب الآخر:

إن يد العامل المصرى هى التى جعلت من هذا الخراب عمارًا، وفجرت خلاله أنهارا.

(*) السياسة: ٢٦ صفر ١٣٤٥ - ٢ أغسطس ١٩٢٦.

قال الأول. صحيح الفلاح المصرى يبنى كل هذه المدن والقصور بيديه، وسكت سكتة لطيفة، ثم أخذ يقول فى تريث: ولكن الفلاح المصرى يعيش فى قرى تعسة وأكواخ حقيرة.

وعادا وعدنا ننظر إلى الصحراء والقطار يطير فى أنحائها، فتذكرنا من اجتازوا الصحراء الكبرى على متون الإبل، وتذكرنا الرحالة المصرى الكبير أحمد حسنين بك.

وقد قرأت فى الجرائد فصولا معجبة من رحلة حسنين بك، لكننى لم أر الكتاب، فإنه أرستقراطى فى الكتب، غالى الثمن إلى الحد الذى تنكره الديمقراطية.

وأشد ما علق بذهنى مما قرأت من رحلة البك الرحالة إثباته وتوكيده أن السفر فى الصحراء يوطد دعائم الإيمان.

وإذا صح ذلك يكون من الواجب على الحكومة المصرية أن توفد إلى الصحراء كل عام بعثات تكمل هناك إيمانها، ثم تعود ويذهب غيرها، حتى ينتشر الإيمان ويقوى من غير حاجة إلى المعاهد الدينية، والعكوف على الدرس فيها خمسة عشر عاما أو تزيد.

بقى أن الصحراء قد سافر فيها من ليس مسلمًا مثل (مس فوربس) فهل وطنت الصحراء دعائم إيمانها هى أيضًا وإيمان أمثالها؟

نسأل الله يكون الأمر كذلك كما نسأله أن يجعل كل سفر موطدًا لدعائم الإيمان، ولو كان سفرًا إلى العاصمة الإنجليزية.

* * *

وهذه بورسعيد. ندخلها بحمد الله آمنين.

ولئن كان أول شىء يسترعى نظرك حينما تشرف على مدينة من مدن القطر هو القبة العالية لأكبر ولى فى البلد، فإن بورسعيد ليس فيها لولى قبة عالية

تستـرعى النظر. ولعلهـا البلدة الوحـيـدة من دون القـطر وقـراه وكـفـوره وعـزبه الخالية من مقامات الأولياء.

أول شىء يسـتـرعـى نظر كل غـاد إلى بورسـعـيـد أو رائح هو (سى رجب القصيفى) الذى يتولى أمر المسافرين حتى ينزلهم منازلهم فى الباخرة أو القطار ومعهم أمتعتهم.

رجل مستوف طولاً وعرضًا، ضخم الوجه محمره فى اسمرار، على ملامحه مظهر الجد من غير عبوس ولا ابتسام، يقظ نشيط بلا تسارع فى الحركات ولا إسراف، نظيف يلبس البياض غالبًا، ويلبس قبعة من الفلين إذا اشتد الحر، فإذا فترت حدة الشمس عاد إلى الطربوش.

تشرف على محطة بورسعيد فيكون أسبق شىء إليك سى رجب. وتصل بك الباخرة إلى ميناء بورسعيد فيكون أول داخل عليك سى رجب.

وتهتف باسمه فيتبادر نحوك الشيالون من كل جانب. فإن لم تكن تعرف ذلك الاسم السحرى انتظرت طويلا.

ويقال إنه إذا دخلت سفينة إلى الميناء ودخل قطار إلى المحطة فى وقت معًا، رأى المسافرون سى رجب فى الميناء والمحطة.

وإذا كـان لهذه الرواية أساس، فـإنما يعلم تأويلها الأستاذ الشيخ محمد بخيت... يضطرب المسافرون ويحيصون، وتختلط أمتعتهم، ويخافون فقدها. أما سى رجب فرزين هادئ لا يغيب عنه شىء مما سلمته إليه، ولايخاف عليه فقدًا.

فقد أصبح سى رجب من ذوى الغنى، وهو يصرف إدارة كبيرة تجمع بين عربات وسيارات وزوارق بخارية وغير بخارية لها عمالها وما يلزم لها، وليس يأبى مع ذلك أن يعين الشيالين على حمل الحقائب.

إن هذا الديمقراطى الناهض بنفسه من غير تجهيز بعدة علمية ولا رأس مال، الناجح فى ميدان العمل الشريف نجاحًا شريفًا، جدير بأن يكون أسوة حسنة لكثير من شبابنا المجهزين بالعدة العلمية والمال والجاه، وهم عاطلون لايلتمسون وراء الوظائف الحكومية مطلبًا.

وقد يكون أمثال رجب أحق بأن تزين صدورهم النياشين، أوتحلى ظهورهم كساوى التشريف، إن كانت الأوسمة والخلع علامة تقدير الكفاية والعمل الناجح. لكننى أتمنى على الله أن يقى سى رجب وكل عامل موفق شر الرتب والنياشين وكساوى التشريف.

وبينما نحن نسير إلى الميناء، وسى رجب أمامنا، أخذنا نذكر ما فيه من خلال الهمة والعزيمة ومعنا شيخ مسافر فقال: سى رجب رجل طيب، لكننى لا أدرى لمَ ينادينى ياعم الشيخ فلان؟ فيجمع لى اللقبين ويلقى علىَّ حملين ثقيلين.

فتبادر الجماعة يقولون للشيخ: إن رجب يجمع لك الوصفين حتى إذا سحبت أحدهما هيئة كبار العلماء لم تبق من غير لقب.

هنالك جعل الشيخ ينظر إلى أولئك الفتيان وعيناه ساجيتان وهو يقول كأنما يناجى نفسه:

من لى بمن يسلخ عنى اللقبين معًا!

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت   منى بعلمى الذى أعطت وتجريبى!

٢٣
مرحلة ثالثة(*)

المرحلة الثالثة هى الباخرة، وقد وصلت إلى ميناء بورسعيد فى جوف الليل، وفى جوف الليل ركبنا الفلك.

ومتى صعدت فى ذلك السلم المعلق فقد شعرت بأنك خرجت من مصر ودخلت فى دنيا جديدة.

لكننا لم نكد نقبل على السفينة حتى رأيناها مُلئت شيوخًا وعممًا، هذا قصير وهذا طويل، وهذا غليظ وهذا نحيل، وتشابهت علينا الأمور فحسبنا هيئة كبار العلماء قد أزمعت الرحيل إلى أوروبا.

قلت: أعود؟

ثم انكشف الغبار عن أحد حضرات العمد بين المسافرين، وهؤلاء مشيعوه. عندئذ سكن عنا الروع، فإن هذه عمائم بريئة، وقيل لنا إن حضرة العمدة بالغ فى إخفاء موعد سفره ، فلم يفز بوداعه إلا القليلون.

ذهبنا ننظر فى دهشة إلى سيد هذه الجماهير، ونغبط العمد على ما آتاهم الله من نعمة وفضل كبير.

(*) السياسة: الجمعة ٣ ربيع الأول ١٣٤٥ . ١٠ سبتمبر ١٩٢٦.

وهل اهتم مجلس النواب المصرى بشىء مثل اهتمامه بالعمد؛ إذ سارع إلى اقتراح نظام لاختيارهم؟ يريد مجلس نوابنا المحترم أن يكون تعيين العمد بالانتخاب العام على مثال النواب أنفسهم ، ولست أدرى إن كان خيرًا لمصر الآن هذا الاقتراح؟ ولكننى أخشى إذا صار العمد كالنواب منتخبين أن يطلبوا ستمائة جنيه فى السنة مكافأة كمكافأة إخوانهم، فيذهب فى هذه العملية ما وفرته لجنة الميزانية.

وقف صاحبنا العمدة والمودعون يحيطون به إحاطة الهالة بالقمر، والأنظار لاتتجه إلا إليه، ووقف المسافرون فى حاشية السفينة، يودون لو كانوا عمدًا.

ثم أقبل أحد سعاة التلغراف، يحمل إلينا رسائل تحية ووداع من بعض أصدقائنا المحترمين وإن لم يكونوا شيوخاً ولا نواباً. مضى ساعى التلغراف يلتمسنا بين ركاب الباخرة، ويسأل عنا الغادين والرائحين من أجانب ومصريين حتى اهتدى إلينا فى طرف من أطراف المكان بعد أن نبه إلينا الأذهان وجعلنا ممن يشار إليه بالبنان.

حمدنا الله على أن عوضنا خيرًا من مودعى رفيقنا العمدة، الذين انفضوا بعد قليل إلى البر وتركوه فى السفينة قائماً، وبقيت لنا تلغرافات إخواننا.

* * *

السفينة بريطانية جديدة ولم تنزل البحر إلا منذ ثلاث سنوات، وهى ليست من صغريات السفائن ولا من كبرياتها، نظيفة ككل ما هو إنجليزى، إلا السياسة أحياناً، لطيفة، إن صح هذا التعبير عن شىء إنجليزى بهذه الكلمة التى لا تصور معانى المتانة والهدوء والجمود المحيطة باللطف البريطانى، ويخيل إلىَّ أن يمسك البواخر الإنجليزية أن تتزلزل فى غمرات البحار هو بريطانيتها العظمى.

* * *

ليس لى فيما يتعلق بمسائل الميكانيكا ذوق ولا فهم، فلست أهتم برؤية الآلات البخارية ولا بتعرف نظمها وحركتها ولم أزر قط من السفينة إلا ما أعد للمسافرين.

وكنت أحسب أن الناس كلهم مثلى، إذا أحبوا أن يتمتعوا بثمار هذه المبتدعات فهم لا يتطلعون إلى فهم أسرارها، لكن من نعمة الله على الناس أن ينشئهم كلهم نشأة تباعدهم عن فهم ما فى الحياة من المعانى، ليتفرغوا لأسرار العالم الثانى.

كان معنا شاب من المحامين ـ وربما صادفت بين شباب الأساتذة المحامين من يقدر أن ما وراء ما تعلمه علماً، ذهب إلى إدارة السفينة وطلب أن يسمح له بزيارتها كلها حتى أقسامها الفنية فأوفدوا معه مهندسًا يبين له، وفاز بما أراد.

ثم وجدنا أحد إخواننا المسافرين لا يجلس مجلسًا ولا يلقى أحدًا إلا أفاض فى وصف السفينة طولا وعرضًا، وسماء وأرضًا، وتبرع بإعطاء المعلومات، عما فيها من عدد وآلات. كل ذلك وصاحبنا بيننا يسمع مع السامعين ويذكر حكاية الثعبان فى كلمات قاسم أمين.

* * *

ليست الباخرة مزدحمة براكبيها وإن كان ركابها ليسوا قليلين، وفيها نساء ورجال من أمم شتى وبين المصريين عقائل مع أزواجهن، يظهر بعضهن على سطح السفينة، مثل سائر الناس، يتمتعن بمنظر البحر وبنسيمه ويتمتعن بملكوت السموات إذا جن الليل، فتجلى لراكب البحر ما فى ملكوت السماء من جلال وجمال.

بعض السيدات المصريات مقصورات فى القمرات لا يشهدن إلا ما يلوح للعين من ثنايا تلك الكوى الضيقة التى تجعل الناظر ضئيلاً، والمنظور ضئيلاً وتجعل الحياة ضئيلة كلها.

تذكرت ـ والشيء بالشيء يذكر ـ أننى ذهبت مرة لزيارة صديق شاب متعلم على الطراز الحديث، وعائش على الطراز الحديث، فلما ضربت الجرس، خرجت إلى صبية خادمة، وسألتها عن البك، فعادت تأذن لى بالدخول. ولما صرنا إلى مجاز سبقتنى إلى قاعة استقبال غابت فيها زمنًا ثم أدخلتنى.

راعنى عندما جاوزت الباب أننى وجدت صورًا كانت قائمة على مناضد كبت على وجوهها، وصورًا أديرت إلى ناحية الجدار.

ولاحظت صورًا بقيت على حالها، وهى صور رجال، أو ما قد تكون ذهلت عنه الصبية فى عجلتها.

وتذكرت أيضًا أننى رأيت فى بعض المنازل المحترمة صورًا توضع فى إطارات كبيرة وتزين بها الصالونات ثم تسجى بقناع مزخرف.

كلما شهدت هذه الهنات عرتنى سورة غضب، وهممت بالفرار من بيوت يتقى فيها نظر الأصدقاء إلى صورة حرم معروضة فى حجرة استقبال.

وأذكر أننى فى مصر فيسكت عنى الغضب وتهتف بى حسرة أشد إيلامًا:

من مبلغ قومنا أن الغلو خطر!

ثالثا: مذكرات مقيم

١ (*)

طلاب دار العلوم يهجرون أزياء المشايخ

أرجو أن يسمح لى صاحب (مذكرات مسافر) بأن اتخذ هذا العنوان على مثال عنوانه التماسًا للبركة، فقد فهمنا من لحن القول أنه شيخ، ترجى بركته، وأنا ممن يستمد بركة المشايخ، وإن كنا صرنا إلى زمن يفر فيه الناس من سمت الشيوخ.

وهل أتاك حديث إخواننا طلاب دار العلوم، إذ أجمعوا أمرهم أن يخرجوا من سعة القفاطين والجبب، إلى ضيق البنطلونات والجاكتات والياقات وأبوا إلا أن يكونوا أفندية، يتوج جبهتهم طربوش أسطوانى، يموج زره حرًا كلما خطر النسيم، مكان تلك الطرابيش الكروية المضلعة، تغيب العمامة زرها فهو لا يستطيع حراكًا.

وإننى ليحزننى أن يحرم عالم العمامة من فتية دار العلوم، الذين كانوا زينة المعممين رشاقة ونظافة ولطفًا يتجلى فى ملابسهم نوع من التأنق هو مظهر من مظاهر الذوق الجميل الشرقى، يريد أن يتلاشى فى أذواق غربية فلا يبقى لنا إلا ما هو خال من الذوق الجميل الشرقى، يريد أن يتلاشى فى أذواق غربية فلا يبقى لنا إلا ماهو خال من الذوق الحسن.

(*) السياسة: الأحد ٢٤ رجب ١٣٤٤ - ٧ فبراير ١٩٢٦.

ولوددت باسم الفن والجمال، أن يتطربش كل معمم فى مصر ما عدا طلاب دار العلوم.

* * *

كم سمعنا من رجال الآثار عبارات الحسرة على أن يضاء بالكهرباء جامع المؤيد مثلا؛ لأنهم يريدون من حسن الانسجام أن تشعل فى جوانبه الفتائل، لكن تيار الزمن لا ينظر إلى أمانى عشاق الآثار.

وإن الذى وضع الثريات والمصابيح الكهربائية فى بيوت الله العتيقة مكان القناديل لهو الذى يضع الطربوش مكان العمامة على رءوس الشيوخ فى دار العلوم.

يخيل إلىَّ أن الضجة التى يثيرها قوم فى صورة دينية حول تغيير الملابس فى دار العلوم، هى شبيهة بالضجة الدينية، التى أصموا بها الآذان يوم أريد جعل الحنفيات فى المساجد مكان الميضات. وقد ذهبت الضجة وذهبت الميضأة وألفنا الأسلوب الجديد فى أماكن الطهارة حتى لو حاول اليوم محاول أن يعود بالمساجد إلى حالتها الأولى لضجت الأرض والسماء ضجة دينية أيضا.

إذا كان ولع شبابنا المعمم بتغيير الزى مؤذنا بتغير نفسى وبالتطلع إلى مظاهر الجد والنشاط التى لاتتسع للأكمام الطويلة العريضة والأردية الحريرية الناعمة الزاهية، المفتحة النوافذ، المنسابة من كل جانب، فليبرزوا إلى ميدان النهوض أفندية أوشيوخا، إن مصر تنظر إلى أعمالهم لا إلى ثيابهم.

أما إن كانوا يمدون أعينهم إلى مظهر من مظاهر المدنية، يجعلهم بيكوات إذا مشوا فى الطرقات، ويحل لميعة شبابهم ما يحرمه سمت الشيوخ، فإنا نفزع إليهم أن يتريثوا فى القضاء على العمائم، إن العمائم على كل حال من ذكريات ماضينا.

٢

بين النساء والرجال(*)

عالجت محكمة مصر الأهلية معضلة من مشاكل الحياة الزوجية، حار فى حلها رجال المحاكم الشرعية منذ زمان، فقضت بالتعويض على زوج طلق حليلته من غير سبب لتقى الزوجات المحصنات الغافلات شر العبث بالعصم ولتحول دون عبث الرجال بالنساء.

وجدنا كثيرًا من الناس يحبذون هذا الحكم، ووجدنا من أهل الشرع أنفسهم من يلتمس له بين مذاهب الفقهاء سبيلا، ويتخذ من أصول الدين عليه دليلاً.

شىء عظيم جدًا أن تصبح الزوجة مطمئنة فى عيشتها الزوجية. آمنة مفاجأة الطلاق، أبغض الحلال إلى الله وإلى الناس، فهى منذ الآن بين إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان يعطيه الرجل سماحة وبرًا، أويعطيه تعويضة بحكم من محكمة مصر الابتدائية الأهلية.

نغبط السيدات على ما آتاهن الله من فضله بهذا المبدأ العدل.

لكن عددًا غير قليل من نساء هذا الزمن يشترطن فى عقود النكاح أن تكون العصمة بأيديهن، ثم يطلقن الرجال أحيانا بلا سبب.

(*) السياسة: الأحد ١ شعبان ١٣٤٤ - ١٤ فبراير ١٩٢٦.

فهل يكون لرجل أرسلت إليه زوجه ورقة الطلاق على غير انتظار أن يطلب إلى محكمة مصر الأهلية تعويضًا؟

وخسارة الرجل الذى تسرحه زوجه عبثا بلا إحسان ليست أقل من خسارة المرأة المطلقة، فكم فى مصر من رجال كل عزهم ومجدهم وكفايتهم قائم على حياة زوجية إن زالت لم يبق عز ولا مجد ولا كفاية.

وليس على النساء حرج أن نطلب حماية الرجال منهن، فإننا فى عهد «الفيمينيسم» والمساواة.

ومن أحدث مظاهر المساواة ما طالعتنا به الصحف المصرية منذ يومين.

فقد قرأنا اسماء سيدات يتولين أمر حفلة خيرية، بينهن (الأميرة فلانة).

وكنت أحسب أن فلانا هذا من أسماء الذكران فلا يكون علما على أميرة، لأن لقب الإمارة لا يغير حقائق الأشياء، لكن يظهر أنه لم يبق فرق بين الرجال والنساء فى الأفعال ولا فى الأسماء.

ولايظن ظان أننى لست من أنصار الحرية والمساواة والإخاء بين بنى آدم وبنات حواء. والذى بيده نفس على ماهر باشا، وبيده نفس صالح باشا عنان صاحب اليد الباطشة المسلطة على الطيور فى أعشاشها بإكياد، وعلى الرجال والنساء والأطفال فى بيوتهم بهليوبوليس، إننى لمن أنصار الحرية التى تنشدها المرأة والمساواة.

ولقد غمنى ما رأيت فى برنامج الحفلة الخيرية بفندق «هليوبوليس بالاس» من أنه أُعد للسيدات المصريات مكان خاص يرقصن فيه معًا على حين يرقص الرجال والسيدات فى المكان العام.

ولست أدرى كيف ـ رضيت سيداتنا بهذا العسف المزرى.

أفهم أن ترى السيدة المصرية أن الرقص ليس له مساغ من عادات قومنا ولا آدابهم، وأنه ليس ضربة لازب لنهضة المرأة الجديدة، أوليس من عناصر الرقى

الأولى التى يبدأ بها، فتعف السيدة المصرية عنه كما يعف عنه بعض الناس فى بلاد الغرب نفسها.

وأفهم أيضًا أن تقلد المرأة المصرية أختها الفرنجية، وأختها التركية فتأخذ عنهما قوانين الرقص المتعارفة كما تأخذ صوره وأشكاله.

لكن الذى لا أستطيع فهمه هو أن سيدة تعد الرقص من كمال المرأة، وترى من حقها أن ترقص، فى ليلة حافلة، فى فندق جامع، ثم تهوى إلى سيدة مثلها لتخاصرها وتباطنها على أعين الناس، كما تصنع غير ذوات المروءة فيما ليس محترما من دور اللهو فى أوروبا.

ليس ذلك من حسن الذوق ولا من الكرامة.

وإننا وإن كنا أنصارًا لحرية المرأة وإننا أنصار لحسن الذوق والكرامة وأنصار للفضيلة أيضًا.

٣

الجو مكهرب(*)

الجو مكهرب - كما يقول سادتنا المجددون فى اللغة - ولقد رأينا آثار الكهرباء نارًا تتلظى فى القسم الخاص بوزارة المعارف من المعرض الزراعى.

وإننا لاندرى لمَ تكون الأسلاك الكهربائية فى وزارة المعارف مختصة بسرعة الاحتكاك وسرعة الإلتهاب، وسرعة التدمير، فهى تلتهم خمسين ألف جنيه فى ساعات معدودات.

سمعت جماعة يتحاورون فى هذا السر، وهم ركوب فى الترام.

قال قائل: ذلك انتقام الله لطلبة دار العلوم، المشردين فى الشوارع.

تتعقبهم الشرطة لتقصيهم عن معهدهم كلما دنوا منه، وليس لهم ذنب إلا أنهم قلدوا فى ملابسهم أولى الأمر وأهل الحل والعقد.

فأطرق شيخ معمم إطراقة ثم قال: بل ذلك مصداق الآية الكريمة:

«إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق».

(*) السياسة: الخميس ٥ شعبان ١٣٤٤ - ١٨ فبراير ١٩٢٦.

قال ثالث: فما بال الحريق فى قها، تلك القرية الوادعة المسكينة، التى ليس فيها إلا أوقاف خيرية، مرفوع بشأنها قضية، أمام المحكمة العليا الشرعية، وهى مؤجلة إلى أوائل مارس الآتى؟

كان مع بعض الجماعة جرائد المساء ينظر فيها، فلما سمع ذكر المحكمة العليا الشرعية، قرأ بصوت عال يسمعه المجلس: إن تلك المحكمة قررت أن أول شعبان المعظم يوم الأحد. فنظر الناس إلى الهلال وهاجا فى كبد السماء، يكاد يكون بدرًا، وابتسم بعضهم إلى بعض وخيل إلىَّ أن القمر يبتسم فى أفقه معهم.

ثم احتكت أسلاك الترام، فتطاير شرر لم يكن له بحمد الله ضرام، وسكت القوم عن الكلام.

ألم أقل لك إن الجو مكهرب؟ وقد يكون من آيات كهربائيته هذه المؤتمرات التى يتحدث بها الناس.

مؤتمر وطنى، يريد أن يوطد دعائم الدستور حتى لا يزلزلها مزلزل.

ومؤتمر للخلافة يريد أن يبايع إماما ينوب عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى إقامة الدين وسياسة الدنيا به.

ومؤتمر للقضاء الشرعى يريد للشيوخ وزارة فى كيان الدولة، ويريد لهم نيابة شرعية إلى جانب النيابة الأهلية والنيابة المختلطة.

أما مؤتمر الخلافة فإن كتاب الشيخ بخيت المنتظر سوف يحل الله به الإشكال ويكفى المؤمنين القتال.

ومن أجدر من الشيخ بأن يرفع عن الخلافة كل أسباب الخلاف، ويوفق بين جميع الأصناف.

إن للشيخ بخيت سوابق فى هذا المجال، تضرب بها الأمثال، وهو القائل:

إنا مع الأمرا والوفد والوزرا   على اتحاد له فى القلب تحديد

وفى رواية: له فى القلب تأييد.

أما المؤتمر الوطنى، مؤتمر الهيئات النيابية والأحزاب والنقابات، فهو مظهر من المظاهر التى تُعَبِّر بها الأمم عن إرادتها، فى ساعات التاريخ العصيبة. هو الشعب يريد أن يهتف بما فى نفسه، وإذا صاح الشعب فى الأرض ردد القدر صيحته فى السماء.

هى مصر تريد أن تقول كلمتها، فلتخشع الأصوات، ولتقل مصر.

٤

مناسبات(*)

روت الجرائد أن رجلا فى القاهرة حاول الانتحار لأنه لم يجد عملا.

وليس الانتحار جديدًا عندنا، إنما الجديد أن يوجد بيننا عمال عاطلون يدفعهم اليأس إلى الموت.

هذا هو الخطر الداهم، ينبغى أن يفطن له من بيدهم تدبير شئوننا الاقتصادية، فإن العاطل اليائس قد يدفعه يأسه إلى ما هو أشد نكاية بالجماعة وأشأم أثرًا من الانتحار.

وإذا كان تعقب الدعاة إلى الشيوعية هم الحكومة الآن، فإن ترك مجال فى نظام حياتنا ليأس المرء من وجود عمل يقوته، شر من دعاة الشيوعية وأسوأ عقبى.

ونعود إلى صاحبنا المنتحر تبرمًا بالبطالة فنوجه إليه كلمة عتاب على هذا الهلع تخور به عزيمته عن تحمل البطالة وحدها، مع أن رجال المفوضيات والقنصليات المصرية، فى مشارق الأرض ومغاربها، يحتملون البطالة والاغتراب معًا من غير تبرم ولاضجر.

(*) السياسة: الخميس ٢٢ شعبان ١٣٤٤ . ٧ مارس ١٩٢٦.

وكانت للرجل مندوحة عن الموت للخلاص من هم الفقر والعطلة، أن يأوى إلى مؤتمر الخلافة، فإن فيه للعاطلين مرتعًا يدر السمن والعسل، ولا يجشم عناء فيما يتطلب من عمل.

* * *

وبمناسبة الفقر والموت، نذكر بالضرورة المال، الذى هو أصل الغنى والفقر، وقد أصبح غرضًا للحياة والموت فى زمن يعيش فيه الناس ويموتون من أجل المال. نذكر المال، فنذكر روكفلر، ونذكر المليونين. هبت الجرائد للكلام على تلك الهبة العظيمة وعلى شروطها التى كانت مثار نزاع بين الواهب وبين الحكومة المصرية، ثم سكتت الجرائد، وسكتت الحكومة، وسكت الخواجة روكفلر.

ولقد تذكرنا حكاية النائم الذى رأى فى الحلم رجلا يحمل حقيبة مملوءة ذهباً، حتى إذا دنا منه غرف غرفة بيديه لينفحه بها، وكيف يقنع بملء اليدين دنانير من يبصر كنزًا فياضًا؟ أبى النائم إلا أن يشاطر رب المال ماله، وانتهى بهما اللجاج إلى عنف أطار عن عينيه الكرى فاستيقظ نادما على مافاته، وعاد إلى مضجعه يلتمس هجمة ترد إليه حامل الحقيبة الذهبية على ألا يجادله فيما يعطى، لكن النوم المشرد لا يعود ولا يعود الذهب.

* * *

ولعل الذى بعث أريحية الغنى الأمريكى إلى هبته الكبرى هو أنه لما نسخت الجامعة المصرية، لتحل محلها جامعة أميرية مؤلفة من مختلف العناصر، نسيت الدنيا الجديدة فلم يُجعل لها من ذلك التراث نصيب، وعزَّ ذلك على الولايات المتحدة، فقام رجل من أهلها يقسم لينشىء وحده من صفو ماله، بين سحر القاهرة ونحرها، معهدًا علميًا عظيمًا إلى جانبه متحف عظيم.

كنا نعجب فى أنفسنا ممن جعلوا نصب أعينهم، عند تأسيس الجامعة الأميرية، أن يرضوا أمم البسيطة باختيار أساتذة منها جميعاً، كيف سهوا عن أمريكا، لكننا ندرك اليوم أنهم كانوا أبعد مرمى وأسدّ سهمًا.

ونرجو أن تتأسى بالولايات المتحدة سائر الأمم التى غفل عن تمثيلها فى جامعتنا الأميرية فتنشئ لنا تركيا مثلا معهدًا يعلم أهل الشرق لبس القبعات وإلى جانبه مصنع يخرج كفايتهم منها.

وما أمس حاجتنا لذلك بعد ما صمم أبناؤنا أن يلبسوا البرانيط غير منتظرين إلا تنفس الصيف، تخشى لفحات شمسه على تلك الجبهات النضيرة، ويطيب تعريض اللمم لنسيمه العليل.

وليت شعرى ما بال فتياتنا يثبون طفرة إلى محاكاة الفرنجة، على حين تسير فتياتنا هوناً فى هذا السبيل؟

زار مرة أحد أساتذة الجامعات الفرنسية - وكان جاء مصر سائحًا - شيخا من شيوخ الأزهر، ورافقته فى هذه الزيارة زوجه. وكانت امرأة تقية، وخيل إليها أن الشيخ فى رواقة العباسى، شبيه البابا فى الفاتيكان، فجلست خاشعة لا ترفع الطرف إلا لماما، ولا ترد القول إلا تحية وسلامًا، أما الرجل فأخذ يسأل الشيخ عن طلاب الأزهر وخريجيه وعن دار العلوم وطرق التعليم حتى أضجره، ولما انصرفا قال الشيخ:

سبحان الله إن نساء هؤلاء القوم أعقل من رجالهم!

لا أذكر كيف كان يومئذٍ رأيى فى حديث الشيخ، أما الآن فرأيى أن النساء أعقل من الرجال.

٥
مناسبات(*)

منذ بضع سنين، كان الناس فى مشرب من مشارب الشاى فى مصر الجديدة، وكانت هناك سيدة معها كلبها، سيدة فرنجية بالضرورة، فإن سيداتنا المصريات لحداثة عهدهن بألفة الكلاب، لم يتعودن استصحابها إلى مشارب الشاى. جعل الكلب يمرح فى المكان متنقلا بين الجموع، يلاعب من يحب ملاعبة الحيوان ومن لا يحب، وانتهى إلى ضابط إنجليزى بين الجالسين، فأخذ يعبث بسرواله يكاد يمزقه، ولم يكن للضابط فى الخلاص منه حيلة إلا أن يخوفه بعصا فى يده.

ففزع الحيوان الأعجم، وانطلق إلى صاحبته شاكيًا باكيًا. عندئذٍ وثبت السيدة مغيظة لا تجد شفاء لغيظها إلا بأن تلطم وجه الجندى. والتفت الجموع فإذا رب السيف ينصرف من غير أن يفتح فاه بكلمة منهزمًا هزيمة الشجاع الكريم بين يدى ربة القلم، وتعود السيدة إلى الشاى تشربه.

* * *

تحدث الناس يومئذٍ بهذه الحادثة، مثال لما فى أدب الإنجليز من فرط الرعاية للسيدات والرفق.

(*) السياسة: الأحد ٢٩ شعبان ١٣٤٤ - ١٤ مارس ١٩٢٦.

وفى هذه الأيام، ذكرت الجرائد أن وزير المعارف المصرية، دعا إليه سيدة من كبيرات الموظفات فى وزارته، ولم يكد يستقر بها المقام فى مجلسه، بمحضر وكيل الوزارة حتى أخذ يجبهها بشتائم من رفث القول، فسارعت السيدة إلى الانصراف منهزمة بين يدى رب اللسان، وصنو صالح باشا عنان.

ونرجو ألا يتخذ الناس بهذا مثالا لآدابنا القومية، فإن وزارة زيور باشا لا تمثل الأمة فى قول ولا فى عمل(1).

ومن العجائب - والعجائب جمة - أن كلمات السباب التى وجهها صاحب المعالى وزير المعارف إلى السيدة نبوية موسى هى بعينها كلمات السباب التى دونها صاحب الفضيلة أحد كبار زمرة العلماء فى كتاب له ظهر أخيرًا فى الرد على كتاب «الإسلام وأصول الحكم» ولا نستطيع على التحقيق أن نقول أى الرجلين انتحل عبارات صاحبه، وقد يكون ذلك من باب «توارد الخواطر» فإن النفوس الكبيرة تتلاقى وبين ماهر باشا والشيخ بخيت تشابه معنوى وجسمى مدهش.

وإذا أراد القارئ أن نلخص له كتاب الشيخ فسنلجأ إلى الشيخ نفسه فى هذا التلخيص، فإنه عفا الله عنه بعد أن كتب ما كتب نثرًا فى أربعمائة صحيفة أو تزيد ختم بأبيات من الشعر تجتمع فيها معانى الكتاب كلها.

قال:

يا عليا كن عليا وتجنب كل حتف
وامحون ما فى كتابك فكتاب الله يكفى
فاتخذ منه طبيبا فلعل الله يشفى

ولما اطلع على هذا السفر الكبير بعض إخواننا من غير زمرة العلماء هم بالرد عليه مبتدئًا من آخره، فإن أظهر ميزة الكتاب أنك تأخذه من آخره إلى أوله أو تأخذه من أوله إلى آخره سواء.

(1) يقصد بوزير المعارف على ماهر فى وزارة أحمد زيور باشا الثانية (١٣ مارس ١٩٢٥ - ٧ يونيو ١٩٢٦).

شطر صاحبنا الأبيات كما يلى:

ياعليا كن عليا   لا تنازل أهل سخف
دعهمو يسعوا لحتف   وتجنب كل حتف
وامحون ما فى كتابك   إن ترد للحق تخفى
وإذا شئت نصيرًا   فكتاب الله يكفى
فاتخذ منه طبيبًا   لقلوب ذات ضعف
عالج القوم برفق   فلعل الله يشفى

ثم سمع هاتفًا يقول: حسبك: حسبك. يارمضان، وألقى فى روعه أن الهاتف ليس بشيطان.

٦

صيام(*)

يقل عدد الصائمين عامًا بعد عام لكن عدد المتكلمين فى الصيام يزداد، ومن الظواهر الغريبة فى هذه السنة أن جرائدنا السياسية محشوة بفصول فى رمضان وليالى رمضان، وفضائل الصيام على الرغم من أن أمين بك الرافعى - آنس الله وحدته - قد اعتزل الصحافة فى هذه الأيام.

ألا يكون ذلك إرهاصًا لمؤتمر الخلافة؟ الذى يظهر أن جريدة الاتحاد تريد أن تحول وجهته إلى البحث فى شئون دينية، مثل فوائد الصوم.

وعلى كل حال فإن فى كثرة الكلام فى رمضان وصيامه نوعا من الإحياء للمظاهر الدينية، ولعل ذلك لقلة السادة الدينيين الذين يتهامسون بالشكوى، من تعطيل تقاليد رسمية معتادة فى بعض شعائر الدين.

وأستطيع أن أؤكد لأولئك الدينيين، أن مجلس الوزراء صائم، فإن صدور قراره برفت السيدة نبوية موسى فى مستهل شهر الغفران، لايكون إلا غضبة ظامئ جوعان.

(*) السياسة: ٨ رمضان ١٣٤٤ - ٢٢ مارس ١٩٢٦.

ونحمد الله على أن هدى وزراءنا إلى تأجيل الميزانية حتى ينعقد مجلس النواب فإن تقدير ميزانية الدولة يكون خطرًا إذا تعرض لنزوات الجوع والظمأ.

أما الأوسمة والرتب، فليصنع بها ما شاء مجلس الوزراء، وليقررها فى ساعة رضا أو فى ساعة غضب وليمنحها لسبب ولغير سبب.

* * *

الناس فى هذا الشهر أقسام ثلاثة، فمنهم صائمون ومنهم مفطرون ومنهم من يظهر بمظهر الصيام وهو لا يصوم.

أما المفطرون فتشم رائحة الدخان من أفواههم وأيديهم وتلمح فى شفاههم لمعة، لم يذهبها نضوب الريق.

أما الأخيرون، فيقطبون جباها ليس فى أساريرها تقطيب ويكثرون من حديث التعب والهزال، وكل مظهر من مظاهر أجسامهم الرابية يشهد عليهم.

والسابقون السابقون تجد فى أعينهم احمرارًا، وفى نظراتهم ازورارًا، وفى مناخرهم اتساعا وفى أرنبة أنوفهم ارتفاعًا، وفى أفواههم تقبضاً وجفافاً، وفى سحنتهم طيا والتفافا. فى مسامعهم طنينًا، فإذا حدثتهم مالت إليك آذانهم وهم لا يسمعون، وفى مداركهم سهوة فإذا خاطبتهم نظروا إليك وهم لا يعون. فى جسومهم وهن يجعل مشيهم دبيبا وفى أعصابهم توتر يدع غضبهم قريبًا.

ويقبل الليل، فيحل لهم ما كان عليهم حرامًا من متاع الدنيا، وكان من حق تلك الآلات المعطلة زمنا أن تحرك برفق، ولكن ابن آدم لا يعرف الرفق فى إرضاء شهوته فهو يجهد بثقيل المطاعم معدة أنهكها عدم الغذاء ويفرغ المشارب فى جوفه حتى يفيض الإناء، ثم ينثنى إلى سيجارة تبعث فى الجسم خدرًا ولذاذة كتمشى البرء فى السقم، وما هو إلا أن يترشف قهوته، ويدخن سيجارته حتى يغدو ما بين يقظان ونائم وحتى تبدو له الدنيا كأحلام حالم.

٧
صيام أيضًا (*)

إذا كان للصيام أثر فى سحن الصائمين وجسومهم، فإن له أثره أيضًا فى تفكيرهم وما يقولون وما يكتبون.

وإذا نظرت فى كتاب «حقيقة الإسلام وأصول الحكم تأليف الأستاذ العلامة الكبير صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية سابقًا» عرفت فى أكثر ما حوى ذلك السفر الضخم علامات صوم على الأقل. لكن الكتاب نُشر على الناس قبيل شهر رمضان فلعل الشيخ بخيت يكون ممن يصومون الأشهر الثلاثة من حيث لا ندرى، بل إن كثيرين ممن شهدوا ملامح الأستاذ وألموا بكتبه، واستمعوا لقوله، يرون أنه يصوم الدهر.

وهذا برهان من براهين.

قال الشيخ فى كتابه «حقيقة الإسلام وأصول الحكم» مانصه:

«فانظر إلى هذا المؤلف ما كفاه أن يحرف كلام الله تعالى ويحمله على غير معناه حتى عمد إلى كلام العلماء بعد موتهم فصنع فيه ما صنعه فى كلام الله

(*) السياسة: ١٦رمضان ١٣٤٤ - ٣٠ مارس ١٩٢٦.

وكلام رسوله ولم يكفه ذلك بل اعتدى على الأحياء فحمل كلامهم على غير مايريدون فجعل كلام حضرة الشاعر الوحيد فى عصره شوقى بك دليلا لما يزعمه، فساق قول ذلك الشاعر مدحًا فى الحضرة النبوية:

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثت   بقتل نفس ولا جاءت بسفك دم

ولم ينظر هذا المؤلف إلى قول ذلك الشاعر:

لما أتى لك عفوا كل ذى حسب   تكفّل السيف بالجهال والغنم

إلى آخر الأبيات.... فإنها صريحة فى أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما قاتل الجهال الذين لم تنفع معهم الحجة والبرهان، والأشرار الذين قال الله فيهم إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل، ولذلك عطف الغنم عليهم عطف بيان"اهـ بحروفه من صفحتى ٣٦٧، ٣٦٨ .

ليس فى بيت شوقى غنم، والبيت منقول على وجهه فى كتاب «الإسلام وأصول الحكم» وإنما الغنم من خيال الشيخ بخيت. والذى فى شعر شوقى هو العمم بعين مهملة وميمين والعين مفتوحة فيما نعلم، اللهم إلا أن يكون أمير الشعراء يريدها مكسورة كرامة لمفتى الديار المصرية سابقًا، ولرأيه الموفق فى عطف البيان وعلى ذلك المنوال ومن التحقيق البرىء من التحريف فى النقل والاعتساف فى الفهم نسج «العلامة الكبير» فى كتابه «حقيقة الإسلام وأصول الحكم».

* * *

هذا ما كان من أمر الشيخ محمد بخيت المطيعى. أما ما كان من أمر الرياسة الإسلامية العليا، فقد أخرجت للناس كتابًا منشورًا، فى لبس البرنيطة.

وليس لنا إلا السمع والطاعة لفتاوى السادة العلماء المتضمنة لنصوص المذاهب الأربعة فى تكفير من لبس القبعة، غير أننا نذكر بكل خشوع لمقام الرياسة الإسلامية العليا، أنه منذ نيف وعشرين سنة، أفتت رياسة إسلامية عليا فى مصر بجواز لبس البرنيطة، وألف أساطين علماء الأزهر لذلك العهد كتاباً معروفًا، يتضمن نصوص المذاهب الأربعة فى حل لبس القبعة.

وعلى كل حال فإن الذى استرعى الأنظار من أمر الحركة التى وجدنا علماء الأزهر على حين غفلة يهرعون إليها مهطعين مقعى رءوسهم شيئان:

الأول أن شيخ الجامع الأزهر والمفتى أعلنا فى المسلمين أنهما «الرياسة الدينية العليا».

وكنا نعرف أن الرياسة الدينية العليا نصف الخلافة، إذ الخلافة هى الرياسة العليا فى الدين والدنيا، وكنا نعرف أن الخلافة وحدة غير مجزأة سينعقد لها مؤتمر ينظر فيمن يكون الخليفة للمسلمين يتولى زعامة الدنيا والدين.

فهل جد للسادة العلماء مطمع فى اقتسام الأسلاب، جعلهم يرون أن تكون الخلافة جزءين فاستأثروا لأنفسهم بالرياسة الدينية العليا، وتركوا للمؤتمر خلافة الدنيا.

أما الثانى فهو أن فتوى العلماء الموضوعة لتحريم لبس القبعة قد ألحت فى الكلام على تغيير الشيب إلحاحًا، حتى لتوهم قارئها أن الغرض الأهم منها هو إيجاب صبغ الشعر الأبيض لا تحريم البرنيطة.

قررت الفتوى أن التشبه بالكفار كفر، وأن اليهود لا يصبغون شيبهم، وأن من لا يغير شيبه متشبه باليهود، فاستقام لهم أن من لا يغير شعره الأبيض فهو كافر.

وقد تحدث الناس أن بعض الشركات الفنية التى تتجر بصبغات الشعور تحتال لترويج بضاعتها بحيل مختلفة وتحدثوا أن شركة لبن «نسله» أذاعت منذ سنين فى أقطار الأرض فتوى صدرت لها خصيصًا من الرياسة الدينية العليا للترغيب فى تجارتها.

فإذا صح أن بين هذه الأحاديث صلة، وأنها ترجع إلى أصل غير مكذوب فطوبى لصبغة الشعر وتجارها، ويا أسفى على الشيب فى الإسلام!.

٨
صيام أيضًا (*)

وكيف نتكلم فى غير الصيام، وهذا رمضان ما فتئ يجرر ذيوله بيننا متباطئًا، وحيثما يممت لا تجد إلا آثار الصوم، ولا تسمع غير حديث رمضان، بل قد حمل بريد أوروبا إلى بعض جرائدنا المصرية حديثًا عن رمضان «لأمير من أمراء الأدب والحسب».

ويقول العارفون إن الأمير (ش) هو من إخواننا الدروز[1] أخذته النصرة للإسلام حين رأى مسلمًا يقول فى بعض العبادات الإسلامية إنها «تعلو على متناول العقل» كما قال الشيخ عبده وقال الغزالى من قبل.

أما الشيخ محمد عبده فيقول فى رسالة التوحيد: «واتفق المسلمون كافة إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه... على أن الدين إن جاء بشىء قد يعلو على الفهم فلايأتى بما يستحيل عند العقل».

أما الغزالى فيقول فى كتابه «المنقذ من الضلال» «فكذلك بان لى على الضرورة، أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة

(*) السياسة: الأربعاء ٢٤ رمضان ١٣٤٤ - ٧ إبريل ١٩٢٦.
(١) يعتقد أنه الأمير شكيب أرسلان.

الأنبياء، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل».

ويقول: «فقد تحامق وتجاهل جدًا من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة»

ويقول أيضًا: «وعلى الجملة فالأنبياء أطباء أمراض القلوب. وإنما فائدة العقل فى تصرفه أن عرفنا ذلك، ويشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة، وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين وإلى هنا مجرى العقل ومخطاه، وهو معزول عما بعد ذلك إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه».

ومهما يكن من شىء فى كلام الأمير (ش) فإننا لا نظن به شرًا، ولا نتهمه بحب الشهرة فيما يحاول، ونحن نشكره الشكر كله على تبرعه بالدفاع عن الإسلام، وإن كان يدفع فى غير هوادة ولا رفق، أقوال حجة الإسلام وأقوال الأستاذ الإمام.

وحاشا الله! لا نقول إن الأمير (ش) لا يفهم العربية، بل نحن أبر بالأمير وأعف قلما من أن نقول إنه لا يفهم الدين.

* * *

هل يكون الأمير (ش) مثلا ممن تظهر فى مقالاتهم أعراض الصيام، كما ظهرت فى تأليف أمير العلماء الشيخ محمد بخيت وكما ظهرت فى أعمال أمير الوزراء زيور باشا؟ أليس قد نسيت وزارة زيور باشا عند إصدار مرسوم الانتخاب أن تحدد موعدًا لانعقاد مجلس النواب؟

وإنى لأخشى على الوزارة الزيورية عاقبة النسيان. فقد أخرج النسيان آدم وحواء من الجنة وهبط بهما إلى دار الشقاء. نسأل الله أن يذكر الناس ويستفيق النيام كما نسأله أن يخلصنا من شهر الصوم بسلام.

٩

عجائب(*)

الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى رجل معروف، من هيئة كبار العلماء، وشيخ معهد أسيوط له مظهر وجاهة دينية وله بين بنى جلدته سمت ممتاز. هو أطول العلماء الأزهريين قامة، وأطولهم عمامة، وأطولهم لحية، وأطولهم سبحة.

قالوا: إن الشيخ كتب للناخبين منشوراً، يحضهم فيه على أن يختاروا لمجلس النواب أهل الدين، ممن لهم حمية فى الذود عن حياض الإيمان، وعزمة فى إعلاء كلمة القرآن.

قلنا: بارك الله للشيخ الأحمدى، فقد رفع للعلماء صوتافى سبيل الله، والناس يظلمون علماء الأزهر فى هذا الزمن، إذ يرمونهم بأنهم لا يرفعون صوتاً لله خالصًا.

لكن أبى القدر أن يتم سرورنا ففوجئنا بنبأ عجيب:

ذلك أن رسالة نشرت منذ أسابيع اسمها (مذكرة الأزهر) ومحتوياتها:

«رجوع الأمة إلى التحاكم فى خصوماتها أمام كتاب الله عز وجل

(*) السياسة: الخميس ٩ شوال ١٣٤٤ ـ ٢١ إبريل ١٩٢٦.

تطهير البلاد من:

أعمال الدعارة والفسق.

إغلاق محلات الفجور.

مصادرة الخمور.

إبطال الربا الذى حرمه الله».

(والقائم بطبعها ونشرها والإنفاق عليها خادمها عبد الرازق عرفة بالأزهر مطبعة المدينة المنورة).

هذه الرسالة الهاتفة بدعوة دينية من جنس ما ينبس به شيخ معهد أسيوط فى مجالسه، لقيت حربا عوانا من الشيخ الظواهرى وإخوانه، فقطع ناشرها من الأزهر ونفى إلى بلده، وصودرت هى حتى لا تقع عليها أعين القراء.

والناس معذورون إذا كانوا لايستطيعون أن يصدقوا أن كبار شيوخ الأزهر نهضوا بدافع من أنفسهم لاضطهاد مسلم يدعو إلى ما دعا إليه الشيخ عبد الرزاق عرفة.

والناس معذرون إذا حيرهم من الرياسة الدينية العليا أن تقول بلسان الشيخ الأحمدى للناخبين: لاتختاروا للنيابة عنكم إلا من يذود عن دينكم وينشر دعوته ويؤيد كلمته، ثم تعمل من جهة أخرى على الصد عن سبيل الله، وإيذاء الداعين إلى تأييد الإسلام. وما جزاء من يفعل ذلك بالمسلمين، ويفعله باسم الدين؟

أما بعد، فما نحن من ذوى الزعامة الدينية حتى نعرض للأمر من جانبه الدينى، ولكننا ننكر على الحكومة هذا العدوان على ما كفله الدستور من حرية القول والكتابة.

ومهما يكن من أمر هذه الرسالة التى لاقيمة لها فى ذاتها فإن مصادرتها ونفى صاحبها عدوان على حرية الفكر، نستصرخ له كل حر فى هذا البلد يغار على الحرية. وأما بعد، فلو أن لنا صوتاً كصوت الشيخ الأحمدى الظواهرى، يرن باسم الرياسة الدينية فى جوانب القطر، لقلنا للناخبين:

(أيها الناخبون: تخيروا لمجلس النواب من له دين، وله مع الدين خلق).

١٠
عرائض(*)

كنا كلما أقبل الصيف، واتقدت جمرة القيظ رأينا الشرطة فى شوارع العاصمة يضعون فوق طرابيشهم أغطية من قماش أبيض، تتسدل من الوراء فتحمى رقابهم من شمس الهجير، وتمتد من الأمام فتظلل جباههم وأعينهم حين ينحسر الظل عن الميادين والطرقات.

وقد هجم الحر فى هذا العام شديدًا عنيفًا، غير أننا وجدنا رجال البوليس فى العاصمة ضاحين، على غير عادتهم، تتلقى رءوسهم ووجوههم ورقابهم لهب الشمس ولفحات الهجير.

وسبق إلى ظننا أن حكمدارية العاصمة نسيت أمر هؤلاء الجنود المساكين كما نسيت رياسة مجلس الوزراء موعد انعقاد البرلمان فى مرسوم الانتخاب فهممنا برفع الأمر إلى لجنة المؤتمر الوطنى لتذكر «رسل باشا»(١)، كما ذكرت زيور باشا بما نسيه ولايزال له ناسيًا، لكن رسل باشا إنجليزى، والإنجليزى لاينسى.

(*) السياسة: الثلاثاء ٢٠ ذو القعدة ١٣٤٤ . ١ يونية ١٩٢٦.

(١) رسل باشا حكمدار العاصمة الإنجليزى.

ليست المسألة إذًا مسألة نسيان، والموضوع محتاج إلى بيان، وقد ذهب الناس فى تأويله مذاهب شتى، فتحدث متحدثون بأن الصلة وثيقة بين فتوى العلماء فى الأزياء وانعقاد مؤتمر الخلافة وبين العدول بالشرطة عن ذلك الزى الشبيه بالقبعة.

ويظن ظانون أن حكمدار العاصمة خاف أن يشن عليه الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى الغارة بصرخة يرسلها من أسيوط فتردد صداها الإسكندرية ولا تزال تتجاوب بها الأصداء حتى تنعقد هيئة كبار العلماء، كما يفعل الشيخ الأحمدى اليوم بمناسبة كتاب «الشعر الجاهلى»(1) وكما فعل من قبل، وكما يفعل من بعد إن شاء الله.

وإذا كان يوجد فى كثير من بلاد القطر رجال لهم فى كتابة العرائض شهرة يخشى بأسها المأذونون والصيارف والعمد، ولا يسلم من شرها الحكام الإداريون ولا القضاة، فإن فضيلة شيخ معهد أسيوط له فى كتابة العرائض والتقارير شهرة أكبر ومقام أظهر.

كان الأستاذ شيخا لمعهد طنطا، فلوحظ الازدياد فى عدد ما يقدم من العرائض فى بلاد الوجه البحرى، ولوحظ أن أكثر مقدمى العرائض ممن لهم صلة بالجامع الأحمدى. فلما نقل الشيخ إلى معهد أسيوط تناقص عدد العرائض فى الوجه البحرى وأخذ يتزايد فى أسيوط وما إلى أسيوط ببركة الشيخ وبركة أتباعه ومريديه.

وما على وزارة المعارف أن تؤسس فيما تؤسسه من المعاهد الجديدة مدرسة لفن العرائض الدينية كما تريد أن تنشئ مدرسة للآثار العربية مع وجود مدرسة للآثار عامة تابعة للجامعة المصرية، وتختار الشيخ محمد الأحمدى لمدرسة العرائض وبذلك تحيى فنا من فنون الآثار يخشى عليه الاندثار وتنجى المعاهد

(1) وهو الكتاب الذى ألفه طه حسين ونشره عام ١٩٢٥ وأحدث معركة فكرية وسياسية معروفة.

الإسلامية من داء العرائض الذى يحمل جراثيمه الشيخ الأحمدى وينشرها حيثما حل أو ارتحل.

هذا وإننا نوجه إلى علماء الدين نصيحة خالصة، ألا يتخذوا الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى أسوة لهم فى طريقة الدفاع عن علمهم ودينهم، فإن العرائض والتقارير شر ما يلجأ إليه فى ميدان البحث والنظر وأبعد شىء عن كرامة العلم وكرامة الدين.

١١

بين القاهرة والصعيد(*)

إذا انحدر بك قطار الصعيد عن محطة القاهرة، يمشى الهوينا، فى ضجة ترسلها الصفارة موقعة على أنغام البخار، حمدت الله على أن لم تكن فى ديار ابن السعود ورهط ابن السعود.

وإذا كانت أبواق محمود باشا عزمى من آلات الطرب فى ملة الوهابيين يحرم سماعها، ويحل رمى سامعيها بالجمار، فإن صفارة قطار الصعيد حين تهتف عالية متقطعة بصاحبها دوى أجش رتيب أحق بأن تكون معازف يجب أن تدمر تدميرا.

ولقد كنا نتبرم بدين هيئة كبار العلماء الذى يدفع بالكفر كل نزوع إلى العلم والفهم والذوق، فلما جاءنا دين أهل نجد يهدم على من فيها قبابا قد تكون آثاراً فنية تاريخية، يعرف خطرها أهل الفن والتاريخ، ويقذف وجوه الجند بالحجر وبالرصاص إذ يتداعون بالبورى، رضينا بدين هيئة كبار العلماء، الذى إن جمد مرة استرخى مرارًا، ثم هو لم يبلغ بعد أن يقذف رصاصًا ويرمى أحجارًا.

(*) السياسة: الخميس ٢٠ ذو الحجة ١٣٤٤ - ١ يولية ١٩٢٦.

وهب أم كلثوم ذهبت مرة تحج وتعتمر، وبدا لها بين الصفا والمروة أن تشدو شدوها لتوقظ من سباتها تلك الكلاب التى يتركونها راقدة يتعثر بها الحجاج فى جوانب المسعى، أكان سادتنا الوهابيون يعرضون بالأذى للموسيقية المصرية الحسناء ويخرسون مزمارًا من مزامير الله، من حقه أن يهتف فى حرم الله؟

* * *

نترك رهط ابن السعود، يسكتون كل صيحة مطربة، ويخربون بأيديهم كل ما بنى الإسلام من قباب، من غير أن تبنى أيديهم شيئًا، ونترك هيئة كبار العلماء، تبحث فى أنحاء الأرض عن مسلم تكفره، ثم نعود إلى قطار الصعيد، يسير رويدًا يجتاز القاهرة، بين خرائب وأكواخ تجمعت فيها أنواع القذارات، ومظاهر الخراب وتصاعدت منها روائح مؤذية.

ما هذه الأرض المهملة فى وسط العاصمة؟ حقا فى الخط الحديدى الوحيد الذاهب إلى الأقصر وأسوان والسودان، تترك بؤرة لجراثيم الأمراض وتعترض لأنظار الغادين والرائحين، عيبا فى جبين القاهرة فضاحًا، وشهادة غير مشرفة لمصلحة التنظيم، ولا لمصلحة السكك الحديدية، وأغلب ظنى أن الأرض ملك لوزارة الأوقاف وسلام لك من وزارة الأوقاف.

أليس العقل يقضى بأن نبدأ بهذه المفاسد أولا؟ وأن يعنى بدفع مضارها وشناعتها من قبل أن توسع شوارع ليست ضيقة بأهلها ولا طارقيها، وليس توسيعها إلا إسرافًا وبدادًا؟

سمعنا أن شارعًا قليل الحركة فى حى قليل الحركة تقرر جعل عرضه ٣٥ مترًا وذلك يستوجب نزع ملكيات، وهدم منازل، بل يستوجب نقض البناء الفخم الذى شُيد حديثًا للسيارات الملكية. وبعض تلك النفقات يكفى لتنظيم وجه القاهرة من ناحية الصعيد، وجعله لائقًا بالعاصمة المصرية، وإصلاحه يصلح حياً من الأحياء الوطنية الكثيرة السكان المحتاجة إلى الرعاية.

كان جارًا لى فى السفر رجل عرفت أن مسكنه فى شارع جامع عابدين فقلت له: لابد أن يكون توسيع الشارع لم يسرك. لأنه سيأتى على دارك! قال: بلى

وحياتك سرني، فإن فى ذلك الشارع أمة من البرابرة يجتمعون قبيل نصف الليل إلى مائدة لهم يلعبون بالورق، فى لبسة المتفضل، فى حجرة مفتحة النوافذ، فى هرج صخب. فإذا أخذت برأسهم صورة اللعب وغيره، رأيتهم فى غير حشمة ولا حياء يصفقون ويرقصون، متصايحين بأغان ينبو عنها السمع، ولا تليق بجلال مكانهم ولا حرمة جيرانهم.

سألت الرجل: ولم لا يشكو أهل الشارع أمرهم إلى حكمدارية القاهرة؟

فأجاب فى خفوت حتى لم أكد أسمعه: لا يستطيع السكان أن يشكوا، ولا تستطيع الحكمدارية أن تسمع.

ثم سكت وسكت، فما برحنا صامتين حتى افترقنا.

* * *

ولما فصل القطارعن المدينة، تنسمنا عرف الريف نسيمًا زكيا، ونظرت فإذا ترعة الإبراهيمية تسايرنا، من عن يمين تارة وشمال تارة أخرى، تسقى الحرث والنسل من القاهرة إلى ديروط بمائها العذب وإن كان كدرًا.

وإذا كان جميلاً منظر الماء جارياً مضطربًا يحمل عناصر الحياة فى أثنائه ويمثل مظاهرها فى حركته فما هو بالجميل أن تشهد الرمم تطفو وترسب كلما وجهت عينيك إلى الإبراهيمية. كأنما هى مقبرة متحركة، أو لجة من دماء مسفوحة، تضطرب فى جنباتها حيوانات مذبوحة.

إن كان قومنا يجهلون أن إلقاء الميتة فى هذا الماء المشروب يضر بصحتهم ويخل بما ينبغى للموت من كرامة على كل حال.وإن كان قومنا يجهلون أن دفن الرمم فى الأرض ينفع سمادًا لها، ويقى العيون مشهد الأشلاء الممزقة، والأنوف رائحة اللحوم العفنة فما للحكومة لا تتولى بنفسها الأمر؟ وهو لا يكلفها كبير عناء ولا كبير نفقة.

ومن عجب أن ترعة الإبراهيمية تمر بباب أكثر المراكز، حيث يوجد المأمور ويوجد الضباط والجنود والخفراء. كل أولئك يرون ما نرى من هذه الشناعات ويشربون صديد الأموات.

* * *

تعبت من الأرض وما فى الأرض من آلام، ومن بعض القادرين على التمام، ونظرت نظرة فى السماء فإذا البدر فى اكتماله، مشرق متهلل يملأ الآفاق نورًا، ويرسل أشعته البيضاء على المزارع الخضراء فتلمع لوزات القطن فى غلائلها المصفرة الرقيقة، تختال فى تماوج النسيم بين نضرة حياتها الجديدة، وبهجة الضياء السماوى يبعثه البدر.

سعيد أنت يا بدر فى أفقك الأعلى، فليس فى السماوات خرائب قذرة كخرائب القاهرة يجتازها قطار الصعيد.

وليس فى السماوات برابرة يزعجون النوم فى غسق الظلام.

وليس فى السماوات رمم تقذف فى الماء ويشربه الظمأء.

وبعد ذلك ليس فى السماء وهابيون وليس فى السماء هيئة كبار العلماء.

١٢

حديث ليدى دراموندهاى مع فضيلة المفتى(*)

إذا كان فى بعض المناظر المصرية جمال جذَّاب يشفع لما فيها من نقائص، كما يشفع كرم المصريين وحنانهم لزلاتهم فإن لليدى دراموندهاى من اللطافة والسحر ما هو أكبر أثرًا وأعظم خطرًا.

وماذا ينفع منظر الفاتنات الشرقيات فى أقنعتهن الجذَّابة، ومنظر جماعة الأفندية المتأنقين، ومنظر المشايخ والسقايين والشحاذين والنساء، ذوات الجلاليب السوداء الحريرية ينتظرون السواح بباب الفندق إلى حيث يقودونهم إلى الصحراء؟

ماذا يستطيع أن يفعل كل أولئك إلى جانب ما تستطيع أن تفعله صحفية جميلة إنجليزية؟

وفى حديث المفتى الأكبر مع السيدة المحترمة من مخايل التسامح والمياسرة ما لا عهد لنا بمثله من رجال الرياسة الدينية العليا حين يذكر السفور أو يذكر تغيير الأزياء.

(*) السياسة: الأربعاء ٢٦ ذو الحجة - ٧ يوليو ١٩٢٦.

كانت المسألة مسألة إيمان وكفر، فلما مستها يد الليدى دراموندهاى انقلبت إلى «مسألة عادة وسهولة أكثر منها قانونا». وكذلك حلت لنا الصحفية العظيمة عقدة السفور والحجاب وعقدة القبعة والطربوش.

وياليت السيدة تتولى كل ما بيننا وبين الرياسة الدينية العليا من مشاكل لتفض أسباب الخلاف! فليس باقى مشاكلنا الدينية بأعسر حلا، ولا أسمى فى الدين محلا، وليس سائر كبار الشيوخ أصلب من مفتى مصر عودًا، ولا أشد جمودًا.

وما كان أحسن الشيخ الوقور مفتى الديار المصرية إذ يبين لسائلته الحسناء «أن الطبيعة البشرية ضعيفة، والوجه الحسن سبيل قوى للإغراء».

لم تصف الكاتبة الأديبة نبرات صوت الأستاذ عندما كان يلقى مواعظ الحكمة ولم تقل لنا كيف كان شعاع نظره يترامى، وكل ماقالته إن المفتى كان يتحدث فى شىء من عمق الإحساس. بيد أنها وصفت ثيابه الحريرية وعمامته الشفافة البيضاء ولحيته الرمادية اللون ثم قالت إنها حين ألقت عليه سؤالها أخذ تشيقة طويلة قبل أن يأخذ فى الحديث.

ولو كنت مفتيًا للديار المصرية، وكُتب لى أن أجلس إلى الليدى درامونـدهاى متحدثًا لأخذت التنشيقة الطويلة قبل دخول الليدى ثم جعلت أتنسم النشوق فى حضرتها تنسما خفيفا مثل حسو الطير ماء الثماد.

بقى شىء واحد هو أن ليدى درامونـدهاى تظن أن «المفتى الأكبر فى مصر أشبه ببابا محلى تسير كلمته ورغباته على المؤمنين، وقراراته لا تقبل مناقشة».

وليس المفتى الأكبر ياسيدتى شبيهًا بساكن الفاتيكان. ووظيفة إفتاء مصر الآن كالأعضاء الأثرية التى تلبث ناتئة فى الجسوم من غير أن يكون لها عمل.

والمفتى موظف تابع لميزانية وزارة الحقانية يتقاضى كسائر الموظفين راتبًا شهريًا، وكل عمله أن يجيب من يسأله عن حكم فقهى كما يجيب أى فقيه يسأل عن حكم يعرفه، والمحاكم الشرعية ممنوعة منذ عهد الشيخ بخيت ـ غفر الله له ـ من أن تجعل لفتواه اعتبارًا فى أحكامها.

وقد يكون من المناسب أن يوجه نظر البرلمان إلى أن إلغاء وظيفة الإفتاء وما يتبعها يوفر لميزانية الدولة مالا من غير أن يضيع على الأمة نفعًا فى دينها أو دنياها ويمكن أن يستخدم ذلك الوفر فى إنشاء ماتقتضى حالة المحكمة العليا الشرعية إنشاءه من وظائف ضمانًا لسير العدل من غير إبطاء ولا إرهاق لرجال القضاء.

من مصلحة الدين أن تلغى تلك الوظيفة ما دام وجودها يوقع فى وهم الناس أن فى الإسلام بابا تسير كلمته ورغباته على المؤمنين، وقرارته لا تقبل المناقشة.

المحتوى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. maktabetelosra.. org
E - mail : info @egyptianbook.org

مكتبة الأسرة
٢٠٠٦

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشباب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة



ستظل القراءة هى المظلة الرئيسية
للبناء الروحى والفكرى والوجدانى
للإنسان، والثقافة هى بكل المقاييس
أفضل استثمار لبناء مجتمع المستقبل
و«ثقافة السلام» هى الضمان الأكيد
لإرساء دعائم الأمن والسلام الاجتماعى،
والتسامح ومكافحة العنف، ونشر العلم
والمحبة والإخاء والديمقراطية،
والتواصل مع الحضارات الأخرى.

سوزان مبارك

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢ جنيه